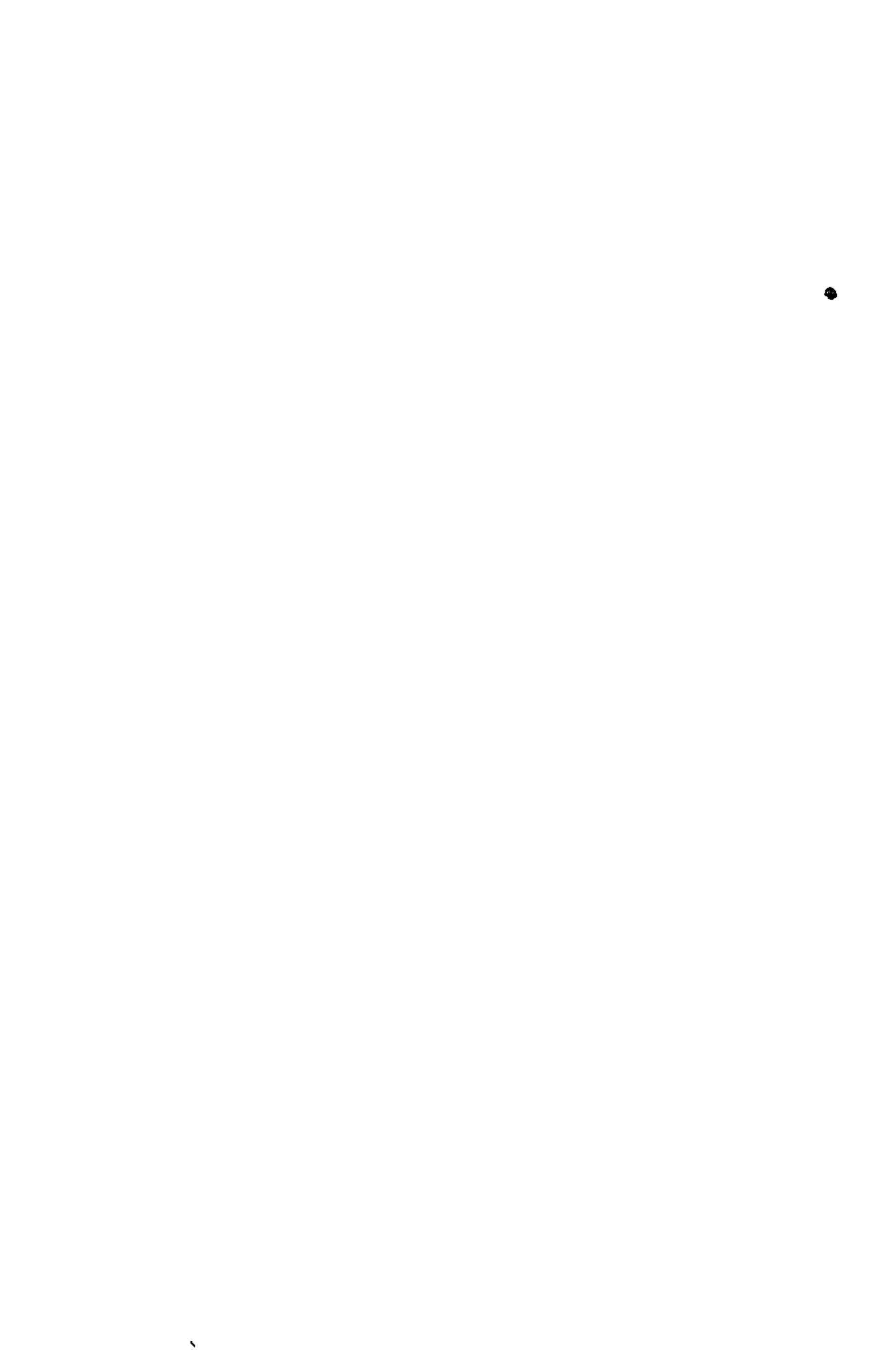
.. وماذا بعد حرب أكتوبر؟

مصطفى أمين | د. أحمد كمال أبو المجد
محمد زكي عبد القادر | د. حسين مؤنس
صلاح حافظ | أمينة السعيد
صالح جودت | فتحي غانم
سعيد سنبل | إبراهيم نافع
الدكتورة طلعت الرفاعي | محمود عوض
حلمي مراد | حمدي عباس
د. السيد أبو النجا | يوسف السباعي

٦ اكتوبر ١٩٧٤

.. وماذا بعد حرب أكتوبر ؟



مصطفى أمين
د. أحمد كمال أبو المجد
محمد زكي عبد القادر
د. حسين مؤنس
صلاح حافظ
أمينة السعيد
صالح جودت
فتحي غانم
سعيد سنبل
إبراهيم نافع
الدكتورة طلعت الرفاعي
محمود عوض
حلمي مراد
حمدي عباس
د. السيد أبو النجا
يوسف السباعي

.. وماذا بعد حرب أكتوبر ؟



دار المعارف بمصر

الغلاف بريشة الفنان مصطفى حسين

الناشر : دار المعارف بمصر ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

مقدمة للمشرف العام على دار المعارف

. . وماذا بعد حرب أكتوبر ؟





معركتنا مع إسرائيل فى ٦ أكتوبر الماضى كانت نهاية مرحلة وبداية مرحلة ، أو هى خط فاصل بين عهدين : عهد كانت فيه قضيتنا قد خمدت نهائيًا فى مجلس الأمن ، وانتهت فيه مخاوف المحافل الدولية من أن تتحول القضية إلى حرب ساخنة تقلق أمن العالم ، واختفت فيه الآراء التى كانت تحذّر من ردود الفعل إذا لم يحصل شعب فلسطين على حقوقه المشروعة ولم تَجْلُ إسرائيل عن الأراضى التى احتلتها بعد حرب ١٩٦٧ . . وبين عهد أفاق العالم فيه على جيش مصر يعبر قناة السويس ويحطِّم خط بارليف ، وعلى جيش سوريا يتقدم فى مرتفعات الجولان بشجاعة وبطولة ، ويكبّد العدو خسائر جسيمة فى الأنفس والمعدات ، وقد برهن الجيشان على قدرتهما على التخطيط العسكرى الحديث ، واستخدام الأسلحة المتطورة ، وبرهن العالم العربى على تماسكه فى مواجهة الخطر ، وتعاون كل بلد منه مع دولتى المواجهة فى حدود إمكانياته واستعداد الجميع للتضحية والبذل بمجرد أن وجدوا القيادة الحكيمة التى تريد أن تأخذ بأيديهم إلى حيث ينتصرون .

هذه المفاجأة قضت على نظرية الأمن الإسرائيلى ، وخلقت للعرب سلاحاً

جديدًا هو صعوبة تنبؤ إسرائيل بردّ الفعل عندهم كلما نشأت حرب جديدة ، وبالتالى نوع الاستعداد ومداه الذى يجب أن توفره لنفسها فى مواجهة هذا الرد . أما أمريكا وروسيا وهما العملاقان اللذان يتنافسان على أقدار العالم فقد أدركا فجأة أن فى العالم العربى قوة ذاتية كافية لا تستمدّ وجودها منهما . والدليل على ذلك أن رئيس جمهورية مصر أنهى مهمة المستشارين السوفييت حين لم يجد من دولتهم التعاون المطلوب ، ودخل الحرب من غير أن يستأذنها ، وأن السعودية والجزائر والعراق والكويت وليبيا وإمارات الخليج وتونس والمغرب وعدن قد وقفت كلها مع مصر وسوريا غير عابئة بمصالحها مع الدولتين الكبيرتين ولا مترددة بسبب تباين أنظمة الحكم فيها ، أومتخلفة بسبب الخلافات التى كانت قائمة فيما بينها .

صحيح أنه قد نشأت خلافات أخرى فى أعقاب المعركة بين مصر وسوريا ، بين مصر وليبيا ، بين مصر والعراق ، بين مصر والأردن ، بين مصر والمقاومة الفلسطينية ؛ ولكن هذه الخلافات أمر طبيعى مادامت مصر هى التى تقود ، وهى التى تأخذ على نفسها مسئولية القرار ، على أن الخلافات التى استجدت هى مجرد ذبذبات فى الخط العام الذى رسمه أنور السادات ليصعد إلى أمل ولا ينزل إلى هزيمة . وآية ذلك أن الخلاف مع العراق قد تحوَّل إلى تعاون ، وأن الخلاف مع الأردن قد اختفى ، وأن الخلاف مع ليبيا قد تجمّد . والأمل كبير فى أن يتمكن القائد بحكمته من أن يعلى صوت المعركة فوق صوت كل خلاف .

والآن أين مكاننا وقد أصبحنا على خط جديد فاصل بين عهدين : عهد استرجعنا فيه بعض أراضينا وأثبتنا فيه وجودنا ، وعهد نريد أن نستردّ فيه باقى أراضينا المحتلة ونحصل على الحقوق المشروعة لشعب فلسطين ؟

إن موقف أمريكا من الشرق الأوسط كان يعبّر عنه نيكسون وكيسنجر ؛ أما نيكسون فقد استقال تحت وطأة قضية ووترجيت ، وأما كيسنجر فقد خلقت أحداث قبرص الأخيرة شيئاً من عدم الارتياح إلى سياسته . وإذا كان الرئيس الجديد فورد قد أكّد غير مرة فى تصريحاته حرصه على استمرار السياسة الخارجية للولايات المتحدة فإن هذا التأكيد قد يفقد حرارته بعد اجتياز فترة الانتقال .

علينا إذن أن نعتمد على أنفسنا . وقد نجحنا حتى الآن فى فكّ الاشتباك مع أمريكا . ولعلنا ننجح بعد حين فى تحييدها . إن أمريكا لا يمكن أن تفرط فى إسرائيل ، ولكنها تؤمن بنوع من التعايش بين إسرائيل وبين العرب تؤمّن به المصالح الاقتصادية والسياسية الأمريكية . وهيهات أن يتحقق ذلك مادامت إسرائيل تحلم بالتوسع على حساب العرب ، ومادام العرب يرون فى إسرائيل عدوانًا على الفلسطينيين الذين أُخرِجوا من ديارهم ليعيشوا مشرَّدين .

وأمريكا لا تسمح لروسيا ولغرب أوربا أن يسيطر أحدهما على الشرق الأوسط لأسباب استراتيجية وسياسية واقتصادية . ولذلك لا تسمح للاتحاد السوفييتى بالسيطرة عليه أو التدخل فى شئونه الداخلية ، وإن كانت من ناحيتها لا تهدّد أمن الاتحاد السوفييتى بإقامة قواعد عسكرية فى العالم العربى وفى إسرائيل مادامت هذه المنطقة متاخمة لحدود الاتحاد السوفييتى . أما غرب أوربا فلا يزال الإنذار الأمريكى لإنجلترا وفرنسا وإسرائيل فى سنة ١٩٥٦ ماثلا فى الأذهان بعد أن هاجم الثلاثة بورسعيد لاحتلال منطقة القناة .

هذا عن أمريكا . أما عن الجبهة الشيوعية – أقصد الاتحاد السوفييتى والصين – فإذا لم يوجد تعارض فى المصالح الأماسية بين الصين وأمريكا فإن هناك تعارضاً بين مصالح روسيا وأمريكا فى الشرق الأوسط .ولكن الفصل بين هذه المصالح المتعارضة لا يمكن اليوم أن يتم بالحرب الساخنة بعد الأسلحة النووية وإنما يكون بالحرب الباردة . ولم يكن القتال فى فيتنام والانقلاب فى قبرص ، وبين الباكستان وبنجلاديش إلا مظهراً من مظاهر هذه الحرب الباردة .

والانفتاح بين روسيا وأمريكا مع ذلك دعت إليه أسباب اقتصادية وتكنولوجية وسياسية . ولكن روسيا بدأت تخاف من تغلغل الاقتصاد الأمريكى فى بلادها ، لأنه إقرار بتفوق الرأسمالية على الشيوعية ، ولذلك حدثت ردَّة فى هذا الانفتاح . ولكن الدولتين العظميين لا تزالان تسعيان إلى التفاهم كلما بلغت حدة الاختلاف بينهما مبلغاً يدعو إلى التصادم .

إن أمريكا عرفاناً منها بالمكانة القيادية التى لمصر فى العالم العربى ومنعاً لاحتكار

الاتحاد السوفييتى لها مرة أخرى قد بدأت تخفّف من ضغطها الاقتصادى عليها ، وهى ترجو من وراء ذلك أن تصل إلى حل سلمى للقضية الفلسطينية . ولكن مصر تضع مصالح الفلسطينيين نصب عينيها قبل أن توافق على شىء ، ولا شك أن هذا هو الذى يؤخر انعقاد مؤتمر جينيف .

وليس من الإنصاف فى شىء أن نقرر أن مصر هى وحدها الحريصة على حقوق العرب ، فهى ليست أحرص من المملكة السعودية ، ولا شك أن الاستثمارات الأمريكية الكبيرة فى المملكة ، وأهمية البترول السعودى فى العالم ، والمكانة الروحية التى للمملكة فى العالم الإسلامى لها وزنها الكبير فيما نرجو أن نصل إليه جميعاً من حلول . إن للملك فيصل موقفه الملحوظ فى المعركة من أولها ، وله موقفه الحاسم تجاه القدس ، وعونه الحالى خلال المعركة مشكور ومقدور .

كذلك ليس من الإنصاف أن ننسى ما قدّمته الجزائر والكويت وليبيا وإمارات الخليج وباقى البلاد العربية وإن كان بمقادير مختلفة . إن الموضوعية فى قيادة المعركة تقتضينا أن نتناسى الخلافات الطارئة وأن نذكر الأعمال وحدها .

ثم ماذا ؟

ثم إن إسرائيل لا تستمد وجودها من جيشها وحده ، ولا من أمريكا وحدها ، وإنما تستمدّه من تفوقها التكنولوجى ، من ارتفاع دخلها ، من تخطيط إنتاجها . وهى لا تستأثر بعطف العالم لأنها تهيمن فقط على وسائل الإعلام ، وإنما تحظى به لأن الشعب اليهودى فى العالم كله بهيئاته ومؤسساته يخاطب شعوب العالم بهيئاتهم ومؤسساتهم . إن العلماء يتفاعلون مع العلماء والأدباء يتفاعلون مع الأدباء ورجال الأعمال يتعاملون مع رجال الأعمال ، فتى يكون للعرب مثل ما لهم ؟

إن معركتنا مع إسرائيل طويلة ممتدة . ويخطئ من يظن أن المعركة ستكون دائماً على خط النار . فالقتال لا يفضها ولا يكسبنا النصر . وإنما الذى يكتب لنا البقاء هو حضارتنا . هو ما فى أدمغتنا من علم ، وما فى سلوكنا من تقدير . ولست بهذا أقلل من أهمية السلاح والمال وشجاعة الشجعان ، وإنما أبرز شيئاً كبيراً هو أن البقاء للأقوى ، والأقوى بلغة العصر لم يعد هو الذى يرفع كذا كيلو جراماً من الحديد ، وإنما هو

الذى يسخّر الذرة ويطلق الصواريخ والأقمار الصناعية ويصنع الفانتوم والكونكورد .
إن من يحمل فأسه فى القرن العشرين لا يستطيع أن يتغلب على هؤلاء .

من أجل هذا دعوت عدداً من أئمة الباحثين أن يكتبوا عن حاضرنا بعد حرب أكتوبر فى نواحيه المختلفة ، ولعلى أغفلت الناحية العسكرية عن قصد ، لأن كثيرين من إخوانى الصحفيين قد أوفوها حقها من البحث والتحليل .

والآراء التى أبداها كل من هؤلاء الباحثين لا تعبّر بالضرورة عن رأى دار المعارف ، وإنما هى محاولات للتفكير بصوت عال يتسق مع حرية الكلمة التى هى من خصائص هذا العهد .



مصطفى أمين

« كان » . . . فعل ماض ! ! . .







كان ذلك فى أواخر شهر مايو سنة ١٩٦٧ . وكانت صحف القاهرة تنشر بالخطوط العريضة المانشيتات الضخمة عن حشد الجيوش المصرية فى سيناء ، وعن الاستعدادات الهائلة للحرب ، وعن الخطط التى وضعناها لكسب المعركة . . .

واستدعانى مأمور سجن ليمان طرة لمقابلته على عجل . وجاء « النوبتجى » الذى يحمل الإشارة يتعجلنى لأن الأمر هام وسريع . . . وأسرعت إلى مكتب المأمور ، فأجلسنى على مقعد ، وناولنى ورقة وهو يقول :

– هذه ورقة من رياسة الجمهورية . والمطلوب منك أن توقعها فوراً . .

وناولنى الورقة . وذهلت . إنها ورقة مكتوب عليها « أنا الموقع على هذا مصطفى أمين يوسف أقر وأعترف بأننى تنازلت عن شقتى رقم ٦٢ بالطابق السادس بعمارة وديع سعد ٨ شارع صلاح الدين بالزمالك ، بكل ما فيها من أثاث . وهذا إقرار منى بذلك . . . »

وسألت المأمور فى عجب : ما هذا ؟

قال المأمور : رياسة الجمهورية تطلب منك أن توقع هذا .

قلت : أنا أقيم فى هذه الشقة منذ عام ١٩٤٩ ، وأدفع إيجارها بانتظام ،

فكيف أتنازل عنها ؟

قال : هذه هى الأوامر .

قلت : ولكنى لن أوقع !

قال : أنصحك أن توقع . . . حتى لا تغضب رياسة الجمهورية .

قلت : وماذا تستطيع رياسة الجمهورية أن تفعل أكثر مما فعلت ؟!

أنا محكوم علىّ بالأشغال الشاقة المؤبدة !

قال : إن أحد كبار ضباط الجيش تفرّج على شقتك ، وأعجب بها .

قلت : كيف يدخل شقتى وهى مغلقة ومفتاحها معى ؟

قال : ليس من حقك أن تسأل هذا السؤال .

قلت : كيف لا يكون من حقى وهذا بيتى ؟

قال : أنت الآن تعارض فى قرار جمهورى !

قلت : أعطنى الورقة . .

وأعطانى الورقة ، وكتبت عليها بخطّ يدى :

« أرفض أن أتنازل عن شقتى . وأنا فى دهشة أن أقرأ فى الصحف أن الجيش المصرى يحتشد للاستيلاء على إسرائيل ، وأجد أحد كبار ضباط الجيش المصرى يحتشد للاستيلاء على شقتى ! وبدلاً من أن يكون الآن فى غرفة العمليات فى سيناء يضع الخطط للاستيلاء على إسرائيل أجده فى شقتى فى الزمالك يضع الخطط للاستيلاء عليها . . . »

ووقعت على الورقة بإمضائى ، وسلمتها للمأمور !

وعدت إلى زنزانتى وأنا قليل الثقة بما سوف تحققه قيادة الجيش المصرى فى إسرائيل ، مادامت مشغولة فى الوقت نفسه بأمر أكثر أهمية ، وهو الاستيلاء على شقة مواطن ، مسجون فى السجن ، مقيد الحركة ، لا يستطيع أن يقاوم . . « الغزاة » الذين أخطأوا فى معرفة عنوان ميدان القتال !

وقلت لنفسى إنه من غير المعقول أن يحدث لى وحدى هذا الذى حدث . إن معى فى السجن ألوفاً من المسجونين السياسيين والمعتقلين السياسيين ، ولابد أن

كثيراً من بيوتهم قد اقتحمت ، باعتبارها « قلاع الأعداء » ، ولابد أن بعضهم اضطر للتوقيع تحت الضغط والوعيد والإرهاب . واستنتجت من هذا العبث الذى حدث معى ، أنه دليل على أن ما يقال عن الاستعداد للهجوم على إسرائيل هو كلام يقال للاستهلاك المحلى . وأن الغرض منه انتهاز هذه الفرصة للاستيلاء على شقق الناس وبيوتهم باسم المعركة ، والقبض على خصوم أصحاب مراكز القوى بحجة حماية أمن الدولة فى أثناء القتال . . ومضت الأيام تسير متثاقلة إلى آخر مايو . .

وامتلأت الصحف قبيل المعركة بأنباء وتصريحات تعلن النصر فى المعركة . . . وكنت جالساً مع عدد من زملائى المسجونين فى عنبر واحد بسجن ليمان طرة . وكنا نتحدث عن الحرب ، وسألنى المسجونون ما رأيى فى هذا الحشد العظيم ؟ قلت : إننى ضد هذا الحشد ، ولا أوافق عليه ، وأتوقع أن تكون نتيجته أن تنقضّ علينا إسرائيل وتهزمنا شرّ هزيمة !

ونزل كلامى كالصاعقة على المسجونين . وانتهى الحديث وعدت إلى زنزانتى . وبعد دقائق أقبل علىّ أحد الضباط مهرولاً يدعونى إلى مقابلة مأمور السجن على الفور .

وسألت الضابط عن سبب هذا الاستدعاء ، فقال إنه لا يعلم . وذهبت إلى مأمور السجن الذى بادرنى بقوله : هل قلت للمسجونين إنك غير موافق على الحشد ؟ قلت : نعم ! قال المأمور : هل قلت لهم إن الجيش سيهزم ؟ قلت : نعم . قال : ألم تقرأ الصحف ؟ قلت : أقرؤها . قال : ألم تقرأ فى الصحف أن الجيش المصرى سيهزم الجيش الإسرائيلى فى بضعة أيام ؟ قلت : قرأت ! قال : ألم تقرأ أن أم كلثوم ستغنى فى تل أبيب أول يوم خميس فى الشهر القادم ؟ قلت : قرأت ذلك . قال المأمور غاضباً : كيف تقول بعد كل هذا إن الجيش المصرى سيهزم ؟ ! قلت : لأننى أعرف قيادة الجيش المصرى ، وأعرف حقيقة الحالة . قال المأمور : أرجوك ألّا تكرر هذا الكلام حتى لا يصل إلى الجهات العليا . قلت : إننى أريد أن يصل كلامى هذا إلى الجهات العليا ، وسوف أكرره إلى أن يصل إلى الجهات العليا . وسوف أستمر أعارض قيام الحرب ، إلى أن تدخل بلادى الحرب ؛

وبعد خمس دقائق من دخولها سوف أعلن تأييدى للحرب ، لأننى سأعرف عندئذ أن إنذارى وتحذيرى لم يفعلا شيئاً ، وواجبنا فى وقت الحرب أن نقف جميعاً صفًّا واحدًا مع بلادنا مهما كان رأينا فى الحرب نفسها . . .

وأمر مأمور السجن بإعادتى إلى الزنزانة ، وأصدر أوامره بمنع اختلاطى بالمسجونين أو التحدث إليهم .

وكان مأمور السجن ينظر إلىّ كأننى مجنون ، وتصور أن سنوات السجن أثرت على قواى العقلية حتى إننى أصبحت أتوقع الهزيمة على حين أن الدنيا كلها تؤكد النصر !

وعشت بضعة أيام معزولاً عن المسجونين . . .

وفى يوم ٥ يونيو وجدت حركة غير عادية فى السجن . أغلقت فجأة جميع الزنازين . أعيد المسجونون من العمل . وبعد ساعات أقبل الصاغ محمد كمال الدين أركان حرب اللبمان ، وفتح باب زنزانتى وحدها دون جميع الزنازين . وقال لى : المدير أمرنى أن أفتح باب زنزانتك ، وأخبرك أن الجيش المصرى اقتحم إسرائيل ، وفى طريقه إلى تل أبيب ، وأننا أسقطنا ٣٨ طائرة . . .

قلت فى هدوء : هذا غير صحيح !

قال فى انفعال : كيف لا يكون صحيحاً . هذا بلاغ رسمى !

قلت : ولو !

قال : وأذيع فى الإذاعة . .

قلت : ولو!

قال : كيف تعرف أن البلاغ الرسمى غير صحيح ، وأنت فى داخل زنزانتك فى السجن ؟

قلت : لأننى أعرف كيف تكتب البلاغات الرسمية !

وهزّ الصاغ محمد كمال الدين رأسه فى حزن وأسى لأن صحفيًّا كبيراً فقد عقله فى الزنزانة !

ومضت الأيام والزنزانة مغلقة ، وإذاعة السجن تنقل عن إذاعة القاهرة

وإذاعة صوت العرب أنباء الانتصارات التى حققناها !

وفى يوم ٨ يونيو فتحوا باب زنزانتى ، وجاء أحد الحراس يبلغنى أن المأمور يريد أن يرانى على الفور. ودخلت مكتبه ووجدته يلطم وجهه بكفيه ويقول :

– كيف عرفت ؟ . . كيف عرفت ؟

قلت : لست وحدى الذى كان يعرف هذه الحقيقة !

قال : لماذا لم يقولوها ؟

قلت : حتى لا يحدث لهم ما حدث لى !

قال المأمور : تصور ليس عندنا بندقية واحدة من القناة إلى القاهرة . ليس عندنا عسكرى واحد ! تصور أن الهزيمة شاملة كاملة ! هل هذا معقول ؟

قلت : هذا هو المعقول . إن واحداً زائداً واحداً يساويان اثنين . إن معلوماتى أننا كنا نعدّ جيشاً ليحافظ على النظام ، ولا نعد جيشاً ليحارب . الضباط الذين أرسلناهم فى بعثات إلى الكليات الحربية فى روسيا وأمريكا وإنجلترا ويوغوسلافيا نعينهم رؤساء لمجالس إدارات شركات الصابون والسردين وتعمير الصحارى . . . وعندما يجلس المحاربون فى المكاتب ستترك مهمة القتال للمدنيين !

وتركت المأمور وهو شبه محطم ، واتجهت إلى زنزانتى وأنا أجرّ قدمى . . ووجدت نفسى أرتمى على فراشى . ودخل جارى فى الزنزانة السجين أنور زعلوك ، ووجدنى أبكى ! وذهل . وقال لى : كيف تبكى من الهزيمة وقد كنت أنت أول من توقعها . . قلت : كنت أتمنى لو كنت مخطئاً ، وأن يكون الذين سجنونى على حق .

وأعترف أن الهزيمة كانت أكبر من كل تشاؤمى ! وكانت أفدح من كل توقعاتى . وعشنا فى السجن أياماً طويلة فى جنازة مستمرة ! كأننا نشيع نعشاً . وكان خصوم الدولة من المسجونين السياسيين أشبه بالثكالى ، يمضون أيامهم فى الندب والعويل !

وتمنيت أن نستفيد من هذا الدرس . فإننى أومن بشعار يقول « لابد من الاستفادة من الكوارث » . . ثم فوجئت بمن يحاولون أن يقلبوا الهزيمة النكراء إلى نصر مصنوع . . وسمعت الإذاعة تقول إننا خسرنا الأرض ولم نخسر النظام ! وعجبت . . .

إن فى رأيى أن خسارة شبر واحد من أرض الوطن أهم من ألف حكومة ! فما بالك وقد خسرنا ثلث مساحة مصر كلها ! ثم لاحظت أن محاولات تبذل لتغطية الهزيمة ولتصغير حجمها ، ولتبريرها . وكان من رأيى أنه لا أمل فى النصر إذا لم يعرف الشعب سبب هزيمته . . . وأنه لا يمكن أن نحقق النصر بنفس الرجال الذين حققوا الهزيمة . .

ولم يسكت الشعب . . بدأ الشعب يقاوم بالنكت . . وكانت النكت أعجب أسلحة المقاومة . . وقد كانت النكتة أحياناً أقوى من القنبلة !

وبدأ الشعب يطالب بالتغيير . .

وبذلت محاولات ضخمة لخنق مطلب الشعب ، ولتمييع التغيير . . ولكن الشعب استمر ينادى بضرورة التغيير . .

وكنت أشعر فى زنزانتى بعدم الجدية . وكان الشعب يحس معى بهذا الإحساس . كنا قرأنا قبيل الحرب عن اجتماعات طويلة يعقدها القواد . وكان آخرها اجتماعاً دام سبع ساعات برياسة المشير عبد الحكيم عامر نائب القائد الأعلى وحضور الفريق عبد المحسن مرتجى قائد الجيش والفريق صدقى محمود قائد الطيران والفريق سليمان عزت قائد الأسطول !

وقالت الصحف يومها إن الاجتماع الهام لم يعقد لبحث خطط الهجوم على إسرائيل وإنما عقد برياسة المشير عامر بصفته رئيس اتحاد كرة القدم ، والفريق مرتجى باعتباره رئيس النادى الأهلى ، والفريق صدقى محمود باعتباره رئيس نادى الطيران ، والفريق سليمان عزت باعتباره رئيس النادى الأوليمبى، وأن البحث كان بسبب نقل اللاعب لمعى من نادى المنصورة إلى النادى الأهلى !

ولم يحدث فى أى بلد فى العالم أن رأس قواد الجيوش جميعاً أندية كرة القدم ، وشغلوا أنفسهم بالخلافات بينها ، واجتمعوا ساعات طويلة لبحث أمر لاعب تاركين شؤون أسلحتهم من أجل لاعب صغير اسمه لمعى ! !

وكان من الواجب أن نعرف كل أخطائنا لنعرف الطريق إلى النصر . . . ولكن الذى حدث أننا لم نكلف أنفسنا التحقيق فى أسباب الهزيمة ، ولم نهتم بأن

نعرف أسماء القواد الذين أخلوا بواجباتهم ، بل اتجه الاهتمام إلى تطهير الجيش من عدم الموالين ، وانشغلت البلاد بتحقيقات فى محاولة المشير عبد الحكيم عامر العودة إلى قيادة الجيش المصرى بالقوة ، بعد أن أبعد عنه . . .

وكانت التحقيقات والوشايات والبلاغات الكاذبة سبباً فى إبعاد عدد من أكفأ قواد الجيش الشبان عن مناصبهم . واستبقى فى الجيش القواد الذين لا خوف أن يقوموا بانقلاب عسكرى ضد الحكومة . . .

وأغلقنا عيوننا عن الأسباب الحقيقية للهزيمة ، فلم يقل أحد إن من أول أسباب الهزيمة أننا نسينا الله ، فنسينا الله ؛ وأن الإلحاد انتشر بين من يسمون أنفسهم بالمثقفين ، وكان بعض قادة الرأى من أنصاف المتعلمين يتظاهرون بالإلحاد ليصبحوا من التقدميين . . .ولم يقل أحد إن الإرهاب الذى انتشر فى كل مكان أشاع الخوف بين المواطنين ، وانعدمت الثقة بين الناس ، واختفى التراحم والخير . وسمعنا عن طالبة فى الجامعة تشى بأخيها وتقدم تقريراً ضد أخيها بأنه يهاجم الحكومة ، فتقبض الحكومة على الأخ ؛ وتقيم للأخت الواشية حفلة تكريم ! ولم تستطع جريدة واحدة أن تقول إن من أسباب الهزيمة هذه الألوف المؤلفة من المسجونين السياسيين والمعتقلين السياسيين ، وأنه لا يمكن أن ينصرنا الله وفى سجوننا هذا العدد الهائل من الأبرياء والمظلومين !

ولم نتعلم من دروس الهزيمة شيئاً !

وكان أكبر دليل على ذلك القرار الذى صدر بعزل جميع قضاة مصر ، وإعادتهم إلى مناصبهم بعد ٢٤ ساعة ، فيما عدا حوالى أربعمائة مستشار وقاض من أحسن قضاة مصر غضبت عليهم الحكومة لأنهم حكموا أحكاما لم تعجبها !

وتولى الرئيس أنور السادات الحكم . . . وأجريت انتخابات لرياسة الجمهورية .
وفوجئ الشعب بأنور السادات يشكر الذين قالوا « لا » كما يشكر الذين قالوا « نعم »

وكان الناس قد توقعوا أن يأمر بوضع الذين قالوا « لا » فى المعتقلات والسجون !

وكانت هذه أول مرة تحترم فيها كلمة « لا » منذ سنوات عديدة . وكانت

كلمة أنور السادات هذه رد اعتبار لكلمة « لا » . . كانت دقة الناقوس بمولد عصر جديد !

وبدأت معركة خلف الستار بين الحرية والدكتاتورية . بين الحاكم الشرعى ومراكز النفوذ . .

وجاءت ثورة ١٥ مايو . ووقف الشعب كله بجوار أنور السادات . . واستطاع أنور السادات وحده أن ينتصر على نائب رئيس الجمهورية الذى يدير الاتحاد الاشتراكى ، ووزير الحربية الذى يقود الجيش ، ووزير الداخلية الذى يسيطر على المباحث وفرق الأمن والشرطة ، ورئيس مجلس الأمة ووزير القصر الذى يدير أجهزة رياسة الجمهورية !

وأى حساب بين هذه القوى المجتمعة وبين رئيس الجمهورية وحده كان يؤكد أن النصر الحاسم سيكون لهذه القوى الجبارة . . .

ولكن الله كان مع أنور السادات ، وكان الشعب مع أنور السادات فاستطاع أن يقبض على هؤلاء الجبابرة جميعاً وكأنه يقبض على عدد من الفراخ !

وبدأ أنور السادات يضىء الأنوار . .

وأمر بإعادة القضاة والمستشارين المفصولين ، فأعاد لقضاء مصر كرامته . .

وأفرج عن المعتقلين السياسيين ، وأغلق معسكرات الاعتقال . . وكان بعض المعتقلين اعتقلوا لمدة خمس سنوات لأنهم مشوا فى جنازة النحاس باشا ! ! وكان ألوف المعتقلين معتقلين بغير تحقيق وبغير تهمة وبغير محاكمة !

وأوقف التعذيب . .

وأفرج عن المسجونين السياسيين ، وبعضهم أمضى ٢٠ سنة فى السجن !

ورفع الحراسة . . وكانت الحراسة قد فرضت لأسباب شخصية أو لأسباب وهمية . . وكانت أسرة بأكملها قد فرضت عليها الحراسة لأن إحدى بنات هذه الأسرة رفضت أن تتزوج من ابن أحد مراكز القوى !

وأعاد الصحفيين إلى صحفهم . . وأعاد الطلبة المفصولين إلى جامعاتهم . .

وبدأ يقوى مصر بالدول العربية التى ناصبناها العداء ، وكانت أغلب خلافاتنا صبيانية !

فقد اختلفنا مثلا مع السعودية ، واعتبر السذج أن السعودية سوف تخاف ، وتعود إلينا صاغرة !

ولكن الذى حدث أن الخلاف بيننا وبين السعودية قد تفاقم . وجاء أنور السادات ليضع حدًّا لتصرفات هذه الأجهزة التى كانت تحركها مراكز القوى . .

وقوى مركز مصر بالصفاء والصداقة والأخوة أكثر مما قوى بالشتائم والقنابل .

ووقفت الدول العربية صفًّا واحداً

وعبرنا فى ٦ أكتوبر وانتصرنا . . .

* * *

وسمعت السيدة الاولى جيهان السادات أن قاعدتين جويتين فى أنشاص والمنصورة قامتا ببطولات ضخمة فى الطيران فى أثناء المعركة ، وأن قائدى القاعدتين قاما بعمليات فدائية مذهلة ، وضربا أرقاماً قياسية فى عمليات الهجوم .

وقررت السيدة الأولى أن تزور القاعدتين ، وبدأت بزيارة قاعدة أنشاص .

وحيَّت الطيارين الأبطال ، وأقاموا لها حفلة شاى بسيطة ، وجلست وإلى يمينها قائد قاعدة أنشاص . . وسألته : ما الذى جعلكم تحاربون بهـــذه البطولة ؟ ولماذا لم تحاربوا فى سنة ١٩٦٧ كما حاربتم فى أكتوبر؟

قال القائد الشاب : كنا بالأمس نحارب ، وننظر خلفنا لنرى الذين يكتبون التقارير ضدنا . أما اليوم فحاربنا ونحن نشعر أننا أحرار .

قالت السيدة الأولى : وأنت لماذا حاربت بكل هذه الشراسة والفداء ؟

قال القائد الشاب : لأننى كنت مسجوناً فى السجن ظلماً ، وأخرجنى أنور السادات من السجن ، وأعادنى إلى الجيش ، وسلمنى هذه القيادة . وأردت أن

أثبت أننى كنت مظلوماً . . .

وزارت السيدة جيهان السادات قاعدة المنصورة ، وأرادت أن تتجاذب أطراف الحديث مع قائد المنصورة فقالت له :

– هل تعرف قائد أنشاص ؟

قال قائد المنصورة :

– كيف لا أعرفه . . . لقد كان معى فى السجن !

لقد أثبتت حرب أكتوبر نظرية جديدة فى منطقة الشرق الأوسط : أن الأحرار ينتصرون والعبيد يستسلمون !

ومنذ أيام أقام الأمير سلطان وزير الحربية السعودية مأدبة عشاء فى فندق شيراتون . .

ورأيت ضابطاً كبيراً يقبل علىّ مبتسماً . وعرفت من صورته أنه الفريق أحمد بدوى قائد الجيش الثالث الذى ناقشه الرئيس أنور السادات فى اجتماع مجلس الشعب عن أعماله البطولية وظهر فى التليفزيون . . . وتحدثت عنه الدنيا .

وتقدم نحوى وهو يقول :

– ألا تعرفنى ؟ لقد كنا زملاء ؟

قلت للفريق بدوى : هل كنت سيادتك تعمل فى الصحافة ؟

قال : لا . . كنت فى السجن !

ألم أقل لكم إن « كان » هى فعل ماض !

د. أحمد كمال أبو المجد

الإعلام المصرى وحرب أكتوبر





لم تعد أهمية دور الإعلام فى الحياة المعاصرة محتاجة إلى مقدمات طويلة لشرحها أو إثباتها . يستوى فى هذا أن يكون الحديث خاصًا بالإعلام داخل الدولة أو الإعلام الموجّه إلى العالم الخارجى . وقد أصبح التسليم بهذا الدور أكثر شيوعاً – وأكثر منطقية فى الوقت نفسه – فى دول العالم الثالث التى يلعب الجهاز الإعلامى فيها دورًا خاصًا فى عملية « بناء الأمة » والتغيير الحضارى الشامل للوصول إلى مستوى يليق بالعصر الذى نعيش فيه إلى جانب دول وشعوب بلغت مستوى متقدماً ومتزايداً فى تقدمه بسرعة هائلة يكون فيها التوقف استمراراً للتخلف ، ويكون فيها التقدم بمعدلات أقل إبقاء عليه .

غير أن هناك عاملا آخر يزيد من أهمية الإعلام ودوره فى هذه المرحلة التاريخية ، نعنى به ما أصبح معروفًا فى دراسات الرأى العام باسم « فجوة التصديق » ، وهو تعبير يشير إلى وجود هوّة بين السلطة السياسية بكل ما تمثله أو ما يرتبط بها من أجهزة ومؤسسات وبين المواطن العادى . وقد شهدنا تطبيقات معاصرة لهذا فى حالات مختلفة سواء فى العالم الخارجى أو على المستوى العربى أو حتى داخل مصر نفسها فى ظروف معينة .

إن الإعلام بطبيعته لا يخلق شيئاً من العدم ، وإنما هو يسعى أساساً لنشر حقائق قائمة أو توضيح أمور يكتنفها الغموض أو اللبس بهدف تحقيق أى من الغايات التالية أو تحقيقها كلها – فى التصور الأمثل وهى :

١ – تثبيت مواقف أو اتجاهات موجودة بالفعل .

٢ – المساعدة فى تحويل مواقف واتجاهات مترددة أو غير ثابتة إلى مواقف واتجاهات ثابتة .

٣ – حصر المواقف والاتجاهات المعادية الشديدة التطرف منعاً لانتشارها وتوسعها على حساب المواقف الثابتة .

وفى كل هذه المجالات لا يمارس الجهاز الإعلامى وظيفته فى فراغ ، ولكنه يؤديها فى إطار أشمل يضمّ مؤسسات وتقاليد مختلفة ، ويرتبط بفلسفة معينة للعمل تحكم هذه المؤسسات ككل وتضبط ممارساته هو أيضاً . وبعبارة أخرى فإن الجهاز الإعلامى جزء من كلّ هو النظام السياسى والاجتماعى بكل مقوماته وظروفه وطبيعة العلاقة السائدة فيه – فى لحظة معينة – بين الدولة ومؤسساتها وبين الأفراد والشعب فى مجموعه . فإذا حدث خلل فى أى من هذه العلاقات ينشأ موقف يتسم باهتزاز الثقة ، وقد يتطور هذا الموقف عبر فترة من الزمن إلى « أزمة ثقة » أو « فجوة تصديق » أى إلى حالة عامة غالبة ، يكون ردّ الفعل الأول أو الغالب فى ظلها إزاء كل ما يصدر عن الدولة ومؤسساتها من بيانات أو معلومات أو وعود هو الشك أو التحفظ أو التردد فى التصديق .

والتعامل السليم مع فجوة التصديق هذه يجب أن يكون تعاملا علميًّا ، بمعنى أنه يسلم بوجودها إن وجدت ، وأن يحدد العوامل والسمات والعلاقات التى تؤدى إلى وجودها ، وأن تكون هذه المعرفة بعد ذلك مدخلا لحركة متكاملة مدروسة تستهدف تفادى وصول الأمور إلى هذا الوضع أو معالجتها والقضاء عليها إذا استفحلت . ولابد أن نملك القدرة والشجاعة على مكاشفة النفس بأننا قد واجهنا مثل هذا الموقف فى مصر عقب حرب ١٩٦٧ ، إلا أن كلمات الآخرين وشهادة المراقبين الإسرائيليين أنفسهم تدلّ قبل أى شىء آخر على أننا قد استفدنا من الدرس ،

وأننا نسير فى الطريق الصحيح . وسنعود إلى تفصيل هذه النقطة الهامة فيما بعد .

ثم يبقى أن نسجل – فى بداية معالجتنا هذا الموضوع الهام – أن حرب أكتوبر كانت بداية الاختبار الحقيقى لجيش مصر وشعبها وللأمة العربية كلها ، وأننا قد اجتزنا الاختبار بنجاح فاق تصورات كل من لم يعرفوا طاقات هذا الشعب وجيشه وأمته العربية . ولم يكن الإعلام المصرى استثناء من هذا كله ، فقد شهدت حرب أكتوبر بالفعل أسلوباً إعلامياً جديداً أسهم قبل الحرب فى الحشد وفى تعبئة الشعب من جانب ، والتمويه على العدو من جانب آخر ؛ وأسهم خلال الحرب فى طرح الحجم الحقيقى للإنجازات العربية دون مبالغة أو تهويل ؛ وأسهم بعد الحرب فى عرض الأبعاد الموضوعية كافة للموقف ولتحركنا السياسى من أجل السلام دون مزايدة أو صراخ .

والآن لنتحدث بقدر من الإيجاز عن الماضى والحاضر والمستقبل .

أولا – دور الإعلام المصرى قبل أكتوبر :

ليس من المعقول فى شيء القول إن السجل الإعلامى العربى قبل أكتوبر ١٩٧٣ كان حالك السواد ، وإنه كان كذلك فى كل المواضع والمجالات والمراحل . فمثل هذا الزعم يتجنّى على الحقيقة القائمة ، ويتجاهل جهوداً كثيرة قدمها أناس مجدون وشرفاء بذلوا فيها غاية ما يستطيعون وما أهلوا للقيام به أو ما مكنوا من إنجازه .

هناك على سبيل المثال حرب ١٩٥٦ ، وقد نجح الإعلام المصرى خلالها فى القيام بدور عظيم ، حيث ساهم بأوفر نصيب فى عملية التعبئة فى ظل ما يكاد يكون غيبة تنظيم سياسى جماهيرى يفترض فيه أن يتولى القيام بهذا الدور . وكانت أجهزة الإعلام المصرية حينئذ وسيلة جيدة التوصيل لتوجيهات القيادة السياسية بصدد عملية حشد الموارد البشرية والمادية ، كما كانت قناة ربطت مصر المستهدفة للعدوان بشقيقاتها العربيات ، إلا أنها لم تكن الرباط الوحيد فى هذا ؛ وأخيراً كانت أداة نقل مستمرة وفعّالة لرسالة إعلامية لشعوب العالم كله ودوله الكبرى والصغرى دون استثناء ، قوامها أن مصر مستهدفة للعدوان ، ولكن شعبها يقاوم

بشجاعةٍ وإصرار صاحب الحق وصاحب الأرض .

غير أنه يجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن الصورة أيضاً لم تكن – من الناحية الإعلامية – ناصعة البياض ، وأن توصيف الواقع دائماً على أنه « حالك السواد » أو « ناصع البياض » وقوع فى ازدواجية سقيمة ، فإلى جانب الإنجاز الإعلامى عام ١٩٥٦ كانت هناك مشاكل عديدة وقصور فى صورة الإعلام قبل حرب أكتوبر . وليس هذا مجالا مناسباً لتناول هذه المشاكل بالتفصيل الذى تستحقه ، ولكن يكفى أن نشير إلى بعضها ، ومنه حداثة دخول الجانب العربى عامة إلى الحقل الإعلامى بمعناه التخصصى ، كوظيفة مستقلة لها تقاليدها وأصولها ، إلى جانب ندرة عدد المتخصصين فى هذا الحقل لدينا وفى دول العالم الثالث بشكل عام . ثم إن هناك أسباباً فنية بالمعنى الضيق للكلمة ، ونعنى بها تخلف الأدوات والأجهزة المتاحة أمام العاملين فى الحقل الإعلامى ؛ وأهم الأسباب – ولا شك – الأسباب السياسية ، ومنها عدم استقرار الخط السياسى فى بعض الموضوعات عبر أى فترة معقولة من الزمن ، وخضوعه حتّى فى الزمن القصير لتقلبات حادّة ، وهو الأمر الذى يترتب عليه – بعد تكراره أكثر من مرة – فقدان الثقة فى الجهاز الإعلامى الذى ينقل للمواطنين مضمون هذه التقلبات ؛ ثم هناك أيضاً عدم اتساق مقومات الخط الإعلامى العربى ، فقد اعتاد العرب لفترة طويلة – وخاصة قبل أكتوبر ١٩٧٣ – أن يخاطبوا العالم بأكثر من منطق ، وأحياناً على نحو متناقض ، وهو الأمر الذى أوقع العالم الخارجى فى حيرة معنا . بل أوقع جماهيرنا بدورها فى هذه الحيرة :
أيّنا يصدّقون ؟ أيّنا يمكنهم أن يتجاهلوا ما يصدر عنه باعتباره غير ممثل للموقف العربى ؟

ليس هذا – كما أشرنا من قبل – موضع معالجة تاريخية لدور الإعلام المصرى ، ولكننا نريد التركيز أساساً على الخبرة الماضية فقط فى الحدود التى تسمح لنا بتقييم الحاضر وبتصحيح أى خطأ فيه وبالتنبؤ بالمستقبل وبرسم ملامحه كما نريد على أفضل نحو ممكن التنفيذ . وهذا ما يعود بنا إلى عام ١٩٦٧ .

لقد كانت المواجهة العربية الإسرائيلية الرابعة فى ذلك العام ، ومنذ نهاية المعارك العسكرية ، والتحقق الجماهيرى من وقوع الهزيمة ، بدايةً من الناحية الإعلامية لوضوح « أزمة التصديق » وتضخمها ، حتى لقد اعتاد بعضنا أن يستمعوا إلى أخبار وطنهم من الإذاعات الأجنبية ، وبخاصة تلك التى يستطيع أى عاقل أن يدرك نوع واتجاه المادة التى تبثها ، وأدمن آخرون ممارسة « تعذيب الذات » و « القسوة على النفس » كردّ فعل لما أصابهم من إحباط وانعدام ثقة فيما يقال ومن تزايد الهوة بين ما يقال وما يفعل . وأمام هذا الميراث من ضعف الثقة واهتزازها كانت الأصوات المدركة حقيقة قدرات هذا الشعب توصف بأنها متفائلة أكثر مما ينبغى فى معظم الأحوال ؛ وبرغم هذا كان من اللازم أن ننطلق فى استعدادنا للمعركة وتعبئة إمكانياتنا ، لأن جلال القضية وإلحاحها على الضمائر والقلوب والعقول والأرزاق كان لا يحتمل أى تأجيل ، ولم يكن فى استطاعتنا الانتظار حتى نتخلص من أزمة التصديق لكى نخوض بعدها مواجهتنا ضد العدو . بل لقد أشار الرئيس محمد أنور السادات فى لقاءاته خلال النصف الثانى من شهر أغسطس سنة ١٩٧٤ مع فئات مختلفة من قوى شعبنا العامل إلى أن الأوضاع الاقتصادية كانت أكثر حرجاً مما كان يبدو لأى مراقب خارجى مهما كان متشائماً .

ومن ناحية أخرى كان حرص الرئيس السادات على التعبئة النفسية للحرب وإلحاحه على حتمية النصر تعبيراً عن رؤيته الدقيقة التى ولدتها خبرة طويلة بهذا الشعب والطاقات الهائلة التى يختزنها . ومن ثم كان بث روح التفاؤل والثقة بالنصر ضرورة سياسية وإعلامية تستند إلى الرؤية الموضوعية ولا تتجاوز الواقع فى شىء .

أريد من كل ما سبق أن أؤكد أننا نبنى على تراث له إيجابياته وسلبياته ، وأن على من يريد محاسبة الجهاز الإعلامى أن يأخذ هذا فى اعتباره ، وأن يدرك أن السلبيات – وهى عديدة – تحتاج إلى كل العلمية وأعظم الخبرات وبعض الوقت وقدر من طول النفس للقضاء عليها أو على الأقل لتحييد آثارها . ومع هذا جاءت حرب أكتوبر والأداء الإعلامى الذى شهد به العدو قبل الصديق دليلاً جديداً على قدرة الإنسان المصرى العامل فى حقل الإعلام على تخطى الصعاب

والتعامل بنجاح مع الواقع فى ظل الإمكانيات المحدودة إذا توافرت الاتجاهات والمؤثرات السليمة والمستقرة فى العمل الوطنى المصرى .

ثانياً - الإعلام المصرى فى حرب أكتوبر :

لعل من الأفضل أن نبدأ تناولنا هذه النقطة بالإشارة إلى رأى الإسرائيليين فيها ، فهو رأى لا شبهة للتحيز فيه لمصلحة العرب ؛ وهنا يكفى أن نشير إلى ما جاء فى صحيفة دافار الإسرائيلية بتاريخ ١٩٧٣/١٢/١٠ فى معرض تقييم الخبراء الإسرائيليين السيكلوجية والثقافة العربيتين حيث قال التعليق : « لقد استخفوا بالعرب ، وأحياناً ارتدى هذا الاستخفاف رداء علميًّا . ماذا زعموا ؟ . إن العرب بسبب ثقافتهم الخاصة يتجاهلون الواقع ، ويقعون ضحية خيالهم ، وقدّموا أكثر من مرة إلى من طلب برهاناً على ذلك بلاغات الجيوش العربية فى حرب ١٩٤٨ وحرب الأيام الستة ، ولكن الحرب الأخيرة أثبتت أن هذا الادعاء ليس صحيحاً دائماً . هذه المرة كانت بلاغات الناطق العسكرى المصرى دقيقة للغاية » . أما عن الوضع على الجانب الإسرائيلى فيكفى مطالعة عدد صحيفة معاريف الإسرائيلية يوم ١٩٧٤/٥/٢ والذى جاء فيه أن الإذاعة والتليفزيون فى إسرائيل لم يكونا على درجة مناسبة من الاستعداد للعمل فى أثناء الحرب ، سواء من حيث البرامج ، أو من ناحية القوى البشرية ، أو مستوى استعداد الأجهزة العاملة ، أو من حيث تنسيق استخدام المواد المتاحة بالأقسام المختلفة فى الإذاعة والتليفزيون .

وهكذا نجد أن الدروس المستفادة من الأداء الإعلامى المصرى خلال حرب أكتوبر هى فى جوهرها العوامل التى جعلت هذا الأداء ممكناً وأهمها :

١ - **المصارحة ومكاشفة الجماهير بالحقائق** : لقد أثبتت التجربة دائماً أن إخفاء الحقائق عن الشعب أمر وخيم العواقب من نواح كثيرة ، ذلك أنه من ناحيةٍ تجاهل لحق الشعب فى المشاركة والمعرفة ، ولأنه من ناحية أخرى يؤدى إلى إضعاف مستوى تعبئة الشعب واستعداده لمواجهة التحديات المختلفة . وقد كانت المصارحة هى الخط العام للأداء الإعلامى خلال حرب أكتوبر على نحو رأينا

أن العدو قبل الصديق قد اعترف به . إن منطق المصارحة ليس مجرد فلسفة ، ولكنه فلسفة سياسية وتربوية بأوسع معانى الكلمة ، لأنه تجسيد للإيمان بأن شعبنا هو صاحب القضية ، وبالتالى صاحب الحق الكامل فى الإلمام بتطوراتها كافة ؛ وفى هذا الإطار جاء قرار السيد الرئيس برفع الرقابة على الصحف لضمان ممارستها كامل وظائفها الإعلامية دون قيود سواء من حيث حرية التعبير فيما يتعلق بالحاضر أومن حيث استشراف ملامح المستقبل لمصر والأمة العربية . إن هذا القرار فى حقيقته ليس قراراً إعلاميّا ، ولكنه قرار سياسى يكشف عن الإيمان بالشعب والثقة فيه والإيمان بأن الحرية هى الباب لمعرفة الحقائق وبناء السياسات على أساس صلب من التفاعل مع الواقع بكل ما فيه .

٢ – **رفض الازدواجية** : وكامتداد طبيعى للعنصر الأول يأتى منطق رفض الازدواجية الإعلامية . وقد كان من أهم مقومات النجاح الإعلامى فى أكتوبر تجنب مخاطبة الشعب فى الداخل بلسان ومنطق ، ومخاطبة العالم الخارجى بلسان ومنطق آخر ؛ وانطلاقاً من هذا يركز خطنا الإعلامى الآن على الحديث بلسان واحد ومنطق واحد بغير ثنائية أيًّا كان الغرض منها ؛ ذلك أن الثنائية أو الازدواجية هى فى أحسن الأحوال مظهر لقصر النظر . ويستتر خلف هذا الخط – خط رفض الازدواج – إيمان قوىّ بوعى هذا الشعب الذى خاض التحديات وقدم التضحيات ، والذى أسفر فى كل المناسبات عن درجة هائلة من الوعى وإدراك ثاقب البصيرة لمرامى كل خطوة وأهداف كل تحرك وتفهم لماهية الهدف الاستراتيجى وما هى الخطوات والأدوات اللازمة للوصول إليه .

٣ – **رفض المهاترات** : قبل أكتوبر ١٩٧٣ واجهت السياسة المصرية حملات متتالية ومكثفة من التشكيك من جانب جبهات متعددة ، وتركزت هذه الحملات فى الادعاء بأن مصر غير عازمة على القتال أو غير قادرة عليه . وقد جاءت شرارة أكتوبر وتركت هذه الدعوى التى ارتكزت عليها حملات التشكيك مهلهلة ضعيفة ، وبرغم ذلك فإن مصر فى تصدّيها لحملات التشكيك لم تلجأ لتبنى أساليب من وجهوا إليها هذه الحملات ، ولم تستخدم التجريح والسباب والشتائم والتشهير ، وإنما

اكتفت بالعمل والحركة الإيجابية ، ورفضت منطق المهاترات والمزايدات . وكان توجيه الرئيس السادات المتكرر لأجهزة الإعلام أن تلتزم الموضوعية والهدوء ، وأن تبتعد عن المبالغات وحروب الشعارات . ولا يزال خطنا الإعلامى بعد أكتوبر مستمراً فى الالتزام بتجنب المهاترات ، والحرص على التضامن العربى ، وعلى إقامة أفضل العلاقات مع جميع القوى الدولية ، فى ظل مراعاة كاملة ومتبادلة لمقتضيات مفهوم الحوار مع من يختلف معنا ، ومع عدم اشتراط التطابق فى الآراء مع من يشاركنا الرأى فى موضوعات بعينها . وهذا الأمر على مستوى العمل الإعلامى ، والتزام أجهزة الإعلام المصرية به هو فى الواقع مساهمة فى إرساء قيمة مسئولية الكلمة دون التعدى على حريتها .

ثالثا مهام المستقبل :

إن هذه القيم التى جعلت من إنجاز الإعلام المصرى فى أكتوبر حقيقة ممكنة التحقيق يمكن أن تكون منطلقاً لإنجاز مهام المرحلة القادمة .

والإعلام لن يقوم فى المستقبل – وفقاً لأى تصور علمى – بدور منفرد ، بل إن دوره يتحدد فى إطار الاستراتيجية الحضارية الشاملة التى طرحتها ورقة أكتوبر ، ولتنفيذ المهام التى حددتها الورقة والتى نالت موافقة وتأييد جماهير الشعب ، وقد تضمنت المهام تأكيداً على ضرورة التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ومحو الأمية ، والقضاء على الهوة بين الريف والمدينة ، وتحرير المرأة ، وبناء الإنسان الجديد الذى هو هدف التنمية ووسيلتها وضمانها . وأعتقد أنه لا خلاف على وجود دور كبير لأدوات الإعلام فى هذا كله بالتنسيق الكامل مع الأجهزة والمؤسسات الأخرى التنفيذية والسياسية حتى تأتى الأدوار مكملة بعضها بعضا وليست جهوداً منفصلة الحلقات تسهل بعثرتها فى الهواء .

إن مجرد اختفاء ظاهرة الأمية يعنى مزيداً من مراكز البحث العلمى وقلاع التقدم الاقتصادى ، ومزيداً من مشاركة المرأة فى الحياة العامة بفاعلية ، وأجيالا جديدة تحمل الراية وهى مؤهلة بالعلم والمعرفة والخبرة . والإعلام المصرى لابد

أن يشارك فى هذا كله ، وفى خلق الإنسان القادر على إنجاز هذه المهام جميعها . ثم الارتفاع إلى مستوى اهتماماته ؛ ويترتب على هذا ضرورة الارتفاع بمستوى المادة الثقافية ومزيد من الاهتمام بالأقاليم فى الإعلام المكتوب بصفة خاصة ، وهكذا فإن أى تفكير فى مهام المستقبل بالنسبة لأدوات الإعلام لابد أن يأخذ فى الاعتبار مستوى المخاطب وطبيعة العصر .

وإذا تركنا هذا المستقبل ، وتحدثنا عن المستقبل القريب ، فإن لأدوات الإعلام المصرية دورها الأكيد فى إعداد الشعب لمواجهة مقتضيات المرحلة التى يمر بها نضالنا الوطنى الآن ، وهى مرحلة صعبة يقترن فيها استكمال مهمة التحرير مع مهمة التعمير إلى جانب الإعداد للتنمية الشاملة .

والضمان الأكيد لنجاح الإعلام فى هذه المهمة هو محافظته الكاملة على السمات الإيجابية التى حققها مع انتصارات أكتوبر . موضوعية ودقة فى تصوير الواقع ، وتجنب لازدواجية اللغة فى مخاطبة الجماهير . . واستفادة بكل ما توصل إليه علم الاتصال من فنون مخاطبة الإنسان وتوجيهه ودفعه لتحقيق أهدافه . . .

محمد زكى عبد القادر

الحركة الدائبة فى داخل المجتمع





المجتمعات البشرية فى حالة تغير مستمر ، وما يبدو عليها فى بعض الأحيان وبعض الحالات كأنه الركود أو التوقف أو التجمد ليس إلا مظهراً لا يدل على الحقيقة . . والحقيقة أن حركة التغيير دائبة ودائمة ، تظل تعمل فى أعماق المجتمع أشبه بالتيارات التحتيّة فى البحار لا تظهر على السطح ، ولكن انعدام ظهورها لا يعنى أنها غير موجودة . وكما أن تيارات الأعماق فى البحار تبدو أحياناً ، إذا بلغت النضج ، على صورة أمواج وهزات على السطح ، كذلك تيارات الأعماق فى المجتمعات متى بلغت النضج ، بدت على السطح على صورة هزات فى المجتمع .

وقد تكون هذه التغيرات تعديلا فى تكوين المجتمع وطبقاته وتقاليده وعاداته وعلاقات أفراده بعضهم بالبعض الآخر ، وقد تكون فى وسائل الإنتاج أو الاستهلاك أو فى الأفكار والمعتقدات أو فى صور الحكم وأساليبه . وقد تكون جذرية تتناول المجتمع من أساسه فتقلبه رأساً على عقب ، وقد تكون تغيرات تتناول السطح ولا تبلغ الأعماق ، تبعاً لما إذا كانت عامة أو خاصة ، ضعيفة أو قوية ، تغييرات دينية أو ثقافية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية .

والمجتمع الراكد لا وجود له ، لأن الركود مخالف لطبيعة الحياة ، والحياة

ليست إلا الحركة . وقد تسمع بعض الناس يقولون لك إن هذا المجتمع أو ذاك مجتمع راكد . وهم يعنون مظهره الواضح على سطحه ، ولكنهم لا يعنون الأعماق المستكنة فى داخله ، فإنها لا يمكن أن تكون راكدة لا تتحرك . . قد تكون حركتها بطيئة أو متعثرة متمهلة ، ولكنها لا يمكن أن تكون ميتة لا تتحرك .

وقد روى التاريخ قصة مجتمعات تدهورت أو تبددت أو بادت بالغزو أو القهر والتسلط ، وفناؤها هذا لم يجئ من داخلها ، ولكن جاء من قوة خارجة عنها لم تستطع الصمود فى وجهها ومقاومتها ، ومع ذلك فإن كثيرين من المفكرين ينكرون فناء المجتمع ، أى مجتمع ، على هذه الصورة ، ويرون أنه إذا كان قد تبدد كمجتمع متميز ، فقد ذاب فى غيره من المجتمعات واستأنف مسيرة الحياة فى صورة جديدة ، وطبقاً لهذا الرأى فإن الحضارات لا تموت ولكن تذوب فى غيرها أو تنتقل إليها .

على أن هذا بحث فرعى لا مجال له فيما نحن بصدده وقررناه آنفاً ، وهو أن الحركة الداخلية فى أى مجتمع إنسانى لا تتوقف ، وأنها حركة دائبة مستمرة . تستمد قوتها من بيئة المجتمع وتكوينه ومن تفاعله مع الظروف المحيطة به من الخارج ، وأنه حتى فى الفترات التى يبدو فيها كأنه ميت لا ينبض ، جامد لا يتحرك ، يكون فى واقع أمره نابضاً بالحركة سائراً فى طريقه إلى التغيير والتطور .

وخذ الطبيعة والظواهر الطبيعية مثالا ، فإنها هى الأخرى فى حركة دائبة مستمرة خفية فى أكثر الأحيان ، ظاهرة فى بعض الأحيان ، الزلازل والبراكين والعواصف والزوابع والأمواج العاتية التى تفاجئنا فى وقت نحسب فيه أن كل شىء هادئ ، هل وقعت من غير مقدمات ؟ الزلزال الذى هز الأرض ودمر المساكن ، البركان الذى اشتعل فجأة فأحرق وأرسل الحمم ، العواصف والزوابع والأمواج التى أعقبت فترات سكون شامل غامر ، هل كل هذه الظواهر وقعت فجأة كما يبدو ، أو أنها جاءت تتويجاً لتحركات قديمة فى باطن الأرض أو فى أطباق الجو ، ربما بدأت منذ أشهر أو منذ سنين ؟ الجواب الصحيح الذى يثبته العلم ، أن هذه الظواهر حصاد عمليات دقيقة كثيرة شاملة تمت فى خفاء إلى أن آن لها أن تظهر .

وكذلك الأمر فى المجتمعات البشرية ، تقوم فيها الثورات والانتفاضات

والحركات الشعبية وتبدو كأنها ابنة ساعتها ، والواقع أنها حصيلة عملية طويلة بطيئة معقدة تمت فى المجتمع ، فى داخل المجتمع ، بين طبقاته وأفراده ، وأخذت تنمو شيئاً فشيئاً إلى أن بلغت مداها فكان الانفجار.

إن نواميس الحياة واحدة لا تتخلف ولا تختلف ، تجرى على الطبيعة ، كما تجرى على الكائنات الحية : الإنسان والحيوان والنبات ، وتأمل كيف يتسلل المرض إلى الجسم ، وكيف يظل فيه خفيًّا يفعل فعله ، ثم يظهر فجأة على صورة ألم أو ضعف أو عجز . تأمل كيف تسرى الصحة والعافية فى هذا الجسم نفسه شيئاً فشيئاً . إن أيهما لا يظهر فجأة ولا يبلغ مساره فى لمحة أو لحظة ، ولكن يحتاج إلى وقت ، المرض كالعافية ، كالنمو بالنسبة للأطفال فى الإنسان وبالنسبة للنبات فى مملكة النبات . والعواطف نفسها ، كالحب والكره والانتقام والغدر والخيانة ، وما شئت من سائر العواطف تنمو داخل النفس والقلب كما ينمو سائر الكائنات الحية ، فإذا بلغت المرحلة التى لا بد لها فيها أن تعبر عن نفسها ، ظهرت وجداً وهياماً أو سهداً أو غيظاً وحقداً أو تفكيراً فى الانتقام والغدر . كل شيء ينمو فى بؤرته ، والمجتمع بؤرة تموج بالكثير من الانفعالات والانتفاضات يكبت بعضها ، لأن الظروف لا تسمح بغير الكبت ، ويأذن لبعضها بالظهور لأنه لم يعد يتحمل المزيد من الكبت .

ولئن كانت النواميس العامة التى تخضع لها المجتمعات البشرية واحدة ، إن مسيرة كل منها تختلف عن مسيرة الآخر تبعاً لظروف نشأته وتكوينه ووضعه الجغرافى ومدى استجابته للحوادث والأحداث ، ومدى ما ثبت فيه بمرور الزمن من صفات وخصائص ، كسبها من الجنس الذى ينتمى إليه والمناخ الذى يعيش فيه ، والموقع الجغرافى والحضارى والثقافى الذى كان من حظه أن يوجد فيه ، فالشعب الذى عاش فى سهل زراعى منبسط يكتسب خصائص وصفات غير الشعب الذى نشأ وعاش فى الصحراء وعلى قمم الجبال ، والشعب الذى عاش راحلا لا استقرار له جرياً وراء الخضرة والرزق ، غير الشعب الذى عاش مستقرا يجد رزقاً يفيض عليه باستمرار ودون انقطاع من زراعة ميسرة أو صناعة ناجحة . . والشعب الذى تقع أرضه فى طريق الغزوات ، واضحة فى الدنيا مطمعاً للطامعين ،

غير الشعب الذى وجد فى ركن بعيد عن الغزوات والمطامع . . . وهكذا دون مزيد من ضرب الأمثلة تتكون للمجتمع شخصية وتنشأ لأفراده صفات وملكات وخصائص ترجع إلى ظروفه الطبيعية والجغرافية والسياسية .

وقد رأينا كيف أدى اكتشاف البترول فى بعض المناطق إلى إحداث تغييرات كبيرة فى مجتمعها ، أصابت الأخلاق والسلوك والتصرف والعادات الاجتماعية والدينية والمعتقدات السياسية والاقتصادية . . إن المجتمعات حساسة كالرادار ، وأى تغيير يقع على سطحها سرعان ما يتسلل إلى أعماقها ، وأى حادث خارج منها أو بعيد عنها سرعان ما يترك أثره فى داخلها . . وقد أصبحنا فى عصر تقاربت فيه الشعوب واقتربت وتداخلت وتعارفت بالسياحة والإذاعة والتليفزيون والصحافة والكتاب والسينما ، بل أكاد أقول وبالحروب أيضاً ، بالاتفاق والاختلاف ، منبر « الأمم المتحدة » فى نيويورك يجمعهم من شرق ومن غرب ، فلم يصبح أى مجتمع من المجتمعات بمنأى عن التأثر بأى حادث فى العالم ، وإن بدا بعيداً عنه . . الأفكار السياسية والاقتصادية ، والاتجاهات الثقافية أيًّا كانت تترك طابعها على المجتمعات ، تتأثر بها بصورة أو بأخرى وبأسرع مما كان التأثر والانفعال فى العصور السابقة .

إن ما يحققه مجتمع فى مجال التطور والتغيير فى هذا العصر يتم فى زمن أقرب وأسرع عشرات المرات مما كان يتحقق فى عصر مضى ، وليس من المحتم أن يتم التغيير بالثورة العنيفة والتصادم بين الطبقات بعضها بالبعض الآخر ، بل يقع فى بعض الأحيان أو فى أحيان كثيرة بالتغيير الهادئ دون ثورة أو عنف .وانظر إلى علاقة المرأة بالرجل ومقاييس الحب والزواج والسفور ونزع الحجاب والاختلاط بين الجنسين والمصارحة والمكاشفة بالعواطف والنظر إلى الجنس . تأمل أية تغييرات حلت بالمجتمعات فنقلتها من اليمين إلى اليسار ، ومن المحافظة الشديدة إلى التحرر والانطلاق . . كانت المرأة فى بعض البلاد محجبة من رأسها إلى قدمها ، فأصبحت اليوم متحررة من الحجاب وغير الحجاب . كانت لا تظهر فى المجتمعات والطرقات ، فأصبحت تغشى المجتمعات والطرقات . كانت

لا تعمل ، بل كان العمل عليها محرماً وكان عاراً تحاذر أن تقع فيه . فأصبحت اليوم تعمل فى كل مجال وكل مكان . وكان التعليم محرماً عليها فأصبحت الآن تبلغ أعلى درجات العلم والتعليم ؛ وقد ترك هذا أثره على مناهج السلوك والتصرف وعلاقات الأفراد بعضهم ببعض ، ومقاييس الفضائل والرذائل ، كما ترك أثره على العادات والتقاليد ، فغير منها وعدل وألغى وأحلّ محل ما عدل أو ألغى عادات وتقاليد جديدة .

وهذا مثل من التغييرات المستمرة المتدرجة فى المجتمعات والتى تبلغ ما تبلغ فى هدوء ومن غير ضجة أو ثورة أو تبلغها بضجة أو ثورة لا تبلغ مرحلة العنف العنيف . وهناك أمثلة أخرى على التغييرات المستمرة فى المجتمعات تتناول علاقات الإنتاج والاستهلاك والروابط الأسرية والأخلاق والعلاقات بين الحاكم والمحكوم .

وفى عبارة موجزة تتناول كل صور الحياة فى الداخل والخارج .

وقد يصعب على أى مراقب ينظر من بعيد أن يرى شيئاً من هذه التفاعلات والتغييرات ، ولكن يستطيع أن يحسها ويقيسها إذا عرف مجتمعاً من المجتمعات فى فترة معينة ثم غاب عنه لأى سبب من الأسباب ، عشرين أو ثلاثين سنة أو حتى عشر سنوات ، وعاد إليه لكى يرى ما صنع الله به ، إنه سيرى حتماً فرقاً بين ماضيه وحاضره ، وسيرى التغير واضحاً ، وهو ما لم يكن ليراه لو عاش هذه السنوات العشر أو العشرين أو الثلاثين ملازماً إياه لا يبرحه ، تماماً كما ترى طفلا فى الرابعة من عمره ثم لا تراه إلا بعد خمس سنوات أو عشر سنوات ، فإنك ستراه حينئذ فتى تغير فى كل شىء وما كان فى استطاعتك أن تراه فى نموه المستمر البطىء غير المحسوس لو عشت معه هذه السنوات الخمس أو العشر .

وكما أن بنية الطفل ووزنه ووراثاته وصحته والبيئة التى يعيش فيها والعناية التى يلقاها أو الإهمال الذى يكون من حظه أن يلقاه ومقدرته على التفاعل مع النمو الطبيعى بمرور الزمن أو التأثر بالحوادث الخارجة عنه والطارئة عليه ، كل أولئك يحدد مساره والتغييرات التى تحل به ، كذلك المجتمع فإنه شبيه به لا بد من حساب مكانه فى الدنيا والظروف التى عاش فيها والثروات التى وهبتها إياه الطبيعة والصفات

التى كسبها أو اكتسبها مع مضى الوقت أو ميراثاً من أسلافه الخلص ، أو ممن طرأ عليه من الغزاة أو الوافدين أو المهاجرين ، كل أولئك متفاعلا مع نوع الحكم الذى خضع ويخضع له مفروضاً عليه أو باختياره وإرادته ، وعلاقته بالمجتمعات الأخرى متعاوناً معها أو فى حرب أو خلاف بينه وبينها ، وقدرته على الامتصاص أوعجزه عنه وجنوحه إلى التقدم أوإصراره على الرفض – لا بد أن نضع فى الحساب كل أولئك ونرجع إليه أو نقيس به ما طرأ عليه من تغيير وتطور جذرى أوسطحى ، عميق غامر شامل ، أو مقصور على طبقة معينة أو طبقات .

وقد حاول بعض العلماء والمفكرين أن يقسموا المجتمعات البشرية تركيزاً على الجنس واللون ورأوا أن الجنس واللون يحمل كل منهما لأصحابه سمات وصفات ومميزات معينة ، وأنه لذلك يمكن القول إن هناك جنساً أرقى من جنس ولوناً أقرب إلى التقدم والحضارة والتطور وأدنى إليه من لون آخر ، ولعل النازيين فى ألمانيا هم أكثر من روجوا لهذه النظرية فى الثلاثينيات من هذا القرن واعتمدوا كأحد مراجعهم فى هذا الشأن كتاباً ألفه الكونت « آرثردى جوبنيو » فى منتصف القرن الماضى أطلق عليه اسم « عدم المساواة فى الأجناس البشرية » The inequality of Human races ادعى فيه أنه قادر على التمييز بين ثلاثة أنماط من الأجناس : الأسود والأصفر والأبيض ، وراح يخص كلا منها بصفات وأخلاق وقسمات وجه وجسم معينة . إلا أنه سرعان ما ثبت فساد هذا الادعاء ، وأضحت وجهة النظر العلمية المعتمدة فى هذا الشأن تلك التى عبر عنها جوليان هكسلى و ا . ك هاودن فى كتابهما نحن الأوربيين We Europeans وأولهما عالم فى الأحياء والثانى متخصص فى علم الأجناس ، وجاء فيه أن مسألة الأجناس التى اعتبرت بعض الإنجازات الهامة فى القرن العشرين ، منسوبة إلى اكتشافات العلم ، لم تكن إلا أكذوبة علمية .

فإذا أهملنا مسألة الجنس واللون عند الحديث على التغييرات فى المجتمعات وتطورها ، فنحن نفعل ذلك اعتماداً على البحث العلمى وليس انسياقاً وراء العواطف أو الانتماء ، على أن إهمالنا الجنس أو اللون بحسبان أيهما يستتبع خصائص أصيلة ، لا يعنى أننا نهمل أثرهما بحسبانهما كانا ولا يزالان سبباً أوقع بالأجناس

الملونة من القهر والكبت ووضاعة النظر إليها من الجنس الأبيض ما عوق التطور والتغيير فى مجتمعاتها ، وكان عبئاً عليها وثقلا فى أقدامها .

نخلص من ذلك إلى أن كل تكوين اجتماعى يتأثر فى تغييره وتطوره ، إلى جانب حركة النمو الطبيعية التى أودعت فى كل الكائنات الحية ، بالكثير من العوامل يمكن إجمالها فيما يلى :

١ – الموقع الجغرافى والاستراتيجى والمناخ والثروات الطبيعية وكثافة السكان .

٢ – الحرفة الغالبة وما إذا كانت الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو الرعى أو الصيد أو خليطاً من هذا وذاك ، وما إذا كانت الأرض سهلا مستوياً ، أم جبالاً وتضاريس ، وما إذا كانت تعتمد على النهر أو على المطر منفتحة على العالم أو منزوية فى ركن منه .

٣ – التطور الحضارى والثقافى والدينى والسياسى والاجتماعى الذى مرت به .

٤ – تاريخها القديم والوسيط والحديث وصلاتها بما حولها ومن حولها وتفاعلها معه ومعهم .

وعلى ضوء هذه العناصر نتحدث عن مصر وما أصابها من تطور أو أصابته من تطور فى تاريخها الطويل العريق القديم قدم الحضارة الإنسانية نفسها حتى أضحت ما هى عليه اليوم .

وقد نشأ العمران أول ما نشأ فى الدنيا فى أحواض الأنهار ، وفى أحواضها نشأت الحضارات ؛ فمصر تعد ، بهذه المثابة ، من أقدم البلاد فى الدنيا ، ويقدر الباحثون أن الثورة الزراعية بدأت منذ عشرة آلاف سنة والمقصود بالثورة الزراعية المرحلة التى بدأ الإنسان فيها يستنبت أغذيته من الأرض ، أعنى بدأ يعرف الزراعة ، بعد أن كان فيما قبلها مجرد جامع للطعام من الأشجار والنباتات ومجرد صائد من المياه والأنهار يأخذ منها ما كان يصادفه دون عمل أو مجهود أو تفكير أو تنظيم ، ثم بدأ يزرع الأرض ويسيطر عليها ويتحكم فيها . وهذه ثورة من أعظم الثورات أثراً فى العالم ، بل تعد أول ثورة فيه ، ومع ذلك تمت فى هدوء وتلقائياً من غير صدام أو عنف .

وإذا صح هذا التقدير ، كانت مصر من أقدم البلاد إن لم تكن أقدمها جميعاً فى معرفة الزراعة وتحقيق ما سمى بالثورة الزراعية فى العالم ، فتاريخها المعروف يمتد سبعة آلاف سنة ، نحو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد . وفى هذا الزمن السحيق عرفت مصر الزراعة والرى وتنظيم ماء النهر وجمع المحصولات وإقامة المدن والقرى ، أعنى عرفت الحياة المدنية المحكومة بالقوانين والعادات والتقاليد ، وأنشأت مجتمعاً متكاملا ، قائماً على معرفة الحق والواجب والنظام وعرفت الحكومة صاحبة السلطة والحاكم الذى تخضع له وتدين بالولاء . وعرفت الدين والعبادة وأقامت الهياكل والمعابد ، وصحت لها أولى الرؤى فى العالم على الحياة وما بعد الحياة ، ومن فراعينها القدماء من اهتدى إلى فكرة التوحيد قبل أن تجىء بها الأديان السماوية بآلاف السنين . وفى القصة المصرية والأدب المصرى القديم والعبادات المصرية القديمة ، نرى الوصايا والعظات والاتجاهات السلوكية والأخلاقية وفكرة الثواب والعقاب .

وعرفت الحرب والسلام ، غَزت من حولها وغُزيت ممن حولها ، وكانت منذ تاريخها القديم منفتحة على العالم بما لها من سواحل على البحرين المتوسط والأحمر ، وبما يجتازها من طرق برية تصل بينها وبين الجنوب والشمال والشرق والغرب ، وطوع لها موقعها الممتاز وحضارتها القديمة ونهرها ووجدانها الدينى العميق وثقافتها الضاربة فى أعماق الزمن أن تكون الرائدة فى المنطقة ، تؤثر فيها وتتأثر بها ؛ ثم إن موقعها الاستراتيجى الممتاز جعلها مطمعاً للغزاة من المغامرين والفاتحين ، فتتابع عليها الهكسوس واليونان والرومان ، ثم كان الفتح الإسلامى فدخلها الإسلام ، وكانت المسيحية من قبل صاحبة أديرة وكنائس وقسس وكهنة ، وكانت الإسكندرية مناراً يشع على العالم حينئذ المعرفة والفكر .

وما من بلد حوى من الآثار ما حوته مصر ، وما من بلد اجتمعت فيه الأديان والتقت الحضارات كما اجتمعت والتقت فى مصر ، وإنك لتستطيع أن تراجع تاريخ العالم كله على ثراها ، تاريخ حضارته وأديانه ، تاريخ علمه ومعرفته . . . الحضارة المصرية القديمة ، الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية ، والحضارة القبطية

والحضارة الإسلامية ، والحضارة الحديثة .

وبعد الفتح الإسلامى ودوله ومذاهبه ومساجده ومعاهده وثقافته وروحه ووجدانه ، جاء الفتح العثمانى بحكامه وأحكامه ، وجاءت المماليك ، ثم كان الغزو الفرنسى ومحمد على ودولته وحروبه وانتصاراته التى بلغ بها سوريا وفلسطين وكاد يدق أبواب الآستانة ، فتحركت أوربا تصد هذا المارد وتكبته وترده عن التوسع ، لا كراهية فى التوسع ولكن خوفاً من إمبراطورية تتزعمها مصر ، فتردّ الغزو لاوربى عن الشرق وترد الاستعمار الأوربى عما كان يعد له من الاستيلاء على مصر وعلى الإمبراطورية العثمانية أو ما بقى من أطرافها المشتتة فى الجزيرة العربية وشمالى أفريقيا والسودان .

وجرت الحوادث بعد ذلك متأنية تارة ومتعجلة تارة ، وجاء الخديو سعيد وبعده إسماعيل وتم حفر قناة السويس ، فازدادت أهمية مصر ، وأصبحت مطمعاً أكثر مما كانت فى كل تاريخها القديم ، وأصبح من يملكها أو يسيطر عليها ، إنما يملك ويسيطر على أغلى بقعة فى العالم تفتح أمامه مغاليق الشرق والغرب ؛ وكان الاحتلال البريطانى والمنافسة الحادة العنيفة بين فرنسا وإنجلترا والحسد العنيف الحاد من الدول الأوربية الأخرى الطامعة – كانت مقدمة هذا الاحتلال أو ذريعته ودعواه الثورة العرابية ، وأخمدت الثورة واستسلم الشعب المصرى ، أو بدا أنه استسلم ، ثم جاء مصطفى كامل فأشعل الجذوة التى ظن الجميع أنها انطفأت ، فى حين كانت تتوهج تحت الرماد . وقامت الحرب العالمية الأولى وأعلنت بريطانيا حمايتها على مصر ، وظنت أنها قضت على كل مقاومة ، وقال كرومر إن مصر لا تصلح إلا أن تكون تابعاً . . وإن المصريين لا يصلحون لحكم أنفسهم . . . ودهش العالم حينما قامت ثورة ١٩١٩ ، وقال بعض البريطانيين إنها شعلة تطفئها بصقة ، ولكن زعامة سعد زغلول استعصت على الإمبراطورية العظيمة ، فخضعت لها وألغت الحماية وأصبح زعيم الثورة أول رئيس مصرى خالص الدم والأرومة للوزارة ، وبعد جهاد طويل لم يتوقف طلباً للجلاء قامت ثورة الجيش فى سنة ١٩٥٢ فحققت الجلاء ، إلا أن المستعمرين حاولوا أن يعودوا

مرة أخرى بالاتفاق مع إسرائيل التى أقاموها رجاء أن تكون شوكة ، توقف نمو الشعب المصرى وتحرره ، فدبروا عدوان سنة ١٩٥٦ ، وكان إخفاقه صدمة قاسية أوغرت صدورهم ، فأعدوا إسرائيل للقيام بعدوان سنة ١٩٦٧ ، وكانت نكسة أصابت الشعب فى صميم وجدانه وكرامته ، وحسب الجميع أنها القاضية ، ثم كانت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ فارتد للشعب الإحساس بالعزة والكرامة .

وإنما أوجزنا فى هذا القدر القليل تاريخ مصر لكى ندل على أنه تاريخ حافل عجيب رهيب ، لم يسبق أن تعرض شعب أو تعرضت دولة لمثله أو لأقل القليل منه وخرجت منه كما خرجت مصر ، قوية عزيزة مثخنة بالجروح ، ولكنها لم تفقد إيمانها بنفسها وروحها ووجدانها الذاهب فى القدم أبعد مذهب .

وسنحاول أن نفسر التغييرات التى حلت بالمجتمع المصرى طوال هذا التاريخ ومراحله المتعددة . . إن الزراعة التى كانت حرفة المصريين منذ أبعد الأجيال ، ونهر النيل الذى لم يقف أو يتوقف طوال هذه الحقبة عن أن يؤدى الخير والنعمة اللذين اعتاد أن يؤديهما لسكان هذا الوادى . . الزراعة والنهر جعلا من هذا الشعب شعباً أصيلاً عريقاً ، يصمد ويصبر ولكنه لا يستسلم ، يكافح ويجاهد ، وينام ويستيقظ ويطاول الظالمين والمستعمرين ولكنه لا يجثو أمامهم . طرد الهكسوس بعد أن صبر عليهم وصابرهم ، وظنوا أنهم أسياده إلى الأبد ؛ وطرد اليونان والرومان والمماليك والفرنسيين والإنجليز والأتراك وظل كما هو ، امتص من امتص منهم وذهبوا وبقى بأصالته وتقاليده وآدابه وآماله وتطلعاته ورأسه المرفوع ، وطرد أسرة محمد على واسترد حقه فى حكم بلاده وهزم الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين حينما كانوا عصبة ، وهزم الاستعمار فى كل أشكاله بالصبر والصمود والإيمان .

امتص من كل الأقوام التى غزته وداست ترابه المقدس بأقدامهم كل ما لديهم من جديد ، ولكنه رفض أن يخضع لهم ولم يستطع أى منهم أن يترك طابعه فى روحه ومعتقداته ، بل جاءوا وذهبوا عنه وكأنهم أشباح الأساطير ، وليس معنى ذلك أنه لم يتأثر بهم ولم يأخذ عنهم أويتقدم ويرتقى ، كلا ، إنه تفاعل مع الأحداث والحوادث ومع التغييرات القائمة فى العالم فى كل مرحلة من مراحل تاريخه . .

إن الغزو أو الاقتحام بالنسبة له ، أضحى لطول تتابعه عليه كأنه هزة من رقاد ، ولم يزد على أن أيقظ خصائص المقاومة والصمود مع الانفتاح لامتصاص الجديد الذي لا يمس جوهر الشعب ولا صميم وجوده وكيانه . . هذه بعض سمات المجتمع المصري التي كسبها بالعراقة وطول الالتصاق بالنهر والزرع والحب الذي بلغ حد الإيمان والفناء في الوطن وطول المعاناة مع الغزاة أو الفاتحين والطامعين ، ومع الحكام الظالمين والمستبدين .

وإلى جانب هذه الصفات والمميزات كسب من الأرض الزراعية أيضاً سماحة الخلق وبشاشة الترحاب والاستعداد للفهم والتقبل للغريب والجديد مع حرص على ذاتيته ووطنه ومقومات كيانه الخاص ، فإذا عجز عن مقاومة الغازي أو الحاكم الظالم المستبد أمهله أو أهمله وبدا كأنه مستسلم للقدر ، ولكنه في واقع الأمر ، شأنه معه شأنه مع الأرض ، يحاورها ويداورها إلى أن تجود بالثمر ، ومع الطبيعة التي هي عنصر أساسي في الزراعة يصبر عليها ويرجوها ويدعوها إلى أن تفيض بالخير والبركة ، فإن أصمت أذنها صبر إلى أن يشاء الله بالخير والبركة . . والمتأمل في تاريخ المجتمع المصري يرى هذه السمات ظاهرة واضحة ، ويرى فيها تفسير كل ما يبدو غريباً أو غير مفهوم عند المراقبين في الخارج ممن لا يعرفون سر هذا الشعب ولا عراقة ما ثبت فيه على طول الزمن السحيق الذي عاشه ، وكاد أن يعايش الدهر فيه : انتفاضه ضد الغزاة حتى طردهم ، امتصاصه الأديان والمعتقدات وتقديسه الإيمان بالله موجد الأرض والسماوات ، انفتاحه على العالم حوله دون تعصب او تحيز أو انحراف نحو القسوة والدم . . . وجدت فيه المسيحية أرضاً ، ووجد فيه الإسلام أرضاً ، وعاشت فيه اليهودية في سلام لم تعرف مثيلا له في أي بلد من بلاد العالم . وبعض سر هذا الوطن أنه امتص الطارئين عليه ، فاتخذوه وطناً ، ولم يستطع أحد منهم أن يحوله عن مسيرته أو يأخذه لصفه .

الأتراك والمماليك ومحمد علي وأسرته ، على الرغم من أنهم كانوا مسلمين ، ينتمون إلى دين الغالبية الكبرى من أهله ، وأقاموا به دهراً طويلاً ، أنشأوا المدن والمساجد والقصور والتكايا وتقربوا إلى الشعب بكل أسباب التقرب –

ظلوا فى وجدانه غرباء عنه لأنهم نظروا إليه كأنه الأدنى وهم الأعلى ، فظل بهم يداورهم ويسايرهم ويحاورهم ، ويقاومهم كلما أتاحت له الظروف أن يقاومهم ، إلى أن انتصر عليهم بالصبر والسخط والرفض . . . سر هذا المجتمع هو الرفض الظاهر أو الخفى ، الهادئ أو العنيف ، الرفض بالسلب أو بالإيجاب ، ولكنه فى كل الحالات لا ينسى حقه ولا وطنه ولا كرامته ، مهما يطل الأمد .

وانظر إليه حينما قاوم الحملة الفرنسية ، وظل بها يداور ويحاور ويسكت ويضج ويهدأ ويثور إلى أن تخلص منها وخرجت صفر اليدين . . وفى هذه الحملة وأمثالها رفض الشعب التسلط والقهر ، ولكنه قبل منها ما اتصل بها من تنوير وفتح للعقول على الجديد الذى لا يتعارض مع إيمانه وتقاليده وآدابه ومناهج سلوكه .

وانظر إليه حينما قامت الثورة العرابية ووقع الاحتلال البريطانى ، وبدا كأن الشعب فقد القدرة على المقاومة أو الرغبة فيها . . هل حدث هذا أو ذاك ؟ الجاهلون بطبيعة هذا المجتمع وظروفه وتكوينه ونشأته وتاريخه ظنوا هذا وذاك . . ولما قامت ثورة ١٩١٩ دهش البريطانيون خاصة ، والأوروبيون عامة ، وراحو يبحثون عن عشرات الأسباب التى أشعلت هذه الثورة دون أن يهتدوا إلى السبب الحقيقى لها . ولم يكن سوى ما ركز فى هذا الشعب من خصائص ومميزات وأسلوب للاحتجاج والرفض وإحساس دائم واضح ، أو غير واضح ، بالغيظ والسخط إلى أن واتته الفرصة وأدرك بسليقته أنها الفرصة التى يجب ألا تفوت ، فهبّ وكأنه يستيقظ من رقاد ولم يكن هناك رقاد ولا استيقاظ ، إنما كان إصراراً خفيًّا دائماً ظل يفعل فعله فى واقع المجتمع وكيانه إلى أن انفجر ، أشبه بالزلزال ينمو شيئاً فشيئاً تحت الأرض إلى أن يرج سطحها .

وحينما قامت ثورة الجيش سنة ١٩٥٢ ، دهش الكثيرون كيف وقعت وكيف كسبت منذ اللحظة الأولى تأييد الجماهير وتحمسها ، ولم يكن هناك مجال للدهشة إلا لمن لا يعرفون طبيعة هذا المجتمع وطبيعة العوامل التى تتفاعل فى داخله .

ووقعت الثورة فى أخطاء ، وهو أمر طبيعى ، وقعت فيها كل ثورة ، وأحس بها الناس وتحدّثوا عنها ، ولكنهم كتموا الحديث والإحساس حتى ظن البعض

أنهم قبلوها أو رضوا بها . ولكنها فى الواقع ، جرياً على طبيعة المجتمع المصرى ، ظلت تسرى بينهم كالتيار إلى أن تهيأت الفرصة للتصحيح ، فلما أعلنه الرئيس أنور السادات كانت الفرحة الغامرة التى دلت على أن شيئاً لم يفت الشعب ، وأنه لاحظ الخطأ وقاومه ، إن لم يكن بالضجيج والإعلان فبالصمت والسخط ، وهذه سمة واضحة من سمات المجتمع المصرى . لا شىء يقع إلا ويترك أثره فيه . . ولا خطأ ولا اعتداء ولا عدوان يقع دون أن يتسرب إلى أعماقه ويفعل فعله فى المدى الطويل . . وما يبدو عليه أحياناً كأنه انتفاضة مفاجئة ليس إلا إنضاجاً لإحساسات ومشاعر وانفعالات قديمة واستجابة لأحداث وحوادث وقعت وظن الجاهلون أو من يأخذون الأمور بظواهرها كأنها مضت وانقضت ولم تترك أثراً ، ولا ينتظر أن تترك أثراً .

وقد أنجبت مصر قادة وزعماء من الطراز الأول مدنيين وعسكريين قادوها فى الأوقات العصيبة ، أنضجتهم على طول تاريخها القديم والوسيط والحديث ؛ والانتفاضات والثورات الحديثة أوضح مثل على التجاوب الأصيل الأمين بين الشعب وزعمائه . حتى لا يكاد الإنسان يعرف من الذى أخذ أو أعطى أكثر ؟ من الذى أيقظ الآخر ؟ هل هو الشعب أو الزعيم ؟ . . كانت عملية امتزاج بارعة بين المجتمع الذى ماج بتيارات عميقة أمداً طويلاً أو قصيراً حتى إذا آن للبخار المكتوم أن ينفجر تولاه الزعيم أو القائد الذى اختاره القدر ليتم التفجير على يديه . . لم يكن شىء يأتى من خارج المجتمع . . لا الزعيم ولا القائد أتى بشىء دخيل على المجتمع ، ولا المجتمع تفاعل وانفجر بشىء دخيل عليه . كل منهما : الزعيم والمجتمع ، ينتمى إلى أرومة واحدة ، إلى غرس واحد ، كان صوت الزعيم فى ارتفاعه وصفائه ونفوذه ، آخذاً فى الارتفاع والصفاء والنفوذ من الشعب ، فيه اجتمعت القوة والعزة والشجاعة والتضحية ، ليست منه ولكن من الشعب ، وحتى إذا كانت فى الظاهر منه فقد نمت فيه كما نمت فى الشعب ، كان أشبه بالغرس يرتفع عن الأرض ويطاول السماء علواً ، وليس فيه شىء لم يأخذه من الأرض التى أنبتته وكفلته وغذته .

أحمد عرابى والشيخ محمد عبده وعبد الله النديم ومحمد كريم ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وجمال عبد الناصر وأنور السادات ، لا أحد منهم إلا وهو ينتمى انتماء خالصاً كاملاً لهذا المجتمع وتربته . تكامل معه وكمل به .

وفى أوقات المحن ، فى أوقات الضمور والخوف والاستكانة والسكون ، كان الجاهلون يظنّون أن الشعب مات ، وأن المجتمع عقم ، وأن السكون سكون القبر ، والخوف خوف العجز ، والاستكانة استكانة التسليم ؛ ثم يتبين لهم ولغيرهم أن المجتمع كان يغلى من الباطن ، ويضطرم اضطرام الماء تحت النار المحرقة ، لا أحد يسمع الصوت ولا يحسّ الركز ، حتى إذا بلغ الماء درجة الغليان كان لا بد أن يبحث له عن متنفس . . المقدمات هى التى تغير المجتمع وليس الحادث نفسه ، أما هذا الحادث سواء كان ثورة محدودة أو ثورة شاملة ، أو كان انتفاضة محدودة أو انتفاضة شاملة فأثره يأتى فيما بعد ، وهو لا يأتى فى يوم ولا فى شهر ولا فى سنة ، إنه يمتد عبر زمن أطول يستمر تفاعل المجتمع خلاله شيئاً فشيئاً .

سبق ثورة أحمد عرابى سنوات من الكبت والازدراء للشعب وسوء المعاملة والتفريق فيها هى التى أدت إلى تغيير المجتمع ، فوقعت الثورة ؛ وما سبق ثورة سنة ١٩١٩ ، سنوات الضغط والقهر والظلم والاعتداء على كرامة الوطن وإذلاله هى التى أدّت إلى تغيير المجتمع فوقعت الثورة . . أما أثر الثورتين فتلاهما ، واستمر يظهر من وقت إلى آخر على طول سنوات عدة . . ثورة أحمد عرابى – على الرغم من أنها لم تؤت الثمرة المرجوة منها ، بل أدت إلى نكسة أليمة – كانت هزة عنيفة رجّت المجتمع رجًّا ، استمرت آثارها خفية تحت الكبت وتسلط الاستعمار إلى أن كان الانفجار الوطنى بظهور مصطفى كامل ومحمد فريد ، وكان الكلام عن الاستقلال الاقتصادى وتغيير الأخلاق والسلوك والتعليم وإنشاء الجامعة الأهلية والدعوة إلى إنشاء الجمعيات التعاونية ويقظة الشعور بالكرامة والاتجاه إلى الحضارة الجديدة فى أوربا . وثورة سنة ١٩١٩ – على الرغم من أنها لم تحقق كل أغراضها – بث فى الشعب روحاً قويًّا ظل ينمو وينمو ويشمل الميادين الاقتصادية والثقافية والاجتماعية كافة ، فكان من آثارها إرساء أول حجر فى الاستقلال الاقتصادى ،

وإرساء أول حجر فى تحرير المرأة وتحرير العقول ، وبداية التخلص من الأساطير والخرافات وتنقية الدين مما دخل عليه وشابه ، وانتشار الوعى وإدراك حق الشعب والمطالبة الدائبة بالديمقراطية والدستور والمناداة بالمساواة بين الجميع والدعوة إلى العدل الاجتماعى ، وكانت بذرة المذاهب الاشتراكية والانفتاح على العالم المتحضر من غير قيود وكثرة البعثات إلى الخارج ، وكان الصراع الدائم بين القصر والشعب طلباً للدستور وحداً من الحكم الأوتوقراطى ؛ ولا ريب أن ثورة سنة ١٩١٩ ، بما بثته فى الأمة من رأى وفكر وإحساس بالكرامة وشعور عميق بالحاجة إلى تقليل الفروق بين الطبقات ، كانت إيذاناً وإرهاصاً بثورة الجيش فى سنة ١٩٥٢ .

وكانت هذه الثورة أيضاً تغييراً فى بناء المجتمع وبنيته ، لم تحدث من فراغ ، ولكنها جاءت ثمرة السنوات الطويلة التى سبقتها ، ثم استأنف المجتمع مسيرته بعدها متأثراً بها متفاعلا معها ومع ما فى داخله من تطلعات وما يستطيعه ويتهيأ له من إمكانيات . . . ثم جاءت هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ فكانت رجّة عنيفة أصابته فى الصميم ، وحملته على أن يعيد النظر فى الكثير . وجرت فى داخله وتحت السطح تيارات متعددة ، ظلت تعمل وتعمل إلى أن كانت الحرب فى أكتوبر ١٩٧٣ ، فبدت أصالة الشعب وقدرته على امتصاص الهزيمة والمحنة وارتفاعه فوقها . . إن حرب أكتوبر لم تكن حادثاً غير المجتمع ، ولكنها كانت حصيلة تفاعل طويل استمر ست سنوات ، وكان حصادها أن استرد المجتمع ثقته بنفسه وقدرته على تخطى الهزيمة . . أما آثار حرب أكتوبر فلا تزال باقية لم تبلغ مستقرها بعد ، وقد تمتد إلى سنوات طويلة ؛ وكما أن آثار ثورة سنة ١٩١٩ ، وثورة سنة ١٩٥٢ وثورة التصحيح فى ١٩٧١ لا تزال تفعل فعلها فى المجتمع ، كذلك آثار حرب أكتوبر لا تزال تفعل فعلها فى المجتمع . . وليس صحيحاً أن المجتمعات تتغير بين يوم وليلة ، وليس صحيحاً أن حادثاً أو ثورة أو انتفاضة أو نصراً أو هزيمة ، تغير المجتمع بين يوم وليلة ، ولكن الصحيح أن هذه الحوادث الخطيرة تكون قمة تغير أو تطور لما سبقها من زمن وما أرهص به من مقدمات ، وتصبح فى ضمير الشعب والمجتمع عاملاً جديداً للتقدم والتغيير . . . إن المجتمعات تتغير فى بطء

شديد ، وأحياناً بصورة غير منظورة ، ولكن التغيير والتطور كلاهما سائر فى طريقه لا يتوقف ، ولا شك أن الحوادث الكبيرة تسرع بحركة التطور ، ولكنه لا يمكن أن يحدث بين يوم وليلة ، فلا بد له أن ينضج فى بطء حتى إذا جاء التغيير ثبت على أرض صلبة ولم يكن عرضة للنكسات .

وقد اعتبر الجنس البشرى نفسه منفرداً بين الكائنات وأن هناك بوناً شاسعاً بينه وبين الحيوان ، فللإنسان نفس وليست للحيوان نفس ، وهو يمتلك الذكاء وليس للحيوان مثله ، وهو متكلم والحيوان مخلوق أعجم ، ومع ذلك فإن كل هذه المميزات يمكن أن تكون موضع جدل ونقاش ، فمن الحيوانات ما يحس وله وجدان وفيه ذكاء ، ومنه ما يكاد يتحدث . . وإن كان الإنسان ينفرد بأنه مخلوق اجتماعى ، ورد الاعتراض بأن الحيوانات تتميز فى بعض صفاتها بروح الجماعة والقطيع .

والحق – كما يقول كنجسلى ديفد – أن الشيء الوحيد الذى ينفرد به الإنسان أنه وحده بين الكائنات الذى له ثقافة ، ومن هذا المنطلق تتعدد سائر الاختلافات والفروق بينه وبين الكائنات الأخرى . فذكاؤه يمكن أن يضرب عشرات المرات بتمتعه بميزة الثقافة ، وقدرته على الحديث ليست إلا فرعاً أو تفريعاً على ثقافته ، وحياته الاجتماعية تحكمها الثقافة . . فالثقافة هبة أصيلة تتفرع وتتشعب وتتسلل فى حياة الإنسان بالفضائل والمزايا التى تنفرد بها ، وتضيف بعداً جديداً للوجود وتجعل الإنسان شيئاً آخر غير الحيوان ، وهى تتشابك وتتفاعل بل تصنع كل مسالك الفكر والسلوك ، تتلقاها وتنقلها عبر أجيال من الأسلاف ، وتسلمها عبر المستقبل إلى أجيال قادمة ، انتقال دائب بالتصرف والعمل وليس بالوراثة ، إنها ما تتعلمه من الآخرين بالخطاب والحركة والمقال وليس عن طريق الوراثة . إن عش الطير الذى يبنيه نتاج الوراثة ، أما المبانى التى يقيمها الإنسان فتحددها الثقافة .

وبهذه المثابة كانت مصر طوال تاريخها مجتمعاً مثقفاً ، تطور وتغير بمقاييس ثقافية عريضة ، عرف منذ نشأته كيف يتبادل مع الآخرين العلم والمعرفة وكان له فى أدوار التاريخ الإنسانى دور الإنسان الأكثر تسامحاً والأكثر استقراراً والأكثر إيماناً .

د. حسين مؤنس

عودة العربى إلى مكانه فى التاريخ





ليلة السادس من أكتوبر ١٩٧٣ نامت مصر وأهلها على الحال الحزينة القلقة التى لم تعرف غيرها منذ يونيو ١٩٦٧ : العدو رابض على جزء كبير من أرض الوطن ، وقابض بيد من حديد على عنق قناة السويس ، ومدافعه موجهة إلى غربى القناة ، وجنوده متحصنون فى خط دفاعى قيل يومها إنه لا توجد على سطح الأرض قوة تستطيع أن تنال منه ، وقادة العدو هناك فى تل أبيب والقدس يخططون ويدبرون على أن قوة مصر – وقوة العرب تبعاً لذلك – قد تحطمت إلى الأبد ، وأن الوطن العربى أصبح بين يديه وكأنه كعكة لينة يقتطع منها ما يريد وقتما يريد . .

ومن وراء العدو الإسرائيلى وقفت أمريكا بقوتها العسكرية الهائلة ، ترسل إليه الشحنة بعد الشحنة من أسلحة رهيبة لم يسبق استخدامها حتى فى فيتنام ، بما فى ذلك القنبلة التليفزيونية وصاروخ .T.O.W المضاد للدبابات وصواريخ وول – آى ومافريك وستاندارد وشرايك ، وما إليها مما كان الأمريكان يظنون أن أحدًا لا يستطيع أن يقف أمامها . ولهذا اعتبر القوم فى إسرائيل أنفسهم القوة الوحيدة الجديرة بالذكر فى الشرق الأوسط ، واستقر فى نفوسهم أن ذلك يجعلهم سادة المنطقة الفعليين ، وأن مصيرها فى أيديهم ، ولا يمكن أن يجرى فيها شىء إلا بإذنهم وما يوافق

هواهم . بل لقد قال الكاتب الإسرائيلى وولتر لاكير (بعد حرب أكتوبر) : « كانت إسرائيل تعتقد أنها القوة العسكرية الوحيدة فيما بين فرنسا والهند » .

وكان العالم كله قد سلم بهذه « الحقيقة » ، واعتبر قضية الشرق الأوسط قضية منتهية ، برغم الضجيج الكثير الذى يثيره العرب ، فهو ضجيج شعب مغلوب لا يريد أن يواجه الحقيقة أو يحاول تغيير ما حدث ، وسيخفت يوماً بعد يوم هذا الضجيج ، ثم يقبل العرب رافعين راية الاستسلام ، فيوقعون الشروط التى يعليها المنتصر . وفى هذا المعنى قال موشى ديان – وكان إذ ذاك فى أوج مجده الزائف بعد حرب يونيو ١٩٦٧ – « إنها الحرب التى أنهت كل الحروب ، ولم يبق أمام العرب إلا طلب المقابلة لتقديم فروض الطاعة ، ولا سيما أنهم يعرفون رقم التليفون والعنوان : ٢١ شارع كابلان ، القدس ! » . وهذه واحدة من كلماته الساخرة اللاذعة التى كان مولعا بإلقائها شمالا ويميناً ، وكان يحسب نفسه إذ ذاك فى طليعة القواد العظام الذين لن ينساهم التاريخ . .

حتى هيئة الأمم ، وهى الهيئة التى خلقت لتحرس السلام على الأرض وتحول دون الاستيلاء على الأراضى وضمها بالقوة ، سلم معظم أعضاء مجلس الأمن بأن الصورة التى صنعتها إسرائيل (وأمريكا) للمنطقة بعد حرب يونيو صورة نهائية وغير قابلة للتغيير . وصرح أحد مندوبى الدول الكبرى قائلا : غريب أمر هؤلاء العرب ! لقد انهزموا هزيمة قاصمة ، وأمثال هذه الهزائم لابدّ أن يعقبها الاستسلام ، فماذا ينتظرون ؟ وفى أى وهم يهيمون ؟ . . ألم يقرءوا شيئاً من التاريخ ليتعلموا منه شيئاً ؟ . .

وهذه قالة مريرة ، ولكنها تبدو طبيعية لمن لا يعرف العرب . ولقد صدق هذا الرجل إذ قال إن أمر هؤلاء العرب غريب ، لأنه فى الحقيقة لا يعرف العرب ، ولم يحاول أن يعرفهم ، لقد نشأ بينهم ولكنه لم يعش معهم ، لأنه كان صهيونيًّا قحًّا ، والصهيونية عقيدة يهودية سياسية تزعم أن اليهودية قومية قائمة بذاتها ، ومادامت قومية فلابد أن يكون لها وطن ودولة ، وهذه الدولة لا تكون إلا فى فلسطين قلب بلاد العروبة ، ولابد أن تتوسع فى بلاد العرب حتى تزيلهم أو تجعلهم فى مراتب

الأرقاء والمستضعفين فى الأرض ، فهى إذن حركة لا عربية : قامت للقضاء على العرب والاستيلاء على ديارهم ، ولباب العقيدة الصهيونية هى كراهة العرب واعتبارهم جنساً يملك أراضى وثروات لا يستحقها ولابد لليهود من انتزاعها من أيديهم وتملكها .

تحت هذا الحجاب الصهيونى السميك نشأ موشى ديان ودافيد بن جوريون وموسى شرتوك ومناحم بيجين وإيجال آلون وجولدا مائير ودافيد أليعازر وشمعون بيريث ، ومن إليهم ممن رصدوا حياتهم لتنفيذ مشروع الدولة الصهيونية الخادع ، الذى صاغه من مادة الحقد على العرب صحفى فيناوى محموم عاش فى أسر هذا الوهم البغيض هو تيودور هرتسيل الذى قضى أيامه يجرى لاهثاً بين فيينا ولندن وباريس وبرلين والآستانة ، ومات بهذا الوهم آخر الأمر كما يموت الإنسان بداء عضال .

وعندما نفكر فى الموضوع ، وفى الظروف التى عمل فيها تيودور هيرتسيل وتربى فيها تلاميذه الذين ذكرنا بعضهم ، نجد أن هناك ما يفسر لنا لماذا نشأت فى ذهن هيرتسيل وماكس نور داو فكرة الاستيلاء على فلسطين وإنشاء دولة يهودية فيها . فخلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وهو القرن الذى نشأ فيه هيرتسيل وعمل ، كان الوجه الحقيقى للعرب – أصحاب فلسطين – قد اختفى وراء ركام الحوادث المتوالية التى تعاونت على إخفاء الوجه الحقيقى للعربى وانتهت بإخراجه من مسرح التاريخ ، وطرده إلى الصحارى أحياناً ، أو عبوديته فى أراضيه أحياناً أخرى .

لكى نفهم هذا نرتد إلى الوراء بضعة قرون لنمسك بالخيط من أوله .

ذلك أن العربى الأصيل – عربى الجزيرة – الذى يبهرنا بشخصيته وبسالته وملكته الشاعرية فى العصر الجاهلى ، ثم يبهرنا أكثر بما قام به من أعمال البطولة والذكاء والقدرة على القيام بالعجائب ، عندما دخل فى الإسلام وحمل رايته ونشره « من غانة إلى فرغانة » ، كما يقول كتّاب العرب ، أو من بلاد المورو س (الأندلس) إلى بلاد المورو س (جنوبى الفيليبين) – هذا العربى الذى ساد الشعوب الساكنة فى تلك الأقطار الشاسعة ، بالإيمان والشجاعة وروح السيادة

فى أكثر الأحيان ، وبالحرب فى أقلها ، هذا العربى الذى بلغ من عمق الأثر الذى تركه فى النفوس أن جعل معظم هذه الشعوب تنسى أصولها ولغاتها الأولى وأديانها الأولى وتتحول إلى شعوب جديدة ممن يمكن أن نسميهم العرب الجدد Neo-Arabs :عرباً عراقيين وعرباً شاميين وعرباً مصريين وعرباً بربراً وعرباً أندلسيين ؛ بل فى وقت ما فى منتصف العصر العربى نشأ عرب إيرانيون وعرب ترك – ثم انتهى بأن جعل هؤلاء جميعاً عرباً فحسب : تمثلهم فى كيانه الصغير بعملية ميتامور فوزيس فريدة فى نوعها فى التاريخ . هؤلاء العرب وصلوا فى أواخر العصر الأموى إلى حالة إعياء مفرط : استنفدتهم الحروب وأكلتهم البلاد المتباعدة ، حتى أصبحت جزيرتهم قاعاً صفصفاً تقريبـاً ، كما يقول ابن خلدون . وعندما قامت الدولة العباسية (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) على أيدى عرب خراسان – لا على يد الفرس كما يظن – كان هذا آخر جهد قام به ذلك العربى المجيد ، الذى شاد من صروح التاريخ مالم يشده شعب آخر ، برغم أنه كان فى هيئته إنساناً صغير الحجم معروق الوجه نحيل الساقين كأنهما عصوان ، ولكنه كان يضم فى صدره – الذى كان قفصاً بلا لحم – قلب أسد لا يهاب الموت ، ويضم فى رأسه الصغير – نسبيًّا – حكمة باهرة وذهناً صافياً كأنه سماء الصحراء ، استقر فيه الإسلام فيضـاً من النور والفهم لا يفنى ، وتجارب السنين القاسية السعيدة فى حياة الصحراء التى علمت الضبّ الحكمة وعلمت الجمل الصبر والحلم واحتمال المتاعب حتى كان يأكل الشوك ، وجعلت من الحصان صانعًا من صنّاع التاريخ . .

قام العربى الأصيل بدوره العظيم وانفق معظم نفسه فيه ، وبقيت من العرب الخلص جماعات صغيرة فى البلاد المفتوحة لم تلبث أن اندرجت فى السكان ، وبقيت بقية أخرى انسحبت إلى الجزيرة العربية وعاشت متناثرة فى أرجائها الواسعة ، وخرجت من ميدان التاريخ واندرجت تحت من نسميهم فى تاريخ الإسلام بالبدو أوالأعراب ، وسيكون لبعضهم ظهورجديد على مسرح التاريخ ، كما نرى فى هجرة بنى سليم وبنى هلال إلى مصر ثم إلى المغرب ، حيث قاموا بالتغريبة المشهورة التى أكملت عروبة المغرب ، فأدت بذلك خدمة جليلة لم يدرك أهميتها ابن خلدون

ولهذا حمل عليهم .

وفيما عدا تغريبة بنى سليم وبنى هلال تلك – وقد بدأت من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى – لم نعد نسمع للعرب الخلص ذكراً حتى مطالع العصر الحديث .

ولكن العربى عندما انتهى دوره وانزوى ، خلف فى الميدان أبناءه العرب الجدد ، الذين استعربوا لغةً وحضارةً وأسلوبَ حياة ، حتى الذين لم يدخلوا فى الإسلام منهم وظلوا محافظين على أديان آبائهم ، استعربوا – كغيرهم – وانتسبوا إلى شجرة العروبة ، وساهموا فى بناء حضارتها بنصيب كبير .

ولكن هذه الشعوب العربية الجديدة – من العراق إلى ساحل المحيط الأطلسى وامتداداتها فى صقلية والأندلس والسودان الغربى والسودان النيلى – كانت فى حاجة إلى وقت طويل حتى تستتم تحولها وتتمثل الروح العربية السليمة وينصلح تكوينها . لأن التحول كان شاملا وعميقا يتناول الشخصية القومية كلها . فمصر – مثلا – بدأ الإسلام ينتشر فيها لأوائل الفتح ، ولكنها لم تصبح بلداً إسلاميًا عربيًا – أو مستعرباً – إلا فى أواخر العصر الفاطمى (أوائل القرن السادس الهجرى / منتصف الثالث عشر الميلادى)

خلال العصور التى استغرقها الدخول فى الإسلام والاستعراب ، خضع العرب لنظم سياسية غير سليمة أو غير شرعية ، فلا دولة بنى أمية ، ولا دولة بنى العباس ، ولا واحدة من الدول المحلية ، التى ظهرت ابتداءً من النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، وصلت إلى الحكم أو سارت فيه على الأسس الشرعية الذهبية التى قررها الإسلام ، وهى الشورى وإقامة العدل ورعاية مصالح الأمة والذياد عن حياض الإسلام والعمل على نشره فيما يلى حدود دار الإسلام ، فهى دول كانت تصل إلى السلطان بالعنف وتحكم الناس بالقهر والقسر ، ولا تخدم إلا أفراد البيت المالك ومن التف حوله من أنصار .

ولكى يستطيع المستبد أن يصل إلى السيطرة الكاملة على الناس ، عن طريق العنف والإرهاب ، لجأ إلى استخدام الجند المرتزق ، الجند المأجور الذى يعمل

لحسابه ، فاشترى الرجال الأشداء من أجناس عرفت بضخامة الأجسام والضراوة فى الحروب ، من الترك والسودان والرقيق الأوروبى المسمى بالصقالبة ، واشترى الأطفال الأجانب أو أخذهم بالقوة ورباهم تربية عسكرية ونشّأهم على الإسلام ليكونوا جنداً له ؛ وبهذا أصبح السلطان وجنده فى جانب والشعب المحكوم فى الجانب الآخر . وحرص السلطان فى كل بلد إسلامى على ألا يجند من أهل بلده ، خشية أن تدفع الجند العصبيةُ القومية إلى العطف على مواطنيهم

وهكذا نشأت الشعوب العربية فى ظل الإرهاب وعاشت فيه ، ونظرت إلى الحاكم – دائماً – على أنه عدو ، ونظر إليها الحاكم على أنها « رعية » أى قطيع من الغنم ، ينبغى أن تعيش كما يعيش قطيع الغنم ، وتتصرف على أنها غنم ، فإذا رفض واحد من الرعية أن يكون فى جملة الماشية قضى عليه فى الحال على أنه ثائر أو خارج على الطاعة أومتمرد . ولم ينج من هذا المصير الأسود إلا الشعوب التى عاشت فى بلاد فقيرة لا مطمع فى ثروة فيها مثل جزيرة العرب ، وتلك التى عاشت فى مناطق جبلية يصعب على جند الحاكم السيطرة عليها ، وشعوب الأطراف التى كانت تستطيع الفرار إلى المجاهل عند اقتراب جند الدولة .

هذه الظروف السياسية خلقت أوضاعاً اجتماعية وخلقية سيئة نجدها فى كل بلد إسلامى فى العصر الوسيط : مثل النفاق واحتمال الظلم فى استكانة واستسلام ، والتهافت على الشيء القليل والتواكل والأنانية والكسل ، وخدمة الأقارب على حساب المال العام ، وعدم الشعور بالمجموع وما إلى ذلك . وكل هذه ليست صفات أساسية فى الخلق العربى أو الإسلامى ، ولكنها وسائل لجأ إليها الإنسان العربى لينجو بنفسه من مظالم قوم من الطغاة الجبابرة ، ممن سيطروا على خيرات البلاد وتقاسموها بالقوة ولم يتركوا للناس منها إلا الفتات ، فعم الفقر الناس ، ومن الفقر نشأت أخلاق الفقر التى ذكرنا بعضها ، وهى أسوأ من الفقر نفسه .

وحرص أولئك الطغاة على أن يحرموا المواطن العربى من شرف الخدمة العسكرية ، زاعمين أنهم هم – وحدهم – الذين خلقوا للحرب ، ولهم – وحدهم – الحق فى نيل شرفها ، أما العربى فقد زعموا أنه لا يصلح للحرب ، ناسين أن سيوف العرب هى التى

فتحت بلاد أجدادهم وأخضعتها ، وأدخلتهم فى ميدان الحضارة وفتحت لهم سبل التقدم .

وبلغ الأمر ذروته عندما قبض المماليك على أزمة الحكم فى مصر والشام والعراق ونواح شتى من عالم الإسلام ، فقد استأثر أولئك المماليك بالحرب ، ووضعوا قوانين تحرم على العربى ممارستها ، بل كان المماليك فى مصر والشام لا يسمحون للمواطن باقتناء سكين كبير أو هراوة غليظة ، بل بلغ من انحطاطهم الخلقى وأنانيتهم أن اشترطوا أن يكون السلطان أجنبياً عن مصر غير مولود فيها ، بل هناك أمراء مماليك لم يؤيدهم الأمراء فى الوصول إلى السلطنة لأنهم ولدوا فى مصر أو الشام . .

والقصة طويلة ، وتحليلها والكشف عن حقائقها ميسور ، ولكننا نختصر القصة الطويلة وننتهى إلى خاتمتها التى تقول إن المماليك عندما اصطدموا بالأتراك العثمانيين انكشف أمرهم عن عجز عن الحرب وجبن وخيانة وكل ما يشين شرف المحارب . وتحت سنابك الخيل فى ميدان مرج دابق – شمالى حلب – مات آخر سلاطين المماليك قنصوة الغورى ، ذلك العجوز الظالم المغرور الذى تستطيع أن تقول إنه آخر رؤساء عصابة الطغاة التى حكمت قلب العالم الإسلامى ، على صورة هبطت بأغنى بلاد الله – إلى ذلك الحين – إلى درك أفقر بلاد الله ، وجعلت العربى – وهو من أعظم الفاتحين فى التاريخ – غير جدير بحمل السلاح . .

ولكن البذرة الأصيلة كانت ترقد فى أمان . .

تحت ركام الفقر والظلم والهوان التى فرضها المماليك ، رقدت جذور العربى الأصيل سليمة صافية يرويها أهل العلم والسير والتاريخ بماء الذكرى والأمل . وفى كيان العربى الذى خضع لحكم المملوك الصعلوك ، والعثمانى الذى وهبه الله صفات جميلة نادرة ولكنه حرمه من نعم السياسة وبعد النظر وفهم الشئون الاقتصادية . . فى كيان ذلك العربى ظلت كامنة ذكريات أجداده الميامين أبطال الفتوح الكبرى . ومع هذه الذكريات ، وبين شقى البذرة السليمة ، استكنت أيضاً صفات العربى الأصيل ، من بسالة وأريحية وأنفة وإيمان بالله ورسوله ، رمزِ خير ما وهب الله البشرَ من صفات وشمائل . ولقد أكثر الناس عندنا من الكتابة فى السيرة النبوية

الشريفة والفتوح ابتداءً من القرن الخامس ، وهذه السير الكثيرة التى بقيت لنا من العصور المتأخرة إنما هى الأوراق التى ظلت البذرة الكامنة ترسلها إلى النور لتحفظ بها كيانها .

وفى القرن الرابع الهجرى فتن الناس بشعر أبى الطيب الحسين بن أحمد المتنبى لأنه كان زهرة رائعة أطلعتها البذرة العربية الكامنة ، فكان شذاها يحيى الألوف بعد الألوف من الأجيال التى ذكرنا أنها نشأت فى ظلال اليأس والألم والحرمان . وعلى تلك الأوراق وتلك الزهرة وأمثالها ظلت بذرة العربى المقاتل الباسل الشهم الأبى حيةً لم يمسسها أذى ، فى انتظار اللحظة التى يأذن الله – سبحانه وتعالى – لها فتخترق طباق الثرى وتخرج للناس شجرة وارفة الظلال . .

ولقد أتيحت لها هذه الفرصة فى أثناء عصور الظلم أكثر من مرة ، ولكن الحكام الظالمين كانوا يسارعون إلى إطفاء الجذوة قبل أن تصبح لهبًا . وإذا كنا نقول إن الذين طردوا الصليبيين كانوا رجال اليقظة الكبرى من أتابكة الموصل ، ثم عماد الدين زنكى وابنه المجيد نور الدين محمود وخليفته العبقرى الفذ صلاح الدين يوسف بن شادى ، فاعلم أن أولئك جميعاً لم يقوموا فى حرب الصليبيين إلا بالجزء القليل الظاهر الذى سجله لهم المؤرخون ، وهم من صنائع السلاطين . أما الذى ضعضع قوى المستعمر الصليبى وأنهكه وأتى على خيرة رجاله ، فهو المجاهد العربى المجهول الذى قام بأكثر من النصف فى التمهيد لنصر حطين ، وظل يلهب ظهور المماليك ويذكرهم بواجب الجهاد الأقدس ، فلم يجد بيبرس ومَن بعده مناصًا من مواصلة الجهاد ليصبحوا أهلا للحكم .

وعندما اجتاحت العالم العربى موجةُ المغول ، كان المجاهدون العرب هم الذين صمموا على خوض المعركة الكبرى عند عين جالوت ، فى حين كان بكوات المماليك يفكرون فى الانسحاب إلى مصر ، حتى خجل السلطان سيف الدين قطز ووبخ فرسان المماليك على جبنهم وقال كلمته المشهورة : « تأكلون خبز المسلمين ولا تذبون عن ديارهم ؟ ! » ورمى بقلنسوته إلى الأرض وقرر دخول المعركة إلى جانب المجاهدين ، فخجل المماليك ودخلوا المعركة بعد أن كان المجاهدون

المجهولون قد كسبوا نصفها . ولهذا لم يغفر المماليك لقطز هذا التصرف برغم انتصاره فى المعركة ، وقرروا قتله قبل أن يدخل القاهرة ، فاغتالوه فى بلبيس . لأنه كان قد قرر الانتقام منهم والتخلص من شرهم إذا دخل مصر .

ثم دالت دولة المماليك ، ودخل الفرنسيون مصر فى صيف ١٧٩٨ فقضوا على أسطورة المماليك فى ساعات ، وتطايرت بقاياهم هباءً تاركين المصريين فى وجه العدو . فقبل المصرى التحدى متردداً أول الأمر ، ثم واثقاً من نفسه بعد ذلك . .

وبينما كانت شراذم المماليك تحاول الاتفاق مع الفرنسيين على مقاسمتهم احتلال البلاد ، قام أهالى القاهرة بثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، وساروا لحرب الفرنسيين بالهراوات والعصىّ . فقتلوا حاكم القاهرة الفرنسى ، وأثبتوا أنهم أصحاب البلاد وأهلها الحقيقيون . ولقد استنكر عبد الرحمن الجبرتى ثورة أهل الحسينية على الفرنسيين ، لأن طول عشرته للمماليك جعلت جزءًا من نفسه مملوكيًّا ، أوقل إنه - برغم ذكائه كان يأخذ بأخلاق الفقر الرذيلة التى ذكرناها ، ومنها الخوف والجبن والنفاق والتضحية بكل شىء فى سبيل سلامة الجلد . ولكن ثورة القاهرة هدت الكيان الفرنسى فى مصر ، فاتخذ رجال الاحتلال سياسة جديدة هى التقرب من المصريين وكسب ودّهم ، وبدءوا الحوار معهم فى « الديوان » والنظم الحديثة الأخرى التى استحدثها الفرنسيون وتحدث عنها رفاعة رافع الطهطاوى فى « مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » فأحسن الحديث ، وكتابه هذا كله أمل وإشراق ، لأنه أحس أن البذرة قد أطلعت النبتة وأنها تشق طريقها إلى الهواء . .

ومضت أيام الفرنسيين ، ولكن المصرى رفض أن يعود إلى غياهب العصر التركى ، وما لبثنا إلا قليلا حتى رفعنا بأيدينا إلى العرش رجلا شق طريقه بملكته فأيدناه ، وبتأييدنا قام بإنشاء دولة عربية حديثة فاقت فى سنوات قليلة كل ما فعله غير العرب فى سنوات كثيرة ؛ وشقت النبتة الأرض ، وظهرت شجرة العربى الأصيل مرة أخرى إلى النور .

وحاول محمد على الأرناؤوطى وريث مئات السنين من الحكم الأجنبى أن يستجلب الجندَ من السودان ليكون له — هو أيضاً — جيش مرتزق ، فلم يوفق .

ونصحه الكولونيل سيف مستشاره العسكرى بأن يجند من المصريين فتردد ، ثم قبل وهو موقن بأن المصرى – أو « ابن العرب » ، كما كان يقول – لا يصلح للقتال . ولكن ابن العرب حطم الأسطورة وانتصر على التركى فى معارك كبرى – من نصيبين إلى كوتاهية – واحتل بروسة ووقف على أبواب الآستانة . ومن أغرب ما يحكيه مؤرخ فرنسى كتب كتاباً بديعاً عن « التاريخ الحربى لمحمد على وأولاده » أن محمد على كان يشعر بألم عندما تبلغه انتصارات المصريين على الترك ، مع أن المصريين كانوا يحاربون تحت رايته ! وعندما قص عليه ابنه إبراهيم أن المصريين الجرحى فى مستشفى أزمير غادروا أسرّتهم وذهبوا ليشتركوا مع زملائهم السائرين نحو بروسة أنكر الحكاية إنكاراً شديداً ، بل غضب على ابنه إبراهيم وشتمه قائلاً : « لقد أصبحت ابن عرب ! » وحسب أن هذه إهانة لا تعدلها إهانة ، ولكن إبراهيم لم يتأثر ، فقد كان لطول عشرته لجنوده المصريين – أو الفلاحين – قد أصبح ابن عرب بالقلب والروح .

وهؤلاء الفلاحون – أو أبناء العرب – هم الذين أنشأوا إمبراطورية مصر فى الحجاز والسودان أيام محمد على ، وإمبراطورية حفيده إسماعيل التى شملت وادى النيل كله من أوغندا إلى البحر المتوسط ، وضمت الصومالات وقبضت بيد على باب المندب وباليد الأخرى على باب الخليج العربى فى أقصى جزيرة العرب شرقًا .

هنا ارتد العربى إلى معدنه الأصيل ، ونشرت شجرة العروبة فروعها وعادت تقاليد العسكرية العربية إلى الظهور فى ثوب حديث . ومن أوائل القرن الماضى قامت المدارس العسكرية المصرية ذات التقاليد الباهرة فأخرجت ضباطاً من الطراز الأول ، وفى أواخر أيام إسماعيل كان الجيش المصرى يقارب نصف مليون جندى ، وكان – بالفعل – من كبار جيوش العالم فى ذلك العصر . ولكن إسماعيل ابن إبراهيم لم يكن من نسيج أبيه ، بل كان من نسيج سلفه : عمه سعيد ، وهو نسيج ضعيف غير أصيل لحمته تركية وسداته أوروبية ، فاستمع لنصحائه من رجال الاستعمار الأوروبى – وكان ذلك الاستعمار فى أوجه – وأخذ يستخدم فى القيادات أتراكا وشراكسة ونمساويين وإيطاليين وإنجليزاً ، وحرص على ألا يسند قيادة كبرى

لمصرى خوفاً من أن يؤدى ذلك إلى زوال عرشه ، حتى إمبراطورية مصر فى إفريقية عهد بها إلى ذئاب من أمثال صمويل بيكر ورودولف سلاتين واشفاينفورث وتشارلس جوردون ، فلم يكن لهم دأب إلا قطع الطريق على المصرى وإيقافه عند رتبة الضابط الصغير مهما بلغت ملكاته .

ومثل هذه السياسة كان الأوربيــون يتبعونها فى بقية بلاد العروبة التى أراد لها الحظ العاثر أن تقع تحت أيديهم ، لأن الأوروبى لم ينس أبداً أن العربى مقاتل عنيد إذا ملك أدوات القتال ، وكما كان المملوك يجرد المصرى حتى من السكين ، حرص الفرنسى فى الشمال الإفريقى على أن يجرد أهل المغرب من شبابهم المقاتل بنقلهم إلى معسكرات فرنسية لتدريبهم ، ثم إرسالهم إلى مستعمرات فرنسية بعيدة مثل الهند الصينية لمحاربة أهلها . ووقفت أوروبا كلها إلى جانب إنجلترا عندما تجردت للقضاء على ثورة أحمد عرابى ، ولم يهدأ لها بال حتى قضت على شوكة جيش مصر واحتلت البلاد ، وقامت بعد ذلك بالقضاء على الحركة المهدية وهى توأم الثورة العرابية . وتعاونت فرنسا وإسبانيا فى القضاء على حركة الأمير عبد الكريم الخطابى ، بعد أن قضى الفرنسيون وجنود الفرقة الأجنبية على حركة المجاهد العظيم عبد القادر الجزائرى ؛ وأعلنت إيطاليا حرباً شعواء على الحركة السنوسية .

وهكذا عادت أسطورة العربى غير المقاتل إلى الظهور ، واطمأن بال أوروبا ، واجتهد رجالها فى تضخيم هذه الأسطورة وترويجها ، بحيث استقر فى عقول الناس أن العربى هو بالفعل إنسان غير مقاتل وغير قادر على احتمال مضانك الحروب ، وأن كل همه فى الحياة هو الاستمتاع والاسترسال فى الملاهى ، وأنه – لهذا – إنسان لا يخشى بأسه ، وأن أرضه – نتيجة لذلك كله – ينبغى أن تكون من حق ناس آخرين أو شعوب أفضل – فى رأيهم – تستطيع الانتفاع بأراضى العرب ومركزها الجغرافى الممتاز وما تضمه هذه الأرض من خيرات .

تلك كانت الفكرة عن العرب حتى قبيل الحرب العالمية الأولى ، وهذا ما يفسر لنا لماذا طمع اليهود فى فلسطين ، ولماذا تمسكوا بها دون غيرها زاعمين أنها أرض الميعاد

بالنسبة لهم وأن ذلك منصوص عليه فى التوراة ، ولا حقيقة لشيء من ذلك ، وإنما الحقيقة أنهم حسبوا أن أراضى العرب أراض بلا صاحب ، لأن أهلها غير مقاتلين وهم – بالتالى – غير قادرين على الدفاع عنها ، فهى – على هذا – لقمة سائغة . .

وهذا يفسر لنا – أيضاً – لماذا كان الإنجليز يعدون العرب بأن ينشئوا لهم مملكة عربية كبرى ، تشمل الحجاز والشام وبقية أراضى الوادى الخصيب ، فى الوقت نفسه الذى أعطى فيه بلفور وعده المشهور لليهود فى الثانى من نوفمبر ١٩١٧ .

لقد كانت مفاوضاتهم مع العرب لهواً وتسلية ، ريثما يتمكنون من خداعهم وإقناعهم بالانقلاب على الأتراك ، ثم تكون أرض العرب بعد ذلك قسمة بين إنجلترا وفرنسا واليهود

وهذه الفكرة – فكرة أن العرب شعب غير مقاتل وغير مستعد للدفاع عن أراضيه – هى التى جعلت الإنجليز يستهينون بثورة ١٩١٩ فى مصر ، وجعلت الفرنسيين لا ينظرون نظرة جدية لثورة سوريا عليهم ، ولم يقتنع هؤلاء وأولئك بأن العربى يضم فى إهابه رجل حرب من الطراز الأول إلا بعد أن هزت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كيان الإمبراطورية البريطانية ، وبعد أن قامت تلك الثورة بتحدى الغرب وقوته الاستعمارية تحدياً لم يسبق له مثيل ، عندما أممت مصر قناة السويس وأسقطت بذلك هيبة الغرب ، وفتحت باب الاستقلال لشعوب إفريقيا وآسيا . هنا أحس الغرب أن العربى المقاتل قد عاد إلى الميدان ؛ وجدير بالذكر أن أوروبا لم تعرف طوال العصور الوسطى أعداء أخطر عليها من العرب والمسلمين ، حتى يمكننا أن نقول إن معظم تاريخ أوروبا خلال العصور الوسطى كان صراعاً مع العرب أولا ثم الأتراك العثمانيين ثانياً ، وإلى نهاية القرن الماضى كان البحر المتوسط كله ميدان صراع بين أوروبا من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى .

وتأكدت هذه الحقيقة عندما سار العرب فى طريق الوحدة وعقدوا العزم على استعادة كل حقوقهم من المستعمرين ، وقد تجلى ذلك فى ثورة الجزائر التى انتصر فيها شعب الجزائر الباسل ، بعد سبع سنوات من قتال مرير استشهد فيه نحو مليون شهيد جزائرى ، ووقف العرب جميعاً إلى جانب الجزائريين يساعدونهم

بأقصى ما استطاعوا .

كل هذا جعل الأوروبيين يعيدون النظر فى موقفهم من العرب ، ولكن الوهم القديم – وهم العربى غير المقاتل – ظل يراود نفوسهم فاجتهدوا فى تحطيم عزيمة العرب مستعملين فى ذلك إسرائيل ، فأعطوها من السلاح مالم يقدموه لأعز حلفائهم ، لا حبًّا فى اليهود ولكن كراهة للعرب . وصالت إسرائيل وجالت ، وانتهزت فرصة خلو يد العرب من السلاح الحاسم وكسبت انتصارات ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وظنت أن انتصارها سنة ١٩٦٧ نهاية الصراع بينها وبين العرب . وخلف خط بارليف وتحصينات الجولان – التى ظنوا أنها سور الصين – استناموا إلى النصر وأخذوا يرسمون بالاشتراك مع حلفائهم – خريطة الشرق الأوسط ، على اعتبار أن هذه المنطقة أصبحت منطقة نفوذ إسرائيل وحلفائها ، وأن أحداً فى المنطقة لن يرفع رأساً إلا بإذنها .

ثم جاء السادس من أكتوبر ، وإذا بالدنيا تنقلب رأساً على عقب . .

المصريون يعبرون قناة السويس فى ساعات ، ويقاتلون كأبسل ما يقاتل الأبطال . .

والجندى المصرى – الذى كانوا يحسبون أنه مجرد فلاح لا يفك الخط – يستخدم أعقد الأسلحة الحديثة بمهارة لم يصل إليها اليهود . .

وخط بارليف – الذى قالوا إن قوة ما على الأرض لا تستطيع أن تتخطاه – اقتحمه المصريون واستولوا عليه فى بسالة وتضحية وإحكام ، أعادت إلى الأذهان ذكريات اقتحام خالد بن الوليد « لحديقة الموت » المعقل الأخير لمسيلمة الكذاب أيام البطولات العربية الأولى . .

وتحصينات الجولان تتهاوى أمام فيالق الجيش السورى الباسل . .

وتصدعت أركان إسرائيل . .

واهتز كيان أوروبا كلها . .

لقد عاد العربى المقاتل الباسل إلى الميدان ، وبدأ يستردّ حقوقه الضائعة . .

واتحدت صفوف العرب وقلوبهم ، ووقفوا صفًّا واحدًا ، واستخدموا سلاح

البترول بمهارة أوقعت الغرب كله فى ذهول . .

فى كلمات قلائل : لقد تغير الوضع السياسى فى العالم كله ، عندما عاد العربى المنتصر إلى الميدان يوم ٦ أكتوبر وانتزع راية النصر وسار فى الطريق . .

وأخذت أمواج اليأس تتلاشى من قلوب العرب ، وأشرق عليهم عصر جديد .

عصر العربى الأصيل المقاتل الباسل صانع التاريخ . .

وفى كل ناحية من نواحى بلاد العرب سرت موجة النهوض ، وفتح العرب عيونهم على حقائق حاضرهم ومستقبلهم ، ووضعوا أيديهم على أسرار التكنولوجيا . وعقدوا العزم على أن يستخلصوا آخر شبر من أراضيهم بقوة السلاح . .

تلك هى عبرة حرب أكتوبر ١٩٧٣ / رمضان ١٣٩٣ . .

إنها ليست مجرد نصر ، إنها ميلاد عصر جديد . .

عصر يعود فيه العرب إلى مكانهم فى صدارة الأمم ، وهو بالنسبة لأوروبا أمر بالغ الخطورة ، وبالنسبة لإسرائيل والصهيونية نهاية الحلم الكاذب ، وبالنسبة لروسيا تغير شامل فى ميزان القوى ، وبالنسبة لأمريكا حكم بضرورة إعادة النظر فى كل السياسة الأمريكية بالنسبة للشرق الأوسط ، على أساس أن هذه المنطقة منطقة العرب ، لا سيد غيرهم فيها ، ولا تنتقل فيها قدم عن قدم إلا بما يرون . .

لقد عاد العربى إلى مكانه الجدير به فى التاريخ ، وبدأت بعودته صفحة جديدة جدًّا فى تاريخ العالم كله . .

صلاح حافظ

مستقبل بلا معجزات !





لو كان السادس من أكتوبر « معجزة » ، كما يقال ، ما كان لنا بعده مستقبل !

إن قيمة الحدث التاريخى أنه يجرى حسب طبائع الأشياء ، لا عكسها ؛ فى حين أن المعجزة تجرى عكس هذه الطبائع ، ولهذا لا تكون إلا حدثاً عارضاً ، ولا يكون لها من بعدُ أثرٌ أو مستقبل .

عندما أراد العقاد – فى كتابه عن عبقرية محمد – أن يدلل على نبوة الرسول جعل فى مقدمة الأدلة أن العصر كان فى حاجة إلى نبى ، وكان محتماً أن يظهر .

وينطبق هذا القول بحذافيره على أى حدث تاريخى آخر .

فالثورة الأمريكية غيّرت وجه التاريخ لأنها جاءت فى اتجاه حركته الطبيعية ، حركة الاستقلال القومى . والثورة الفرنسية فعلت الشيء نفسه ، لأن الإقطاع الذى قامت ضده كان من طبائع الأشياء أن ينتهى حكمه . والثورة السوفيتية لم تهزّ العالم إلا لأن الاشتراكية هى المستقبل الطبيعى لتطور المجتمع الإنسانى . ولو كان انتصار أى من هذه الثورات معجزة لما تغير بها شيء ، ولما ذكرها التاريخ إلا على

هامشه كحادث ثانوى عارض .

ونحن فى أيامنا هذه نقرأ مئات الأخبار كل يوم ، ثم ننساها . ولكننا لا ننسى حين يكون الخبر - على سبيل المثال - استقلال الجزائر ، أو هزيمة غزوكوبا ، أو إطلاق أول قمر صناعى ، أو اكتشاف دواء حاسم للسرطان . لا لأن كلاً من هذه الأخبار معجزة ، ولكن لأن كلا من هذه الأخبار كنا نتوقعه ، وكان حكم التاريخ أن يحدث ذات يوم ؛ فلما حدث شعرنا أن التاريخ خطا إلى الأمام . وأطلقنا عليه تعبير « الحدث التاريخى » !

بهذا المعنى كانت ثورة يوليو تاريخية .

وبهذا المعنى أيضاً كان ٦ أكتوبر يوماً تاريخياً .

كان حكم التاريخ أن يحطم شعب مصر أسوار هزيمته ، وأن يعبر لاسترداد أرضه . ولو لم يحدث هذا فى أكتوبر لحدث بعد شهر ، أو سنة ، أو جيل ؛ لأن طبائع الأشياء أن الشعوب لا تقهر ، وأن العدوان لا يدوم ، ولأن طاقة شعب مصر ، والشعوب العربية ، أقوى ألف مرة من طاقة العصابات العسكرية فى إسرائيل . . مهما كانت مدجّجة بالسلاح .

ولهذا فإن ما يستحق أن يوصف بالمعجزة ليس انتصار أكتوبر ، وإنما انتصارات إسرائيل السابقة عليه ، فكلها كانت عكس منطق التاريخ ، وكلها - ولهذا السبب - كانت مؤقتة ، ولم يكن لها مستقبل ، ولم تغير شيئاً فى تاريخ المنطقة .

لقد احتلت إسرائيل سيناء كلها عام ١٩٦٧ ، ومع ذلك ظل العالم هو العالم ، لم يتأثر اقتصاده ، ولا تناقضاته ، ولا أساليب تسليحه ، ولا موازين القوى فيه .

ثم زحف الجيش المصرى فى أكتوبر ، واحتل شريطاً من سيناء . . فإذا بكل موازين العالم تختلّ ، تنهار فيه أحلاف عمرها ربع قرن ، وتتغير استراتيجيات عسكرية وسياسية ، وتؤدى أزمة الطاقة إلى ظهور قوة عالمية جديدة اسمها العرب ، و . . . و . . . إلخ .

لماذا ؟

لأن احتلال سيناء عام ١٩٦٧ كان « معجزة » إسرائيلية . والمعجزات لا تغير التاريخ ، فى حين كان استرداد شريط من الأرض فى أكتوبر من طبائع الأشياء ، وكان وقوعه إعلاناً بأن التاريخ بدأ يستأنف مسيرته الحتمية ، وبأن الباب قد فتح لتطورات أخرى ، ومستقبل جديد ، مختلف .

إن هذه المقدمة الطويلة كانت ضرورية قبل أن أصوغ تصورى لمستقبلنا بعد ٦ أكتوبر .

فأنا أبنى هذا التصور – ببساطة – على اتجاه الحركة الطبيعية للتاريخ . وأعتبر أن مجد أكتوبر هو أنه حرر هذه الحركة من « سجن هزيمة يونيو » ، وقال للتاريخ : تقدم ، واصل مسيرتك !

وفى اعتقادى أن المستقبل الذى فتح أكتوبر الباب أمامه له أكثر من وجه . وأن كلا من هذه الوجوه يستحق أن نتأمله على حدة . . .

الوجه الأول : فلسطين الديمقراطية

فليكن الوجه الأول فلسطين ، باعتبارها رمز القضية ، ومصدرها ، وشعارها .

إن المستقبل الفلسطينى ، كما يحتم التاريخ ، هو الدولة الديمقراطية التى تجمع كل الأديان . فانفصال الناس دُوَلاً على أساس أديانهم لم يعد يسمح به العصر . وإسرائيل ، من الناحية التاريخية ، نكسة إلى الوراء . أو مطبّ على طريق التاريخ لن يلبث حتى يضيق به العالم ، إن لم يضق به أصحابه أنفسهم .

وقد فتح أكتوبر باب هذا المستقبل عندما أثبت أن إسرائيل اليهودية العنصرية المتعصبة قابلة للهزيمة ، وأنها ليست الحل الذى يضمن الأمن والسلام ليهود العالم .

وقد كان فى إسرائيل منذ إنشائها تيار يرى أن « الدولة اليهودية » ليست حلا لمشكلة اليهود . مهما تسلحت ، ومهما بطشت ، ومهما استعانت بالقوى اليهودية العالمية ؛ ولكن هذا التيار كان دائماً خافت الصوت ، وكان موضع السخرية .

والآن جاء انتصار أكتوبر يجبر الإسرائيليين على الإنصات إليه ، ويتيح له أن يكون هو المستقبل .

وفى اعتقادى أنه سيجىء يوم يزور فيه العرب تل أبيب وحيفا وبئر سبع ، فى دولة فلسطين الديمقراطية ، وسيذكرون يومها أن البداية كانت ٦ أكتوبر !

الوجه الثانى : مصر الاشتراكية

أما الوجه الثانى للمستقبل ، فهو فى اعتقادى : مصر الاشتراكية .

إن الاشتراكية هى تيار التاريخ . وفى مصر ابْتلِيَت الاشتراكية بأخطاء التصقت باسمها ظلماً . وقبل أكتوبر اتهمت بأنها سبب هزيمة يونيو ، وكاد يكرهها حتى المستفيدون منها ، وكاد زحفها يتجمد إلى الأبد .

لكن أكتوبر أعاد فتح الطريق لها .

فالنصر الذى حققه ثبت أنه كان مستحيلا لولا وجود القطاع العام ، ومساهماته ، وخضوعه لتخطيط الدولة وتوجيهاتها وتكليفاتها .

وكل ما قاتل به الجيش المصرى من أسلحة ومهمات – غير الواردة من الخارج – كان من صنع العمال ، وتوفر للمقاتلين بفضل تضحيات هؤلاء العمال ووطنيتهم وفدائيتهم .

والقوات المسلحة التى حققت النصر كان معظمها من أبناء العمال والفلاحين ، وما كان يمكن أن تنتصر لولا أن العلم أتيح لها مجاناً ، ولولا أن الثورة رفعت مستوى وعيها السياسى والاجتماعى ، وحولتها من أدوات خاضعة إلى قوى حرة شاعرة بكرامتها ومدركة مسئولياتها الوطنية . وقبل الثورة كان الجندى المصرى فرداً فى قطيع يساق برغم أنفه إلى قتال لا يفهم سببه . وما كان يمكن أن يتغير هذا الوضع بغير الثورة والاشتراكية .

إن تجربة أكتوبر – باختصار – قد أنصفت الاشتراكية . وأكدت أنه لا بديل ، لكى نستكمل النصر ، من مواصلة الطريق الاشتراكى والتمسك بإنجازاته المادية والبشرية .

الوجه الثالث : مصر العلم

وجه آخر ، ثالث ، لمستقبلنا بعد أكتوبر . . يمكن أن نطلق عليه اسم : مصر العلمية !

إن اتجاه التاريخ هو العلم . ولم يعد ممكناً أن يحلّ إنسان العصر قضاياه إلا بواسطته . وكل يوم يمضى يكتسب العلم أرضاً جديدة ، ينتزعها من سلطان الخرافات المتخلفة ، والعلم أصبح يفرض نفسه على الحياة اليومية حتى الذين يشككون فيه ، ويعادونه . بفضله يأكلون ويشربون ويلبسون ، وإليه يلجأون فى الصحة والمرض ، وفى الغنى والفقر . ومهما خطبوا ضده فإن كلا منهم يجاهد لكى يسلّح أولاده به ، ولا يطمئن – فى أى تصرف شخصى – إلا إلى أحكامه .

وقد جاء أكتوبر يدفع عجلة هذا التطور العلمى دفعة هائلة إلى الأمام . . عندما أثبت أن حلم العبور الذى كان مستحيلا صار ممكناً بالتخطيط العلمى .

درست القيادة ، علميًّا ، امكانيات سلاحنا وسلاح العدو ، وأعدت لكل سلاح يتفوق به العدو سلاحاً مضاداًّ يشلّ فاعليته .

درست خطة الهجوم ، وظروفها ، وموعدها ، على ضوء علمى بحت . واختارت الموعد بعد حساب علمى دقيق لظروف العدو ، وظروف الجوّ ، وظروف تيارات الماء فى القناة ، وظروف الخط الحصين الذى سيكون على جنودنا اقتحامه . . إلخ .

درست كل شىء بعقلية علمية ، لا تترك شيئاً للمصادفة ، ولا تترك شيئاً للحظ ، أو الأوهام .

وبينما أنصار الجهل والخرافة يهاجمون العلم على أساس أنه ضد الإيمان ، جاء أكتوبر يثبت أنه السلاح الأول للإيمان ، وأنه لا انتصار للدين بغير علم ، ولاقيمة لجهاد إذا كان لا يتسلح به .

ولأن انتصار أكتوبر ما يزال مهدداً ، والعدو يستعدّ كل يوم لمحاولة إجهاضه ، فإن الحاجة إلى العلم صارت أكثر مساساً مما كانت قبل أكتوبر .

ومع كل تطور جديد فى قوات إسرائيل العسكرية أصبح علينا أن نتسلق فى العلم إلى مستوى أعلى .

ومعنى هذا ان مصر بعد أكتوبر قد صار قدراً عليها أن تعيش العلم أكثر فأكثر ، وأن أكتوبر قد فتح الباب أمامها إلى اللحاق بالعصر ، بل أرغمها على ذلك . . من أجل أن تحتفظ بانتصارها .

الوجه الرابع : مصر الديمقراطية

كسبت مصر حرب أكتوبر دون أن تعلن أحكاماً عرفية ، ودون أن تستخدم السلطة فيها أى قانون من القوانين الاستثنائية .

وقبل هذا كانت القاعدة أن تحكم مصر بالسلطة المطلقة . وكانت هذه القاعدة عكس اتجاه التاريخ ، الذى يقضى بأن الشعوب فى النهاية هى السلطة العليا ، وبأن المستقبل ، فى النهاية ، لديمقراطية الشعب الفقير الكادح . لكن اتجاه التاريخ ، وحكمه ، لم يتح لهما قط أن يفرضا سلطانهما فى مصر .

وثورة يوليو أعظم حدث فى تاريخنا الحديث تمسكت بأن تكون من أعلى ، وبأن تحقق إنجازاتها التاريخية بإدارة القادة وحدهم . واستخدمت عدداً من القوانين الاستثنائية ، والأجهزة غير القانونية ، مما لم يسبق مثله فى تاريخنا كله . وكانت تتصور طول الوقت أنها إذا تخلت عن هذه الأسلحة الباطشة فسيخذلها الشعب ، ويسير مع أعدائها . وسيتدرج إلى الوقوف ضدها وضد نفسه !

وقد كان هذا التصور المصدر الحقيقى لكل سلبيات يوليو وهزائمه ، بما فى ذلك هزيمة ١٩٦٧ ؛ فبالخوف من الديمقراطية حكمت مراكز القوى ، وفرضت على الشعب زعامات « ثانوية الجانب » لا تمثله ، ومنحت السلطة للذيول بدلاً من الأنصار ، بل إنها سجنت مئات من أنصارها لأنهم « خطرون » ، يؤيدونها من موقع الحريّة !

وكانت ثورة يوليو تبرر هذا الخوف من الديمقراطية بمبررات كثيرة ، تحولت مع الزمن إلى نظرية متكاملة . . هى التى قادت فى النهاية إلى هزيمة يونيو القاتلة .

لم يدحض هذه النظرية إلا ٦ أكتوبر .

قبله ألغيت كل الإجراءات الاستثنائية . وخرج المعتقلون من معتقلاتهم . وأعيد الصحفيون المطرودون إلى أعمالهم . ثم بدأ القتال دون أن تعلن حتى الأحكام العرفية ! فماذا كانت النتيجة ؟

لم يخذل المعركة أحد ، ولم تحدث محاولة انقلاب ، ولم يختلّ الأمن ، ولم تختف السلع ، ولم ينتهز اللصوص المحترفون الفرصة ، وثبت أن الديمقراطية هى الضمان الحقيقى لوجود جبهة داخلية متحدة ، متفاعلة مع جبهة القتال بصورة إيجابية .

ومن يومها والديمقراطية فى مصر تزداد نفوذاً ، والخوف منها يتراجع حتى يكاد يختفى . وفى جو الحوار الدائر الآن حول مستقبل الاتحاد الاشتراكى ، والأحزاب ، وتعديل الدستور ، يبدو واضحاً أن المستقبل فى مصر قد صار – بصفة قاطعة - فى اتجاه الديمقراطية . وأن وجه مصر الحقيق الحر هو وجهها للمستقبل .

الوجه الخامس : مصر المصرية !

من وجوه المستقبل أيضاً ، بعد أكتوبر : مصر السماحة الدينية . مصر المصرية .

إن حكم التاريخ هو أن تندثر فى العالم فروق اللغة والعنصر والجنس والدين . وقد حققت مصر فى ثورة ١٩١٩ مستوى من الوحدة الوطنية ، والسماحة الدينية ، جعل القسس يخطبون على منابر المساجد ، والشيوخ يخطبون فى هياكل الكنائس . وسقط إلى الأبد ادعاء الإنجليز أنهم فى مصر لحماية « الأقلية المسيحية » من الأغلبية المسلمة !

كان الشعار وقتها : الدين لله ، والوطن للجميع .

لكن ثورة يوليو ، بخوفها من الديمقراطية ، واستنادها إلى السلطة وحدها . . أتاحت للحاكمين ممارسة فرز المواطنين . فأصبح هناك « متجاوب » و « غير متجاوب » ، « أهل ثقة » و « أهل كفاية » ، « خطرون » و « غير خطرين » ،

« شيوعيون » و « غير شيوعيين » . وكان حتماً أن تنتهى التقسيمات ذات يوم إلى « أقباط ومسلمين » .

فالنظام الذى يسمح بتقسيم أنصاره إلى فئتين لا مفر من أن يواصل التقسيم إلى أربعة ، ثم إلى ثمانية . ومصالح « الكواليس » التى تقوم بهذا التقسيم لا تتورع - ما دامت السلطة معها - عن اختراع مقاييس جديدة لفرز الناس كل يوم حسب أهوائها . ولا يعنيها ما تصيب من وحدة الوطن ما دامت تضمن مصالحها الضيقة الخاصة .

وقد وصلت مراكز القوى فعلا ، قبل سقوطها ، إلى حد استغلال لعبة « الأقباط والمسلمين » . واستخدمتها حسب مصالحها الخاصة . وروجت لها حتى كادت تجهض عمليًا وحدة الأمة .

لكن أكتوبر جاء يعيد الأمر إلى نصابه .

عبر الجنود المسيحيون القناة وهم يصيحون مع زملائهم المسلمين : الله أكبر !

وكان أول شهيد لهجوم الثغرة المضاد ، مسيحيًّا .

وعين الرئيس السادات ، بعد العبور ، قائداً مسيحيًّا لأحد الجيشين اللذين عبرا القناة .

توحدت الأمة مرة أخرى على أرض الجبهة . سجلت أرض أكتوبر - بالدم - أن النصر ليس قبطيًّا وليس مسلماً ، وإنما هو مصرى فقط .

ولا جدال فى أن مستقبلنا - بعد هذه التجربة - سيبدأ مما حققته ثورة ١٩١٩ . والدليل هو المحاولات المشبوهة التى نشطت فجأة ، بعد أكتوبر ، لاختلاق أية هوة بين جناحى الأمة . فهذا النشاط ليس إلا رد فعل - أو « حلاوة روح » - للعبة الاستعمارية التى أجهضتها تجربة أكتوبر . والتى أتوقع أن يكون إجهاضها هذه المرة أبديًّا ، وإلى يوم القيامة !

الوجه السادس : مصر العربية

يبقى بعد هذا : الوجه الأخير ، والأكثر أهمية ، لمستقبلنا بعد أكتوبر .

إن مصر لن تعود دولة ، وإنما ستصبح إقليماً فى دولة عربية كبرى .

إن هذا مصيرها التاريخى الذى لا جدال فيه . وهو ليس من صنع أكتوبر ، أو يوليو . وإنما هو صنع الأمر التاريخى الواقع . فالعالم كله يتجه إلى الوحدة بين البلدان ذات المصلحة الواحدة . وشعوب العالم العربى عاشت متحدة اثنى عشر قرناً . ولم تتمزق إلى دول متفرقة إلا على يد الاستعمار ، ولفترة لا تتجاوز قرناً ونصف قرن . وحكم التاريخ هو أن تعود لتتحد ، وتواجه العالم كقوة كبرى جديدة ، أو كقوة قديمة عادت تدب فيها الحياة .

إن حكم التاريخ هذا قد تعثر طويلا ، وعرقلته تجارب فاشلة . ابتداء من سوريا وانتهاء إلى ليبيا . وسيمضى بالتأكيد وقت طويل قبل أن يفرض نفسه ، ويتحول إلى أمر واقع .

لكن أكتوبر قد اختصر هذا الوقت بصورة حاسمة .

فى اللحظة التى اندلع فيها القتال نسيت كل البلاد العربية خلافاتها ، واتحدت وراء مصر وسوريا .

الجزائر أسرعت إلى خط المواجهة ، ودفعت بكل ماتملك إلى مصر ، العراق دفع بجيشه إلى سوريا لكى يواجه الزحف الإسرائيلى المضاد . السعودية قادت حرب البترول ، وزودت مصر بأموال تمكنها من الصمود الاقتصادى بعد القتال . اليمن الجنوبية أغلقت باب المندب بالتعاون مع الأسطول المصرى . ليبيا بعثت بطائرات ، وبترول . لم تناقش أية دولة عربية وقتها أى خلاف لها مع مصر وسوريا ، أو مع أية دولة عربية أخرى . حتى الذين ناقشوا جعلوا المناقشة على الهامش ، ولم يعطلوا بها مساهمتهم فى المعركة .

وهكذا . . كان أكتوبر بمثابة « بيان عملى » يثبت للأمة العربية أنها فى النهاية واحدة ، وأنها بالعقل الباطن لاتملك إلا أن تتحد وقت الخطر .

ثم إن أكتوبر فاجأ هذه الأمة بأن وزنها حين تتحد أكبر مما كانت تتصور . فمجرد اتحادها هدد الوفاق الدولى ، ومزق حلف الأطلنطى ، وفرض على العالم أزمة طاقة زعزعت صناعته ، وأرغم أمريكا على أن تغير – لأول مرة فى

التاريخ – موقفها العدوانى الذى يساند إسرائيل ، وتتحول من دور الخصم لنا إلى دور الوسيط .

لقد أيقظت ثورة يوليو فى ضمائر العرب حلم الوحدة . ولكن أكتوبر أتاح أكثر التجارب إقناعاً بأنها ليست حلماً ، وإنما حقيقة .

والمستقبل بعد أكتوبر سوف يشهد فى اعتقادى نمّو هذه الحقيقة . ولا ينفى ذلك اشتعال الخلافات بعد أكتوبر ، ولا نقد كل بلد عربى لكل بلد عربى آخر . فهذا النقد دليل فى حدّ ذاته على أن كل عربى أصبح يعتبر البلاد العربية الأخرى بلاده ، له حق نقدها ، والمشاركة فى صنع سياستها ، والمعارضة إذا كانت هذه السياسة على غير ما يرغب .

* * *

هذه ستة وجوه للمستقبل الذى أتصوره بعد ٦ أكتوبر .

وهو ليس مستقبلا من صنع أكتوبر . وإنما هو المستقبل المكتوب سلفاً فى كتاب التاريخ . والذى لا مفر منه لأنه حكم طبائع الأشياء .

وفضل أكتوبر هو أنه – بعد أن تجمد هذا المستقبل وتعثر فى قيود الهزيمة – جاء يطلق سراحه ، ويحرره من قيوده ، ويقول له : تفضـل يأيها المستقبل واصل طريقك . .

أمينة السعيد

المرأة من خلال دروس حرب أكتوبر





نشبت حرب أكتوبر ونحن فى أشدّ فترات حياتنا تعساً وشقاء . .

فقبلها مضت بنا سنوات عِجاف ، قضيناها على طول أيامها ولياليها السوداء نحترق بلهيب الخِزْى الذى لحقنا بهزيمة ١٩٦٧ ، وتركنا بوجيعة العار والإذلال نعيش كالمجانين ، نَنْكأ جراحنا بأظافرنا ونجترّ الألم والعذاب . .

وفى خِضَمّ بحر الظلمات الذى أوشكنا أن نغرق فيه ، حدثت المعجزة ، ووجدنا قيادتنا الباسلة تخوض بنا معركة النصر ، بعد أن أتمّت لها العدة ، ونحن بيأسنا لاهون . .

وكان الله فى عوننا ، فاستطاع جنودنا البُسلاء أن يهدموا جدار الرعب بعبورهم القناة التى لا تُعبر ، وقَهْرهم الجيش الذى لا يُقهر ، وانتزاعهم عصا التأديب من يد إسرائيل . .

ولست أدّعى أننا أحرزنا النصر النهائى . . فما زال طريق الكفاح أمامنا طويلاً ، وحقل التضحيات واسعاً فسيحاً ، وقد يشاء قدرنا أن نمرّ بجولة أخرى أشدّ مرارة وقسوة . .

لكن هذا الاحتمال القوىّ لا يغيّر من الحقيقة شيئاً . .

فحرب أكتوبر كانت – ولا شك – بداية رائعة ردَّت إلينا اعتبارنا ، ووضعتنا فى الطريق الصحيح . ومادمنا أصحاب حقّ وإرادة وعزم ، فالله دائماً نصير القادرين على إعلاء كلمته بالروح والجهد .

وروعة هذه البداية فى أنها فَجَّرت حقائق خطيرة يتحتّم علينا أن نتدارسها بمنتهى الصراحة والصدق ، مادمنا حقيقة جادّين فى تحديد مكاننا الصحيح من هذا العالم الكبير الذى يحيط بنا .

وقد اعتدنا فيما مضى أن نهرب من مواجهة أنفسنا بما لا يرضى غرورنا من أخطائنا ونقائصنا ، لكن الوضع تغيرّ الآن ، وأصبح من الضرورىّ أن تكون لدينا الشجاعة الأدبية على الاعتراف بأننا كنا على خطأ مبين ، وقد كلفنا ذلك ثمناً غالياً من كرامتنا وعزّتنا وأرواح أبنائنا ، وأن الاستمرار فى خداع النفس بهذا الأسلوب الساذج هو عملية انتحارية تجلب الدّمار النهائى . .

وفى اعتقادى أن أهم ما فجرته حرب أكتوبر من الحقائق الجديدة هو أن قضيتنا مع إسرائيل لم تكن فى يوم من الأيام قضية خلاف على أرض فلسطين ، ولا مشكلة يهود يبحثون عن وطن بعد أن نبذهم العالم الغربىّ وشرّدهم من ديارهم . .

لم تكن هذه سوى أعذار مفتعلة أريد بها تغطية الحقيقة الكبرى ، وهى أنها قضية حضارية بالدرجة الأولى . .

قضية عالم متحضر استطاع بتفوقه العلمىّ والاقتصادىّ والاجتماعىّ أن يحقّق للمجتمع الإنسانى انتصارات رائعة ، وكان فى مقدوره أن يحقّق مزيداً من هذه الانتصارات لولا وجود الشعوب المتخلفة مثلنا ، التى كرَّمها الله بثروات وموارد طبيعية هائلة ، لكنها بفعل جهلها وبداءتها عجزت عن المساهمة بها فى خدمة المجتمع الإنسانى ، وحوّلت نفسها إلى عبء ثقيل يرهق كاهل العالم المتقدم ، ويعطل مسيرته فى طريق الحضارة . . .

ويرى العالم المتقدّم إزاء عجز الشعوب المتخلِّفة عن الاستفادة أو الإفادة بمواردها الكثيرة ، أنها فَقَدت حقَّ البقاء بمعناه الأدبى . ولقد أصبح من واجب الأقوياء المتقدّمين أن يرثوها وهى مازالت على قيد الحياة ، لكى يتولوا عنها مهمة تسخير

خبراتها العميمة فى خدمة الحضارة . .

ولقد سُخِّرت إسرائيل لتحقيق هذا الغرض ، بعد أن غلَّفت قضيتها بالمبررات المفتعلة ، بقصد إكساب دعواها شرعية مزعومة ، لا تقوم قطعاً على أى أساس من حق ، ولكنها ببريقها الزائف كفيلة بتحريك قلب الرأى العام العالمى . .

والدليل القاطع على صحة ما نقول ، هو موقف القوى الكبرى كلها من قضية إسرائيل ، وتصديها - على تباين نظمها وعقائدها - للدفاع عن وجودها ، واتفاقها - برغم اختلافها فى كثير من الأمور الجوهرية - على ضرورة حمايتها بالحيلولة دون تعرضها لهزيمة جذرية تهدد كيانها القائم فى قلب العالم العربى . .

فمعركتنا مع إسرائيل لم تعد تقبل الجدل فى كونها صراعاً صريحاً بين التقدّم والتخلّف ؛ هذه الحقيقة المرّة التى غَيَّبتها عن أذهاننا عهود متتالية من خداع النفس والهرب من الواقع . .

ثم جاءت حرب أكتوبر المجيدة لتزيل الغشاوة عن أبصارنا ، وتضعنا أمام الحقائق وجهاً لوجه ، فأصبح لزاماً علينا أن نعيد النظر فى أمورنا . نتدارك ما فاتنا . . ونبدأ لفورنا فى خوض معركتنا بالسلاح الوحيد الذى يتفوّق به أعداؤنا علينا وهو الحضارة ، وهى مهمّة ليست بالهينة نظراً لضخامة المعوقات التى ظلّت على مضىّ الزمن تباعد بيننا وبين ركب التقدّم . .

والمسألة تحتاج بلا أدنى شكّ إلى دراسة أمينة وافية لنواحى تفوق أعدائنا ، ثم حساب دقيق لما لدينا من إمكانيات تفيدنا فى إزالة المعوِّقات التى تعطِّل حضارتنا . . ولسوف نجد أننا فى احتياج إلى التطوير الكامل لحياتنا العلمية والاقتصادية والزراعية والفنية . . . إلخ ؛ ولكن قبل قيامنا بهذا التطوير ينبغى علينا أن نكون على بيِّنة تامّة بأن الحضارة فى مضمونها موضوع إنسانى ، وأن الارتقاء الحضارىّ ليس عمليّة ماديّة فحسب ، إنما هو أيضاً عملية إنسانية باعتبار أن الإنسان هو الغاية ، وهو الوسيلة إلى بلوغ هذه الغاية ، ومن المتعذر أن نعتمد عليه فى تحقيق الارتقاء الحضارى قبل أن نرتفع به إلى مستوى القدرة على التجاوب مع روح التنمية المقصود . .

وهذا يضعنا أمام نوعية الإنسان الموكول إليه مهمّة إقامة صرح الحضارة . .

ولقد واجَهَنا عدوُّنا بشعب قوىّ فى تقدّمه العلمىّ وتفوّقه الحضارى ؛ وسرّ قوته أنه يستخدم كامل طاقاته ، فرجاله ونساؤه سواء من حيث القدرة التامة على العمل والإنتاج . . فى حين أننا لم نستطع فى ردّنا عدوانه سوى أن نستخدم نصف قواتنا البشرية ، لأن النصف الآخر– وهو النساء – غاية فى الضعف والهزال ، لوقوعه تحت ضغوط الجهل والتخلّف ، مما يقلّل من فائدته الوطنية ويعطّل حركة الحياة الجديدة . .

ولا أظننى أتجاوز الحقيقة إذا قلت : إن الحالة العامة للمجموعة النسائية عندنا تشكِّل فى صورتها الراهنة المعوِّقَ الأكبر فى طريق تحضُّرنا . . وبالرغم من الجهود الكثيرة التى بُذِلت فى سبيل النهوض بنسائنا ، والحقوق المختلفة التى حَصَلْنَ عليها والدور الاقتصادى الكريم الذى يلعبنه فى اقتصادياتنا ، والرغبة الخالصة التى أبدينها دائماً فى نصرة الوطن ، والخدمات القيمة التى قمن بها فى الشدائد ، والتضحيات البالغة التى قدّمنها لبلادهن فى جميع المواقف الكبرى – بالرغم من كل ذلك مازال أمامنا طريق طويل جداً حتى يتأتّى لنا أن نصل بعموم نسائنا إلى المستوى الملائم لروح العصر الذى نعيش فيه . .

ولسنا نجهل أن الرجال عندنا مازالوا فى عمومهم دون المستوى الحضارى الضرورى لموازنتنا بأعدائنا ، لكنهم – على علاتهم – أكثر تقدماً من النساء ، نظراً لأنهم كانوا دائماً أوفر حظًّا منهن بتحيز المجتمعات الشرقية لهم ، ولم يستعبدوا بالحجاب الذى ظل إلى عهد قريب يخنق حضارة المرأة ، ومازال إلى الآن يلقى بظلاله على العقلية النسائية ويؤثّر فى درجة تقديرها لوجودها واحترامها لنفسها . .

ولقد نجم عن هذا الاختلاف الواضح بين وضعى الرجال والنساء نوع من الاختلال العنيف فى القوى البشرية ، الأمر الذى ظلّ على مضىّ العهود يضاعف أعباء الدولة إزاء التزاماتها ، ويعطّل حركة مسيرها إلى الأمام .

ولسنا ننكر أن هذا التخلّف النسائى ليس أصلاً فى تاريخنا ، إنما ساعدت على قيامه ظروف من التخلّف والجهل ليست من ثقافتنا ولا حضارتنا . . ففى قديم

الزمن كانت المرأة الفرعونية والأشورية والبابلية تتمتع بمكانة مرموقة ، وتشغل مناصب الدين والسياسة . . ثم جاء الإسلام فكان أضخم ثورة اجتماعية فى تاريخ البشرية ، فمن قبله لم تكن المرأة – حتى فى أفضل المجتمعات – سوى كائن حيّ لا حقوق لها ولا احترام لآدميتها ، فإذا الدين الذى ظهر فى منطقة صحراوية جرداء يسكنها قوم خشنون على الفطرة ، يقلب الوضع رأساً على عقب . ويعترف للمرأة بكامل آدميتها ، ويسلّحها بالاستقلال الاقتصادى على أوسع معانيه ، ويحرّرها من ولاية الرجل عليها فى الحقوق الجوهرية ، ويشركها إلى جانب ذلك كله فى شئون الدين والسياسة . .

وبينما كانت الأوروبية حينئذ تعيش على هامش الحياة تابعة للرجل وظلّاله . وجدنا أختها العربية المسلحة ، بنت الصحراء القاحلة والبيئة البدائية الخشنة ، تتمتع بكامل أهليتها ، وتمارس حقوق الرجل الجوهرية ، وتلتزم نحو مجتمعها بما يلتزم به من واجبات . . هذه المكاسب الرائعة التى لم تحرزها نساء الغرب إلا بعد قرون كثيرة ؛ فالاستقلال الاقتصادى ، وحقّ الإرث ، والمساواة فى العلم والعمل ، لم تتضح معالمها فى أوروبا إلاّ مع أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . .

فالعرب فى مجال المرأة كانوا البادئيين . .

لكنهم مع الأسف وقفوا عند بدايتهم الرائعة ، ولم يطوّروا أوضاعهم مع تطور الزمن ، ولم يبذلوا أدنى جهد فى تحديد مفاهيمهم الروحية والاجتماعية بتجدّد ظروف الحياة واحتياجاتها ، فخسروا الكثير . . .

ومن أصدق ما قاله المؤرخون فى ذلك : أن نهضة المرأة الأوروبية بدأت من حيث انتهت نهضة المرأة العربية ، وأن نهضة المرأة العربية انتهت من حيث بدأت نهضة الأوروبية ، ومن هنا كان الفرق بيننا وبينهم . . نحن السابقون وهم اللاحقون . . إنهم سايروا الزمن فى حين أننا وقفنا فى مكاننا لا نبرحه ، فكانت النتيجة أن مرّبنا موكب الحضارة وسبقنا بمراحل واسعة . .

ويعزو المؤرخون تفوّق الغرب وتحرّكه إلى أن قوانينه التى أخذها عنّا كانت فى نظره تشريعات وضعية سنّها الإنسان لتحقيق الصالح العام ، ومن ثم فليس

هناك ما يحول دون تغييرها كلما دعت الضرورة ، فى حين أن التدهور الحضارى الذى أصاب المجتمع العربى دفع رجعية الفكر إلى العمل على حماية تقاليده الاجتماعية بإكسابها مسحة من القداسة سلّحتها بلون من الحصانة لم يكن يقوى على المساس به سوى مجتمع رفيع فى تفتّحه الثقافى ، وهى المرتبة التى مازلنا إلى اليوم غير قادرين على بلوغها . .

هذا رأى المؤرخين الأصلاء ، وهو رأى صواب فى روحه ونصّه ، فمن أبرز خصائص التخلفِ العجزُ عن التكيّف مع الأوضاع الجديدة التى تفرضها الاحتياجات الإنسانية المتطورة ، مما يجعل السلوك غير قادر على مسايرة روح العهد ، كما يجعل المنطق الاجتماعى مجرداً من القدرة على هضم القيم الجديدة ووضع المعايير الملائمة لها . .

والعادة أن يكون لذلك انعكاسه على المفاهيم الروحية والاجتماعية مما يخرج بها عن معانيها الأصيلة وفلسفاتها الصحيحة ، ولقد حدث ذلك عندنا مما أصابنا بإساءة بالغة وقع الجانب الأكبر منها على المرأة ، فأطاح بقدرتها على أداء واجبها الوطنى كما ينبغى ، وعطّل نصف القوى البشرية عن العمل ، فكان التدهور الحضارى الذى أوقفنا من غيرنا موقف الضعف والعجز ، وأصابنا بالهزائم والنكسات ، ودفع بالأقوياء إلى معونة إسرائيل فى أن ترثنا ونحن مازلنا أحياء . .

إن حرب أكتوبر ، وما قامت به المرأة خلالها من خدمات ، وما قدمته من تضحيات ، قد رسمت لنا طريق حياتنا الجديدة ، وهدتنا إليه بما فجرته من حقائق دامغة من أهمها أن الإنسان هو صانع الحضارة والمتحكم فيها ، وأن مهمّته فى صنع الحضارة تقتضى أن يكون قوياً بالقدر الذى يحميه من أطماع الأقوياء الآخرين . والمرأة عندنا بحالتها الراهنة تشلّ نصف هذا الإنسان ، وبقاؤها هكذا يطيح بجميع الجهود التى تبذل فى بناء صرحنا الحضارى . . لذلك ينبغى أن نبدأ بها خطة التنمية الجديدة ، وأن نحرّرها من ضغوط الجهل والتخلّف وانعكاساتها على المفاهيم الدينية والاجتماعية . . ناظرين فى ذلك إلى ما طرأ على المجتمعات القوية من تغيرات خلال السنوات السبعين الماضية ، ففى بحر هذه المدة تقدّمت حضارة العالم بدرجة مذهلة ، وانتقلت البشرية من عصر الدابّة إلى عصر

الفضاء . . وبعد أن كان الناس يسافرون من مكان إلى مكان على ظهور الإبل أو بعربات تجرّها الدوابّ ، باتوا وأصبحوا يطوفون الفضاء حول الأجرام السماوية بحثاً عن عوالم جديدة . .

ويرجع الفضل فى هذا التقدم الهائل إلى التغيّر الشامل فى مكانة المرأة ، وما ترتب عليه من انتقالها من مراتب التبعية والهامشية إلى مستويات المواطنية الكاملة .

ومن المؤرخين المعاصرين من يؤمن عن يقين بأن الحضارة الكبرى التى تجلّت فى القرن العشرين قد قامت أساساً على دعامتين متساويتين فى القوة والأهمية ، هما اختراع الكهرباء وخروج المرأة إلى الحياة العامة . .

ونحن على ثقة تامة بأن قيادتنا الواعية قد عقدت العزم على خوض معركة التحضّر كوسيلة لا غنى عنها فى تحقيق الارتقاء الضامن لحمايتنا ، والحفاظ على وجودنا فى مواجهة التحديات العنيفة الماثلة أمامنا . . ولكن الذى نرجو أن يكون واضحاً فى هذه العملية الكبرى أن المرأة جزء رئيسى فى التنمية الاقتصادية ، باعتبار أنها نصف القوى البشرية ، فمن الضرورات الحتمية أن تُهدم من طريقها المعوقات وأن تؤمن بالحريات والضمانات ، وأن يحدث ذلك فى ضوء خبرة وتجارب المجتمعات المتقدمة . . ومادمنا نؤمن بالحضارة فمن واجبنا أن نقتدى بأنماطها البناءة ، فالحضارة ضرورة للمجتمعات الإنسانية المتكاملة ، وهى ملك للجميع ، وليست وقفاً على أناس دون أناس ، واعتبارها تراثاً نوعيًّا أو إقليميًّا يعرض عملية التحضر إلى نكسات قد تعيدها إلى أحضان التخلف مرة أخرى . .

وعملية تحرير المرأة والارتقاء بها إلى المستوى الحضارى الكافى للموازنة بينها وبين نساء العالم المتقدم ، ومنه أعداؤها ، لا تتحقق بالاقتصار على فرض القوانين ، ولا الاكتفاء بالتوعية ، ولا الاعتماد على نشر التعليم ، فهذه كلها عوامل حضارية شديدة الترابط ، ولكنها بطيئة السير . . والدولة هى التى تنشطها وتعطيها السرعة

الواجبة . . فالدولة ملزمة بفرض الحضارة بقوة القانون ، كذلك ملزمة بحمايتها على مختلف المستويات ، وهو عبء ضخم ، ولكنه عبء واجب باعتبار أن الحكومة هى الجزء المتقدم من المجتمع بل الأكثر قدرة على تصور الأوضاع الجديدة وتحديد احتياجاتها ، وبناء عليه فهى ملزمة ومضطرة بأن تسبق المجتمع المحلى ، وأن تدفعه دفعاً إلى الحالة التى يرجى وصوله إليها .

صالح جودت

ورقة عمل . . . للأدب والفن





دار حوار بين صحفية شابة متفتحة ، وبين قاصّنا الاجتماعي اللامع نجيب محفوظ

قالت : ماذا تكتب الآن ؟

قال : لا شيء

قالت : ولماذا ؟

قال : لأنني لا أستطيع أن أكتب وأنا مرتاح النفس . وأنا مرتاح النفس بالفعل منذ النصر الذى حققناه فى السادس من أكتوبر . والفنان لا يبدع إلا إذا كان واقعاً تحت تأثير انفعال عنيف ، كالانفعال الذى عانيناه بعد محنة ١٩٦٧

وأحسب أن نجيب محفوظ صادق كل الصدق فى هذا القول . وليس معنى هذا أنه لن يكتب عن حدث السادس من أكتوبر ، ولكن ليس الآن . . . بل بعد حين ، بعد أن تستقر الأحداث وترسو على مرفأ فى نهاية شاطئ المعركة . . كما فعل توفيق الحكيم من قبل ، حين سجل انفعالاته بثورة سنة ١٩١٩ فى رواية « عودة الروح » التى كتبها فى سنة ١٩٣٦ ، أو نحو ذلك

ولعلى أروى هذه الحكاية ، لأقول إن الانفعالات القاسية تهزّ شجرة الفنان

لتطرح ثمارها ، أكثر مما تهزه الانفعالات السعيدة

وأعود إلى نجيب محفوظ ، وأضرب المثل بمجموعته القصصية « تحت المظلة » التى لم يفهمها أكثر من قرءوها ، فى حين أعتبرها أنا من أعظم أعماله .

لم يفهمها أكثر من قرءوها ، لأن نجيب محفوظ استعان فيها بالرمز المغرق ، إذ كتبها فى عصر أسود – هو عصر النكسة ، وما قبلها مباشرة ، وما بعدها مباشرة – وهو عصر لم يكن الحاكم فيه يسمح لقلم أن يقول ما يريد ، فلم يجد نجيب محفوظ بدًّا من الالتجاء إلى الرمز الذى لا يفهمه الحاكم ، ولا يفهمه المقربون إليه والهامسون فى أذنه ، تماماً كما لم يفهمه أكثر القراء

ولو فطن القارئ الذكى إلى سطر مكتوب بخط دقيق على بعض صفحات قصة « تحت المظلة » يقول إن أحداث هذه القصة قد وقعت بين شهرى كذا وكذا سنة ١٩٦٧ ، لقفز إلى ذهنه لأول وهلة ، وبمجرد وقوع نظره على هذا الرقم المشئوم ، أنه لابد أن يكون وراء هذا الرمز كلام . . وكلام له معناه الكبير

ودعونى أحاول . . لا أن أفك هذا الرمز ، بل أن أقربه ، مجرد تقريب ، إلى ذهن كل قارئ

فالناس الذين وقفوا تحت مظلة الأوتوبيس فى مستهل سنة ١٩٦٧ ، فى انتظار الأوتوبيس الذى لا يأتى أبداً ، هم الشعب . . الشعب الذى ينتظر وسيلة للحركة تنتقل به ولو محطة واحدة إلى الأمام . . والوسيلة لا تلوح فى الأفق أبدًا

والرجل الذى يخرج من حارة ويعبر الميدان ويدخل الحارة المقابلة ، والناس حوله يعدون صارخين « حرامى . . حرامى » . . ثم لا يلبث الرجل أن يخرج من الحـــارة ويغنى ، والناس – الذين لقبوه بالحرامى من قبل – يخرجون وراءه ويغنون معه ويصفقون له . . هم أنفسهم الذين قال فيهم شوقى من قبل . . فى رواية مصرع كليوباترا :

انظر الشعب . . ديون   كيف يوحـــون إليـــه
ملأ الجـــو هتافـــاً   بحيـــاتىْ قاتليـــه

أثـــر البهتـــان فيـــه وانطلى الـــزور عليـه
يالـــه من ببغـــاء عقلـــه في أذنيـــه

والسيارتان اللتان اصطدمتا وسط الميدان ، وراح فى الحادث كثير من الضحايا التى كست دماؤها الأرض بالأرجوان ، هما القوتان المتعاديتان اللتان تصارعتا فى ذلك التاريخ ، وسقط فى صراعهما من جانبنا عشرون ألف قتيل

والرجل الواقف فى الشرفة المطلة على الميدان ، يلوح لامرأة واقفة فى الشرفة المقابلة ، يسألها أن تهبط للقائه ، وتستجيب له ويتم لقاؤهما فوق البساط الأرجوانى المصنوع من دماء الشهداء . . هذا الرجل ، غفر الله له ، كان يستطيع أن يغير وجه المأساة . . لولا أنه كان مشغولا بالمرأة الواقفة قباله فى الشرفة . .

والشرطى الذى يظهر فى نهاية القصة ، ويطلق الرصاص على الجميع . . الجميع بغير استثناء . . هو التاريخ . . الذى حكم على كل هؤلاء . . . على اللص المغنى . . . وعلى المرأة . . . وعلى عشيقها . . . وحتى على الناس الواقفين فى انتظار الأوتوبيس فى سلبية وجمود . حكم عليهم جميعاً بالموت . . . لعل جيلا جديدا أفضل منهم يقوم من بعدهم ، ويستدعى الأوتوبيس ، ويواصل به مسيرة التقـــدم . . . المسيرة التى تقف الآن عند محطة السادس من أكتوبر . . وتتأهب لمزيد من السير

* * *

هذا حديث ليس فى السياسة ، ولكنه فى سيد العلوم الإنسانية ، وهو الأدب والعلوم الإنسانية هى المحرك للأدب فى كل زمان ومكان

فلو تأملنا مسرح « أوزبورن » . . . مثلا . . لوجدنا أن خلاصته هى قول أوزبورن : أريد للإنسان أن يشعر . . لا أن يفكر

وإذا كان أوزبورن يعالج مشكلة الفرد ، كأساس للمجتمع ، فإن خادما

آخر من خدام المسرح ، مثل « آردن » . . . يعالج مجموعات الناس ، ويرسم بهم صورة المجتمع الذى يريد أن يعالجه ، فهو حين يرى الفساد فى المدينة ، يركز الفساد فى سرة المدينة – التى هى بلديتها – ويقدم لك النماذج الفاسدة فى مستشار البلدية ، ومحاسب البلدية ، ومهندس البلدية ، وموظفى البلدية

بيد أن الرجلين يلتقيان فى أن فساد الفرد ، سواء بذاته ، أو بأمثاله ، هو سبب الضلال فى المدينة

ولكن شكسبير يلخص الرأيين فى رأى واحد ، فيقول لك إن الملك هو رأس المجتمع ، وصحة الملك الجسدية والنفسية هى التى ترسم حالة المجتمع ، وتقرر مصير المجتمع

وليت القارئ يجتهد فى هذا « التطبيق » . . . كما كان يفعل فى دروس المدرسة الثانوية . . . فيطبق هذه المذاهب جميعاً على قصة « تحت المظلة » ليفكّ رموزها ويعرف فى أى عصر كنا نعيش

* * *

المهم . . . أن الرمزية كانت لغة الأعمال الكبيرة فى ذلك العهد ، لأن الكاتب لم يكن يملك إلا أن يلجأ إليها

وإذا كانت الرمزية لغة من لغات الانغلاق فى عصور الانغلاق ، لم تسد القصة وحدها ، بل سادت الشعر أكثر مما سادت القصة . . والرواية والمسرحية أيضاً . . . فإنها لم تستطع أن تخدم قضايا الشعب لقصورها عن الإفصاح والتوضيح

أما الأعمال الفنية التى تكتب فى ظلال الحرية ، فهى وحدها التى تستطيع أن تخدم قضايا المجتمع

خذ مثلا رواية « العدالة » للكاتب المسرحى الكبير جولز ورذى

فى هذه المسرحية فصل كامل لا نظير له فى أى عمل فى تاريخ المسرح

فصل كامل لرجل متهم فى جريمة ، محكوم عليه بالحبس الانفرادى فى زنزانة .
ويرسم لك المؤلف – طوال هذا الفصل – تأثير الحبس الانفرادى على إنسانية الإنسان . . . الذى ينقلب بين لحظة وأخرى من قرد إلى أسد إلى هر إلى ثعلب إلى أرنب إلى ثعبان إلى . . . إلى أن يرتد إنساناً مسكيناً مغلوباً على أمره فى أشقى وأتعس صورة بشرية

هذه المسرحية ، حينما عرضت فى لندن ، ودعى إليها الناس لمشاهدتها ، اجتمع مجلس العموم البريطانى على وجه الاستعجال . وقرر إلغاء الحبس الانفرادى

هذا هو النوع من الأدب الواضح المفصح الذى يستطيع أن يخدم قضايا المجتمع ، ويحل مشاكله

* * *

جدّ بنا الحديث . . .

فهل جددنا معه ؟

بصراحة ، لقد وقفنا بعد ١٥ مايوسنة ١٩٧١ نتساءل : لماذا لم تستطع العشرون سنة الماضية أن تنتج من الأقطاب والأعلام أمثالا لما كانت تنجبه مصر من قبل ؟

إن التماثيل الكبرى فى حياتنا : شوقى وحافظ وعزيز أباظة وأعلام أبولّو فى مجال الشعر . والعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم فى مجال القصة . . . ويوسف وهبى وجورج أبيض ونجيب الريحانى فى مجال المسرح . . . وأم كلثوم وعبد الوهاب فى مجال الغناء . . . وزكريا أحمد ورياض السنباطى والقصبجى فى مجال التلحين . .
كل أولئك من نتاج عهود ما قبل سنة ١٩٥٢

فلماذا توقفت مصر عن العطاء على مدى عشرين سنة ، بعد أن كان عطاؤها بالغ السخاء ؟

الجواب : أن المواهب لا تتفتح فى ظل النظم البوليسية

يقول الكاتب الروسى الكبير سولجينتسين ، الذى طرد من وطنه أخيرًا :

إن الحكومات البوليسية تكره كتاب الدرجة الأولى ، لأنها تعتبر كلا منهم حكومة داخل الحكومة ، ولهذا فإنها تعتمد دائماً على كتاب الدرجة الثالثة

وما يسرى على الأدب ، يسرى على كل صناعة فكرية .

ولهذا كثر كتاب الدرجة الثالثة ، وفنانو الدرجة الثالثة ، على مدى السنوات العشرين الماضية ، فهبط مستوى الأدب ، وهبط مستوى الفنون عامة . وخفتت أصوات أصحاب الطبقة الأولى ، فنهم من آثر الصمت ، أو اتجه إلى التراث ، أو لجأ إلى الرمز الذى لا يخدم قضية ولا يحقق هدفاً

وتحولت أجهزة الإعلام ، من صحافة وإذاعة ومسرح وستارة وغيرها ، إلى أبواق لتمجيد الحاكم وإظهار الظلم بمظهر العدل وإلباس الليل ثوب النهار . . كل هذا ، والحاكم كلما سمع تمجيداً ، قال كما تقول جهنم : هل من مزيد ؟

وفى غمار هذه الموجة ، انبثق صوت الغضب والسخط والرفض ، وبدأت بواكيره تظهر فى الأدب ، من شعر وقصة ورواية

ولكن عاملين حولا هذا الصوت إلى نقمة جديدة تضاف إلى النقمة القائمة :

الأول ، أن الغضب والسخط والرفض انصبت حتى على الأسس الخيرة الموروثة من العهود الطيبة . فأنكر الغاضبون التراث ، وأنكروا التقاليد ، وأنكروا الأخلاقيات ، وأنكروا بحور الخليل ، وأنكروا مدرسة شوقى ، وأنكروا جهاد سعد زغلول ، وأنكروا مسرح رمسيس . . وأرادوا أن يهدموا كل شىء بدعوى أنهم سيبنون جديداً ، ولكنهم لم يأتوا بجديد يستحق البقاء ، أويستحق مجرد النظر

والثانى ، أن عناصر الشرّ احتضنتهم حتى استغرقتهم بمختلف الإغراءات ، فسادت دعوات الشعوبية والإلحاد والهرطقة وسقوط القيم الكبيرة فى الحياة

ولو شاء الشيطان أن يستمر هذا التيار لفقدنا البقية القليلة الباقية من الأمل ، التى تخلفت بعد مدلهمة سنة ١٩٦٧

ولكن مشيئة الله كانت فوق مشيئة الشيطان ، فجاءت الثورة على الثورة فى سنة ١٩٧١ ، وبدأت مسيرة التصحيح ، وبدأت معها العودة إلى القيم ، والأوبة إلى الله ، ودعوة العلم والإيمان

ولعل هذا هوما يسميه أستاذنا توفيق الحكيم بعودة الوعى

وقد كثر الحديث عن عودة الوعى . وجلسنا ، توفيق الحكيم وأنا وأصحابنا نتحدث عنها ، ونستعرض الحملة الضارية التى ووجهت بها هذه الرسالة ، هنا فى مصر ، وفى لبنان

وتساءل الغاضبون : أين كان توفيق الحكيم طوال هذه السنوات ؟ أو لم يكن فى طليعة الركب الذى كان يمتدح الحاكم ؟

وقال توفيق الحكيم : وماذا يملك الإنسان أن يصنع فى عصر يصادر فيه الحاكم شجاعة الإنسان ، ويتهدده بالسجن والقيد والتعذيب والإرهاب والموت ؟

وأضاف إلى ذلك قوله : إننا لا ننكر أنه كانت للحاكم إيجابيات تستحق الثناء ، فأثنينا عليها . . . أما سلبياته ، فقد سكتنا عنها لأننا لم نكن نملك – إزاء الشجاعة التى صادرها فى الشعب – إلا الصمت

واختتم حديثه بقوله :

– ولكن الحساب العلمى الصحيح فى حياة كل حاكم ، يكون بعد رحيله . . . فبعد رحيله ، يمسك المحاسب بالقلم ، ويرصد ما له فى باب « له » وما عليه فى باب « منه » . . . ويتأمل نتيجة الميزانية ، ويحكم بها إذا كان رصيده مديناً أم دائناً

هذا هو المنطق الصحيح الذى تأخذ به جميع الشعوب ، والذى تصحح به مسيرة التاريخ

ولقد كان ستالين معبود شعبه فى زمانه

لم يكن عند شعبه – اللادينى – إله إلا هو

ولكنه حوكم بعد موته ، وكشفت أوراقه أنه أساء بأكثر مما أحسن ، وأنه أعدم من أبناء شعبه رقماً يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين من الأنفس

هكذا حوكم ستالين . . .

وهكذا صدرت أحكام التاريخ على هانيبال وموسولينى وهتلر ونابليون والسلطان عبد الحميد وسالازار وسائر دكتاتوريى التاريخ . . بعد أن أساءوا إلى شعوبهم بأكثر مما أحسنوا

* * *

وكنا – فى البداية – نتحدث عن الأدب والفن ، ولكن الحديث جنح بنا حتى جمح

فإذا لم يكن هناك بد من العودة إلى حديث الأدب والفن ، فإننى أقول إننا قد بدأنا فجراً جديدًا فى يوم ٦ أكتوبر . . لندخل عصرًا جديدًا أساسه التخطيط

بدأنا نفكر فى التخطيط الحضارى لحياتنا الجديدة حتى سنة ٢٠٠٠

ولكننا فكرنا فى التخطيط للصناعة والتجارة والزراعة والملاحة . . وكل شىء . . . ونسينا أن نخطّط للأدب والفن ، مع أنهما غذاء الروح ، والروح هى التى تمسك بدفّة كل شىء فى المجتمع

ولهذا ، فإننى أطالب الدولة بإصدار ورقة عمل مدارها الأدب والفن ، تطرح على الأدباء والفنانين الراسخين ، وعلى المجالس المتخصصة ، كمجلس الفنون والآداب ، ومجمع اللغة ، وهيئة المسرح والسينما ، ويدور حولها حوار مفتوح وصريح ، تتبلور فيه الأفكار التى يجب أن يقوم على أساسها تخطيطنا للأدب والفن حتى سنة ٢٠٠٠ .

فتحي غانم

مواد خام لصناعة المستقبل



التفكير فى المستقبل ومحاولة تصوره ، شيء ، والتخمين والتمنى شيء آخر . ولست من هواة التخمين ، ولا أريد أن يتهمنى أحد بالرجم بالغيب ، ولكنى مشغول مثل بقية البشر بالمستقبل ، سواء كان ذلك بالنسبة لمستقبل حياتى الخاصة ، أو مستقبل المجتمع الذى أعيش فيه . ولا أحد يستطيع أن يفلت من المستقبل ، إنه يلاحقنا فى كل لحظة ، وفى الحقيقة أننا لا نكاد نعيش الحاضر ، ففى اللحظة نفسها التى نتبين فيها الحاضر المحيط بنا ، يكون قد تحول إلى ماض وذكرى ، وهكذا يندفع بنا قطار الحياة من الماضى إلى المستقبل مروراً بحاضر يستحيل الإمساك به وتجميد لحظته . فالماضى والمستقبل هما اللذان يحركان الحياة . وهما وقودها ، وهما طرفا الصراع فيها ، وبهما تنمو الحياة وتنضج وتزدهر ، أو تذبل الحياة وتخبو وتندثر . ومن هنا كان التفكير لا التخمين ، والتصور القائم على الدراسة والتحليل ، لا الرجم بالغيب، ضرورة لا مناص منها لمحاولة تصور المستقبل . . أى مستقبل .

فإذا كنا نريد أن نتصور مستقبل مصر أو مستقبل الأمة العربية بعد ما تحقق من انتصارات فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة ، فلابد لنا أن نستعين بأحداث

الماضى لنمتحن بها صدق أحلامنا فى المستقبل . لابد أن نعتمد على خبراتنا السابقة التى اكتسبناها من تجاربنا الماضية ونحن نحاول تقديم صياغة لآمالنا وأهدافنا فى المستقبل . ولا شك أن الحاجة إلى المعلومات الدقيقة الوافية تفرض نفسها . فبغير هذه المعلومات لا يكون هناك أساس صالح يقوم عليه البناء . ولذلك أناشد كل من ساهم فى حرب أكتوبر المجيدة ، على أى مستوى من المسئولية ، كبيراً كان أو صغيراً ، أن يسارع بتسجيل ما لديه من معلومات ، وأن يوجهها إلى الجهات المختصة فى المجالات المختلفة ، وعلى هذه الجهات أن تولى هذه المعلومات العناية القصوى من الدراسة والتحليل ، وإذا لم تستطع فعلى الأقل تحتفظ بما يتجمع لديها من معلومات ، وأن تصونها . فأغلب ظنى أن كل معلومة حول هـذه الحرب ستجد من يهتم بها الآن ، أو لعشرات السنوات أو مئاتها القادمة . أجيال من الساسة والعسكريين والمؤرخين والأدباء والشعراء وعلماء الاجتماع والإدارة والاقتصاد وغيرهم وغيرهم ، سوف يجدون فى أحداث هذه الحرب ، وفيما سجله الذين شاركوا فيها من تجارب وانطباعات وخبرات ووجهات نظر ، كنوزاً لا تفنى من المعرفة التى تنير الطريق لتصور أكثر صحة وسلامة لمستقبلهم .

ولنا فى حملة نابليون بونابرت على مصر عبرة . فقد جاء مع جيش بونابرت حشد من العلماء والفنانين سجلوا كل ما رأوه . لم يكتفوا بتسجيل حقائق الاقتصاد المصرى أو المجتمع المصرى ، بل فحصوا كل شىء ، ووصفوه فى كتاب « وصف مصر » ، من الآثار إلى الطيور والنباتات والحيوانات إلى رسم ملابس النساء والرجال ؛ حقًّا لم يتركوا شيئاً يخطر ببال إلاّ سجلوه ، هذا بالإضافة إلى الرصيد الضخم من المذكرات واليوميات والرسائل الذى تركه الضباط والجنود والأطباء والمهندسون وغيرهم ممن شاركوا فى الحملة . ولقد كان هذا الحشد الهائل من المعلومات أساساً هامًّا لوضع استراتيجيات وسياسات أوربية لمستقبل مصر ومنطقة الشرق الأوسط ، كما أرادوه هم ، لا كما كنا نريده نحن ، ولتحقيق مصالحهم لا مصالحنا ولتقوية نفوذهم لا نفوذنا ، ومع ذلك استفادت العلوم والفنون فى توظيف هذه المعلومات لخدمة الإنسانية كلها . ولا أنكر أننا استفدنا أيضاً من هذه المعلومات

والدراسات التى قامت بها حملة بونابرت . وإن كانت الفائدة جاءت متأخرة . وبعد أن اكتسب بها من سبقنا إليها قوة وسلطة .

ولقد استشعر الرئيس أنور السادات قائد وبطل حرب أكتوبر المجيدة ، أهمية تسجيل المعلومات العسكرية كافة المتصلة بهذه الحرب ، وأصدر توجيهاته بإعداد كتاب جامع شامل من واقع تجارب وخبرات كل القادة الذين شاركوا فيها .ولعل هذا التوجيه النابع من حس تاريخى مرهف لزعيم سياسى يتعامل مع التاريخ ، أن يكون مفتاحاً لاهتمام كل من شاركوا فى هذه الحرب ، فى مجالات الصناعة والنقل والإدارة والتموين والاقتصاد والإعلام والثقافة وغيرها ليسجلوا بدورهم ما لديهم من معلومات وخبرات . كذلك علينا أن نهتم بما سجله الجنود من يوميات أومذكرات ، وأن نحتفظ برسائلهم من الجبهة إلى أسرهم وأصدقائهم ، ومن مجموع هذه المعلومات ، تتكون المادة الخام اللازمة لصناعة التفكير فى مستقبلنا بعد حرب أكتوبر المجيدة .

غير أن التفكير فى المستقبل . ومحاولة تصوره عملية تلازمنا فى كل لحظة . وكما سبق أن قلت لا نستطيع أن نفلت منها . وهناك قدر من بناء مستقبلنا نستطيع أن نتبنه بوضوح ، حتى قبل أن تتجمع لدينا كل المعلومات التى اكتسبناها من خوض تجربة الحرب .

فأنا لا أرجم بالغيب ، عندما أتصور مستقبل بلادى كمصرى وكعربى ، وقد تخلصت تماماً من كل نفوذ استعمارى يحتل بعض أراضيها عدواناً واغتصاباً فى محاولة عنيدة لئيمة لإخضاعها والسيطرة عليها .

ولا أريد أن أقدم تصورى للمستقبل من خلال مناقشة سياسية ، عن دور الاستعمار القديم والاستعمار الحديث فى عالم اليوم ، والنهاية المحتومة لزوال هذا الدور وانتصار الشعوب ، لأن بى رغبة أن أقدم تصورى للمستقبل ، من خلال مواقف إنسانية واجهتها بنفسى فى الماضى . ولعل الذى يدفعنى إلى ذلك ، هو أن الحديث عن المستقبل يجعلنى على الفور أفكر مثل أى أب فى ولدى الذى لم يبلغ العاشرة بعد . وقد لا يفهم حديث السياسة ، ولكنه بكل تأكيد ينصت باهتمام وشغف عندما أحكى له عن بلدنا من خلال تجارب أومواقف واجهها أبوه أوجده .

ولقد كنت فى التاسعة من عمرى عندما واجهنى بقسوة السؤال نفسه الذى أتدبر الإجابة عنه اليوم . ما هو مستقبل مصر؟

كنت مع أخى الذى يصغرنى بسنتين طفلين يسيران مع والدهما المشغول عنهما بأصدقائه الكبار . كان ذلك فى الثلاثينيات . وكنا نسير على كورنيش الإسكندرية ، عندما وقف الكبار ، وأعطوا البحر ظهورهم ، وجعلوا يحدقون أمامهم فى بناء ضخم مرتفع ممتد يحرسه جنود إنجليز . كان ثكنات الجيش البريطانى فى مصطفى باشا . وكانوا يتحدثون وأنا أشعر بالملل من الوقوف ، حتى فاجأنى صوت أبى وهو ينظر إلىّ وإلى أخى مخاطباً أصحابه :

– كم أتمنى أن أعيش حتى أرى علماً مصريًّا فوق هذه الثكنات .

كان حديث أبى عن الحياة والموت مفزعاً . كان زلزالاً يهز بقسوة كل ما بى من طفولة .

واستمر أبى يقول ، وهو ينظر فى عينى :

– لو مت . . فعليكم أنتم أن تحققوا هذه الأمنية . .

وارتجفت ، ولم أفهم تماماً قوله : « لو مت » ، ولكن قلبى كان ينبض بخوف وغضب شديدين ، ولم أنبس بكلمة ، وما كان ينتظر منى أن أقول له شيئاً ، ولا أذكر شيئاً أضيفه إلى هذا المشهد ، الذى ما زال يلاحقنى بانفعالات شتى من الثلاثينيات حتى السبعينيات .

مات أبى ، والعلم البريطانى رمز احتلال الأرض المصرية ما زال فوق سارية فى ثكنات مصطفى باشا فى قلب رمل الإسكندرية ، وما زال فوق سارية فى ثكنات قصر النيل فى قلب القاهرة ، وفى قلعة صلاح الدين يطلّ على القاهرة .

وأينما رأيت علم الاحتلال ، كان السؤال يواجهنى بكل قسوته . ما مستقبل مصر؟ وكانت الإجابة الوحيدة الممكنة ، والتى لا إجابة غيرها ، هى أن علم الاحتلال سوف يسقط وعلم مصر سوف يرتفع .

عندما قامت الحرب العالمية الثانية – صار فوق أرض مصر علمان للاحتلال : أحدهما بريطانى ، والثانى نازى فاشستى . وذات يوم انطلق جندى من جنود الاحتلال

البريطانى بعربة ضخمة تحمل فوقها طائرة محطمة ، فى شارع القصر العينى المزدحم ، وضرب بسيارته أخى فمات على الفور.

إننا نموت ، وعلم الاحتلال أصبح علمين . والسؤال عن مستقبل مصر . وبقاء علم الاحتلال فوق أرضها ، سؤال عن الحياة أو الموت . ليس بالنسبة لى وحدى ، ولكن بالنسبة لنا جميعاً ، كل منا له أب أو أخ أو جد أو ابن يدعوه إلى التفكير فى مستقبل مصر ، ويفرض عليه بحكم التجارب والذكريات والخبرات المستفادة ، أن يكون التصور الوحيد والممكن هو حتمية تحرير كل شبر من الأرض .

ومع معارك المواجهة مع الاحتلال تراكمت الخبرات ، وتكشفت مواقع قوة الاحتلال ونفوذه ، كما تجمعت قوى المقاومة والتحرير ، وعلمتنا التجارب أن سقوط أعلام الاحتلال هو هدف يتطلب تحقيقه أن نحاصر أعوان الاستعمار والمتحالفين معه والمستفيدين من وجوده . . وأن نضربهم قبل أن نضربه . عرفنا ذلك بالتجربة ، وقبل أن نقرأ عن الاستراتيجية الحديثة التى تؤكد أن الاقتراب غير المباشر من الهدف ، هو أسرع الطرق للوصول إليه . وهكذا كانت مظاهراتنا كطلبة ضد الملك وأعوانه ، وباشوات الإنجليز وعملائهم . وأصبح تصور المستقبل ، ليس كلاماً إنشائيًّا مجرداً ، أو قصائد يدبجها الشعراء فى المناسبات ، ولكنه كفاح عملى فى الشـوارع ، ودماء تسيل ، وسجون ومعتقلات ، وحركات فدائية وإرهابية ، وكل ما تشاء أن تتخيله من تنظيمات ومنشورات وقضايا سياسية ، حتى انتهى كل هذا إلى ولادة صورة للمستقبل فى قيام تنظيم سرى للضباط الأحرار بثورة ٢٣ يوليو.

عندما طرد الملك ، وحوصر أعوان الاستعمار ، تحقّق صدق الاستراتيجية الحديثة فى مناداتها بأسلوب الاقتراب غير المباشر . فانحسر الاحتلال إلى قاعدة القناة ، بعد أن استطاعت المظاهرات والكفاح السياسى الشعبى أن يجلياه من قبل ، ويسقطا أعلامه من فوق ثكنات مصطفى باشا فى الإسكندرية ، وقصر النيل والقلعة والعباسية فى القاهرة .

ولم أفرح فرحة كاملة ، وأنا أقف على كورنيش الإسكندرية ، وقد جعلت ظهرى إلى البحر ، مواجهاً ثكنات مصطفى باشا والعلم المصرى يرفرف على السارية ،

والجنود المصريون يحرسونه ، وصوت أبى ، وذكرى أخى يحيطان بى . لقد كبرت وعرفت أن الاحتلال ليس هو تلك الراية التى سقطت فى الإسكندرية والقاهرة ، وأنه مازال هناك فى القناة ، وأن المعركة مازالت قائمة ، ولكن المستقبل الذى نريده سوف نحققه .

وعندما تم جلاء الإنجليز فى يونيو ١٩٥٦ ، كادت الفرحة تتم ، ولكن أشهراً قليلة علمتنا أنها فرحة ساذجة . فالإنجليز الذين ذهبوا فى يونيو عادوا فى أكتوبر ومعهم الفرنسيون وثالثتهم إسرائيل . ولم ينسحبوا إلا تحت ظروف سياسية ضاغطة ، ولكنهم تركوا فى نفوسنا يقيناً بأن الصراع مستمر ، وأن السذّج وحدهم هم الذين يتوهمون أن النصر الكامل قد تم ، وأن الأخطار قد زالت إلى الأبد .

ولابد أن أخطاء جسيمة هى التى أدت إلى هزيمة ١٩٦٧ ، التى عاد بسببها الاحتلال إلى مصر فى أرض سيناء ، وإلى الأرض العربية فى الضفة الغربية والجولان فضلا عما كان قد لحق بأرض فلسطين .

ولا شك أننا فى حاجة إلى معلومات كاملة عن أسباب هذه الهزيمة ، فبغير هذه المعلومات لن يستقيم أى تصور للقضاء على كل أسباب تكرارها . ومن حسن الحظ أن انتصار أكتوبر ١٩٧٣ هو مؤشر حاسم بأن قواتنا المسلحة استطاعت أن تعى درس النكسة ، وأن تتغلب على أسبابها . ولعل هذا الانتصار يمهد لنشر المعلومات والدراسات والتحليلات الكاملة حول هزيمة ١٩٦٧ . فهى أيضاً جزء هام من المادة الخام التى يجب توافرها لوضع تصور صحيح وسليم لمستقبلنا .

وإذا كانت الأمة قد لزمت الصمت وتمسكت بالصبر ثقة منها فى القائد الذى قادها إلى انتصار أكتوبر ، والذى طالبها بالصمت والصبر ، فلا شك أنه – مع كل دعم لهذا الانتصار – سوف تزداد الحاجة عند الأمة إلى الاطلاع على أسباب الهزيمة التى سبقته ، لا لإشباع الفضول ، أو لمجرد نبش الذكريات ، ولكن لأن هذا الاطلاع سوف يحرك بين أفراد الأمة كل دوافع التفكير الجاد والعمل الدءوب على تجنيب بلادنا فى المستقبل أسباب هزيمة أخرى .

ومع ذلك ، وبرغم هزيمة ١٩٦٧ ، كانت الصورة فى مجملها أن الاستعمار

ينحسر . كان يحتل كل شبر من أرض مصر . ثم انحسر وتحددت مواقعه غربى قناة السويس ، ثم انزاح إلى شرق قناة السويس . فهكذا تقول نظرة التاريخ الشاملة التى لا تنظر إلى الأحداث منفصلة بعضها عن بعض ، بل تضمها فى تيار واحد ، قد يتعرج ، وقد يتلوّى ، ولكنه يسير فى اتجاه رئيسى ، وهو بالنسبة لنا اتجاه التحرير والاستقلال الكامل . .

وهذه النظرة الشاملة لأحداث التاريخ أكثر صدقاً فى رؤية ما يجرى ، دون أن تضللنا أحداث معينة ، فتفرقنا فى تشاؤم لا مسوغ له ، يعطل حركتنا ، ويوهن من قوانا المعنوية . ولقد كان « لورد لويد » وهو يكتب مذكراته عن مصر التى حكمها كمندوب سام فى الثلاثينيات يقول : إن تاريخ احتلال إنجلترا لمصر ، إذا نظرنا إليه نظرة تاريخية صحيحة ، فسنجد أنه بالنسبة لهذا الشعب المصرى صاحب التاريخ الطويل العريق الذى امتد فى حضارته إلى آلاف السنين ، لا يعدو أن يكون هامشاً يكتبه المؤرخ فى سطرين فى كتاب ضخم عريض .

فهكذا كان المحتل يشعر فى قرارة نفسه ، أنه يواجه شعباً أقوى منه برغم أنه يحكمه بالفعل ، ولكنه حكم مؤقت ، ميئوس من استمراره .

والعدو الإسرائيلى لا يفكر على هذا النحو . إن تعصبه الأعمى يدفعه إلى تبنى منطق شاذ . ولقد كان يتصور لنا مستقبلا غريباً . كان يتوهم أننا سنقبل الهزيمة ، وسنتلقى الضربات فى حرب بعد أخرى ، دون أن نكتسب أى نوع من الخبرة فى مواجهته ، ودون أن نبتكر أساليبنا الخاصة فى رد عدوانه ، على حين أن تاريخ الإنسان منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا ، هو تاريخ تراكم الخبرات الإنسانية وتطورها فى مواجهة التحديات المختلفة . ومن أهمها تحديات العدوان والاغتصاب .

وقد كان الإنسان يواجه فى عصر ما حيوانات شرسة هائلة ، مثل الديناصور ، واستطاع الإنسان أن يحفظ إنسانيته على الأرض ، ولم يستطع الديناصور الهائل أن يبقى ، فأبيد من على سطح الأرض . وذلك لأن الإنسان قادر على اكتساب الخبرة يوماً بعد يوم . وقادر على تجديد أساليب الحياة حسب تطور ظروف البيئة ، والإنتاج ، على حين ظل الديناصور وحشاً هائجاً بلا عقل .

ولقد كانت النظرة المتعصبة ، الضيقة الأفق ، التى شجعت إسرائيل على اغتصاب الأرض العربية ، هى السبب فى الصدمة التى لحقت بإسرائيل فى حرب أكتوبر. رفض الإسرائيليون أن يصدقوا أننا قادرون على صياغة مستقبلنا ، وكانت أحزابهم تخوض الانتخابات بعد حرب ٦٧ تحت شعار : « ولا شبر واحد للعرب » . مقابل شعارنا بألاّ نفرط فى شبر واحد من الأرض العربية . وكان طريق السلام عندهم : هو إنشاء دولة إسرائيل الكبرى ، الممتدة من النيل إلى الفرات ، وأن كل أرض احتلتها القوات الإسرائيلية أصبحت أرضاً إسرائيلية ، بما فيها الضفة الشرقية لقناة السويس . وكانوا يتحدثون عن تحقيق مستقبلهم الكبير بأسلوب « سياسة الأجيال والمراحل » التى شرحها موشى ديان فى أكثر من مناسبة ، وهو القائل « كل جيل يخوض حربه الخاصة » وبذلك يحقق أهداف مرحلته التاريخية .

وكان يعتقد أن جيله حقق من خريطة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، الاستيلاء على سيناء حتى قناة السويس ، فى اتجاه النيل ، والاستيلاء على الجولان والضفة الغربية فى اتجاه الفرات . وكانوا يعتقدون أن أمريكا تضمن لهم تحقيق هذا الحلم . وكانوا فى الوقت نفسه يقدمون ضمانات لأمريكا أهمها .

- ألاّ تتورط أمريكا مع الاتحاد السوفييتى فى مواجهة .
- المحافظة على بقاء الحرب بين إسرائيل والعرب فى حدودها المحلية . وأن هذا الإطار المحلى يضمن انتصار إسرائيل على العرب فى أية حرب تنشب بينهما .

وفى مؤتمر لحزب مزراحى الذى يضم يهود أمريكا . وكان بمناسبة مرور ستين عاماً على إنشاء الحزب . صرح ديّان قائلا :

- « ليس هذا هو الوقت المناسب لإعلان قرار ضم الأراضى العربية المحتلة رسميًّا من الكنيست . إن خلق الحقائق أهم من إصدار قرارات شكلية . والاستيطان اليهودى فى هذه المناطق التى نحتفظ بها ونحكمها بالفعل أهم من إصدار بيانات رسمية عن ضم الأراضى » .

هكذا كانوا يتصورون المستقبل بعد حرب ١٩٦٧ .

وكانت صحف إسرائيل تفيض بالتعصب الاعمى ، فكنت تقرأ فيها مثل هذه

العبارات التى ننقلها كنموذج من صحيفة هايوم فى ٢٤ أبريل ١٩٦٩ :

« إن قلبنا يمتلئ بالفخر ونحن نلتفت وراءنا إلى الطريق الذى سلكناه ، فنجد أننا نزداد أمناً مع انتصاراتنا العسكرية ، وإن الحرب هى التى تجعلنا هادئين آمنين ولابد أن ننزل ضربة قاضية بمصر ، وأن نجعل من الحرب طريقنا إلى السلام » .

فهل هناك غطرسة أو غرور أكثر من هذا بشاعة ؟ ! أليس هذا هو الديناصور الإسرائيلى الجبار الذى لابد أن تقضى عليه حماقته فى مواجهة الرؤية الإنسانية السليمة ؟ !

لقد كان هذا الغرور الإسرائيلى ، يعميهم عن رؤية المستقبل ، وتصوره تصوراً سلبياً . لقد صرح أحد كبار العسكريين لصحيفة ها آرتس الإسرائيلية بأن إسرائيل سوف تنتصر فى أية حرب تخوضها ، ولن تحتاج إلى تدخل أمريكا المباشر إلاّ إذا حدث أمران :

أولهما : أن يستخدم العرب الأسلحة النووية ! !

ثانيهما : أن يرسل الاتحاد السوفييتى قوات تقليدية برية ضخمة للهجوم على إسرائيل ! !

لقد تعمدت أن أطيل فى نقل هذه التصورات الإسرائيلية ، لأنها تكشف لنا الآن مدى الخطأ الذى يقع فيه من يضع تصورات للمستقبل على غير أساس علمى سليم ، معتمداً على التعصب ، أو التخمين أو الرجم بالغيب .

فها نحن أولاء قد خضنا الحرب ، وحققنا فيها انتصاراً تحدث به العالم ، دون أن نلجأ إلى الأسلحة النووية ، ودون أن يرسل الاتحاد السوفييتى قوات تقليدية برية ضخمة ، ولا غير برية ، بل إن كل خبرائه كانوا قد غادروا مصر قبل الحرب .

واستطاع القائد المصرى ، والجندى المصرى ، أن يحققا إرادتهما وأن يعبرا ، وأن يضطرا إسرائيل إلى الاعتراف بمبدأ الانسحاب ، بل تنفيذه جزئيًّا ، استعداداً لتنفيذه شاملا كاملا ، بعد كل هذا الذى قالوه عن إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات .

ما الذى نتصوره بعد ذلك عن المستقبل .

إن المستقبل ليس كلاماً نظرياً يقال . . إنه مراجعة لتجارب الماضى ودراسة عاقلة حكيمة لما تراكم من خبرات ، تؤكد لنا أن الصراع طويل . وأن الهزائم نكسات عابرة ، نستطيع أن نعبرها بإيماننا بقضية التحرير ، التى هى بالنسبة لنا قضية حياة أوموت . وانتصارنا فيها محتم . وعلينا أن نعجل بهذا الانتصار ، فنحاصر كل القوى التى تعطله ، والطريق طويل وشاق ، ولكن حرية الشعوب وخلاصها من الاستعمار والاستغلال أمر حتمى ، بل تكاد تراه من خلال نظرة فاحصة شاملة للتاريخ .

سعيد سنبل

عملة . . اسمها الأمل





وفى أعقاب ٦ أكتوبر ، عاد الأمل إلى مصر .

الأمل فى حياة أفضل . .

الأمل فى مستقبل أكثر إشراقاً ، وأكثر لمعاناً . .

الأمل فى عودة الابتسامة إلى الشفاه التى تحملت مرارة الألم سنين طويلة . .

لقد كانت آلام الشعب المصرى عظيمة ، وكبيرة . .

وكاد شعب مصر فى ظل هزيمة ١٩٦٧ أن يفقد الأمل فى المستقبل ، ويقع فريسة لليأس . . والويل لشعب يقع فريسة لليأس ، ويفقد الأمل فى المستقبل !

وتكاثفت قوى عديدة من أجل تحطيم نفسية الشعب المصرى . . ومن أجل بث اليأس فى نفوس أبنائه . ولكن هذه المحاولات فشلت وتحطمت فى أعقاب معارك ٦ أكتوبر . لقد أثبتت هذه المعارك قدرة المصريين على التخطيط . . على التنفيذ . . على القتال . . على استخدام الأسلحة المتطورة الحديثة . . ومن ناحية أخرى كشفت هذه المعارك عن حقيقة العدو . . عدو يمكن قهره ، ويمكن إنزال الهزيمة به .

وتبدَّد الياس . . وعاد الأمل .

ومع عودة الأمل عاد التفكير فى المستقبل ، بعد أن كاد التفكير فيه يتوقّف و ينعدم !

وعادت الأسئلة تتردّد عن المستقبل ، وما يمكن أن يحقّق من أحلام عريضة واسعة لشعب عاش سنين طويلة فى ظل حرمان وتقشف !

لقد تسببت هزيمة ١٩٦٧ فى خلق وضع جديد فى مصر ، لا أعتقد أنّ هناك من كان يتصوّر قيامه . تسببت الهزيمة فى خنق الاقتصاد المصرى ، وفى توقّف نموّ الخدمات ، وفى انهيار المرافق العامة نتيجة العجز فى الإنفاق عليها وتجديدها . تسببت فى توقّف نموّ الصناعة ، بل فى تراجع بعض الصناعات ، وظهور طاقات عاطلة فيها ، نتيجة لعدم القدرة على تجديد المصانع ، ولنقص المواد الخام اللازمة لتشغيل الآلات .

وكانت كل هذه الأوضاع نتيجة طبيعية لهزيمة ١٩٦٧ .

لقد فقدت مصر سلاحها فى هذه الحرب ، وكان لا بد من تعويض هذا السلاح . . كان لا بد من إعداد جيش جديد قوىّ قادر على الحرب بالسلاح ، لا الحرب بالكلمات والتصريحات الخادعة المضلّلة . . . وبناء الجيوش الحديثة المزوّدة بالأسلحة المتطورة يحتاج إلى أموال بالقدر نفسه الذى يحتاج به إلى رجال . . يحتاج إلى مئات الملايين من الجنيهات . . بل يحتاج إلى آلاف الملايين .

وكان على مصر أن توفّر هذه الملايين . . أقصد ألوف الملايين . توفرها من غذائها ، ومن كسائها ، ومن خدماتها . وبالفعل فُرضت ضرائب جديدة على الشعب ، وتحمّلها الناس راضين غير معترضين . وانخفض معدل الإنفاق على التنمية . . كذلك انخفض الإنفاق على الخدمات . . كل هذا من أجل توفير الأموال للمعركة .

ومضت سنة وراء أخرى . .

وبدأت الجماهير تحسّ بقسوة الإعداد للمعركة .

إن الخدمات الرئيسية لا تتجدد ، ولا تتطور . حاجة الناس إلى الخدمات تتزايد ، وقدرة الخدمات على مواجهة احتياجات الجماهير تقف عاجزة ! ! المواصلات . . أصبحت مشكلة كل بيت ! مرافق المياه والكهرباء وصلت إلى

مستوى من التخلف لم يكن أحد يتصوره ! الدواء . . ساعة موجود ، وساعات عديدة غير متوافر !

والغذاء أيضاً . . لم يعد متوافراً كما كان من قبل . . وبدأت مدينة كالقاهرة ، تعتاد ظاهرة الطوابير التى تقف فى غير نظام أمام الجمعيات الاستهلاكية ، للحصول على السلع التى يفتقر إليها السوق .

وتحمل الناس كل هذه الأعباء التى فرضتها الهزيمة العسكرية . . تحمّلوها من أجل يوم ترتفع فيه الرءوس ، وتنفض الأكتاف عنها عار الهزيمة .

وجاء اليوم . .

٦ أكتوبر ١٩٧٣ . .

ارتفعت الرءوس من جديد . . وسقط العار . .

وبدأ الحديث عن المستقبل . . برغم أنّ الحرب لم تنته بعد ، وبرغم أنّ المعارك العسكرية قد تتجدد مرة أخرى .

ومن حقّ المصريين أن يتحدّثوا عن المستقبل . .

إنهم – بعد الفلسطينيين – تحمّلوا ما لم يتحمّله أى شعب عربىّ آخر على الأرض العربية . لقد ضحوا بكل ما يملكون . . لم يتاجروا بالكلمات . . لم يزايدوا بالشعارات . . إنما قدموا كل ما يملكون ، وأعزّ ما يملكون . .

قدّموا الأرواح ، والدماء ، والقوت اليومى .

صبروا . . احتملوا . . تعذّبوا . . وعاشوا فى ظل أقسى الظروف .

وشعب بَذَل كل هذه التضحيات ، من حقّه أن يتطلع إلى المستقبل .

وبدأت الأحلام الحلوة . .

وبدأ التفكير فى الرخاء ، بعد سنين طويلة من التقشف والحرمان .

ولكن . . كيف السبيل إلى الرخاء ؟ كيف الوصول إليه ؟

الانفتاح . .

الانفتاح . . هو السبيل إلى تحقيق كل الأحلام ، وتبديد كل المتاعب . وبدأت كلمة الانفتاح تتردّد على الألسنة . . إنها الكلمة الجديدة التى دخلت حياة

المصريين بعد معركة العبور العظيمة . . إنها الكلمة القادرة على حل كل المشاكل وتبديد كل الصعاب !

بعد الانفتاح . . ستتوافر المواد التموينية . . يتوافر الطعام . . يتوافر الكساء . . تنتهى أزمة المواصلات . . تخفّ حدة أزمة الإسكان . . تتوافر المقاعد فى المدارس والأسرّة فى المستشفيات .

كل المشاكل تنتهى ، وتتمزق بعد الانفتاح .

وكان حماس الجماهير للانفتاح أكثر من حقيقته . . وكان حديث المسئولين عن الانفتاح أكبر من حجمه . .

لقد كثر الحديث عن الانفتاح . . حديث بالكلمات . . لا بالأفعال .

والكلمات قد تتحول إلى أوهام . أما الأفعال فهى حقيقة !

وكانت مشكلة الانفتاح ، أنها تحتاج إلى عقول متفتحة لتحول هذا الشعار إلى حقيقة وواقع . .

ويجب أن نعترف أن العقول فى مصر أُصيبت بالانغلاق ، وقد انعكس هذا الانغلاق على تصرفاتنا وسياستنا فى الستينيات ، وبداية السبعينيات .

ومن أهم مظاهر الانغلاق ، ادعاء القوة والتقدم فى وقت يعانى فيه المجتمع الضعف والتخلف . وهذا ما حدث لنا فى مصر منذ بداية الستينيات .

بدأنا ندّعى القوة ، وندّعى التقدم ، ولا نسمح برأى يخالف هذا الرأى ، أو يعترض عليه !

وقامت مراكز قوى فى مصر ، استفادت من تلك الأوضاع ، واستغلتّها لحسابها . فرضت الإرهاب تحت شعارات الاشتراكية . . وأخفت انحرافاتها وجرائمها تحت شعارات الثورية !

وفى ظل هذه الأوضاع ينعدم الرأى ، وتتوقف المناقشات . .

وهذا ما حدث .

انعدمت الآراء ، وتوقفت المناقشات . . وانغلقت العقول !

كيف يكون شكل التنمية ؟

لا أحد يجيب . . كل العقول مغلقة تنتظر رأى القيادة العليا ، لتعيده ، وتردده ، وتدعو إليه !

كيف تكون الصناعة فى مصر ؟

الأفضل هو ما تراه القيادة العليا . . لا ما يراه خبراء الصناعة ! إذا رأت القيادة أن مستقبل مصر فى التصنيع الثقيل . . فليكن التصنيع الثقيل ، وعلى خبراء الصناعة أن يبرروا لماذا التصنيع الثقيل ! !

لا مناقشة ، ولا تبادل للرأى .

وفى ظل هذا الوضع ، تجمدت قضايا عديدة .

مثلا . . هل نحن فى حاجة إلى رأس مال أجنبي ؟ . . وكيف ؟

هل نحن فى حاجة إلى خبرة أجنبية ؟ . . وكيف ؟

لا أحد يناقش هذه القضايا ، أو يجرؤ على إثارتها ما دامت القيادة العليا لم تثرها ، أو تطلب مناقشتها .

لا أحد يملك القدرة على التصرف ، أو البتّ ، أو الحسم . .

وكان هذا بدوره مظهراً آخر من مظاهر الانغلاق فى مصر . .

وقد كان من المفروض فى أعقاب عملية التأميمات الكبرى التى تمت فى ١٩٦١ ، أن تكون هذه العملية بداية لانطلاق وبداية لبناء اقتصادى جديد . .

كان المفروض أن يكون هذا التاريخ بداية لعصر جديد فى حياة مصر الاقتصادية ، بعد أن أعيدت صياغة العلاقات الاجتماعية . . ولكن – للأسف – عجز التطور الاقتصادى عن ملاحقة التطور الاجتماعى . وبدلاً من أن يكون التأميم بداية للانطلاق ، تحول التاميم إلى قيود فرضتها العقليات القائمة على إدارة القطاع العام ، من أجل حماية أخطائها ، وحماية عجزها إزاء اتخاذ القرارات .

وظلت الأوضاع على ما هى عليه . .

وكان يمكن أن تستمر سنوات أطول ، لولا هزيمة ١٩٦٧ ، وما فرضته من ضرورة تغيير الكثير من الأوضاع .

وكان من بين الأوضاع التى يجب تغييرها ، الوضع الذى يزعم القوة والتقدم ، فى وقت يعانى فيه المجتمع الضعف والتخلف . وبالطبع . . لم يكن التغيير سريعاً أو سهلا . . لم يكن من السهل مثلا أن نعترف بحاجتنا – برغم حاجتنا – إلى الاستثمارات العربية والأجنبية ، بعد أن صورنا هذه الاستثمارات بالاستغلال والنصب !

ولم يكن سهلا أن نعترف بحاجتنا إلى الخبرة الاجنبية بعد أن صورنا للعالم أننا قادرون على إنتاج الإبرة والصاروخ !

وبدأنا – فى أعقاب الهزيمة – نتلمس الطريق إلى هذه الأوضاع الجديدة ، بحياء وبحذر وسط استنكار المتاجرين بشعارات الاشتراكية . .

ولم يكن سهلا أن تأخذ الدعوة فى بداية الأمر شكلها الواضح ، وإلاّ اتهمت بأنها من صنع الرجعية والإمبريالية ! لذلك بدأت الدعوة إلى « الانفتاح » تحت اسم التيسير الاقتصادى . . واستمر استخدام هذا التعبير من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٧٣ ، عندما ارتفع شعار الانفتاح واضحاً صريحاً .

وقد لاقت الدعوة إلى الانفتاح استجابة شعبية على أمل أن تؤدى سياسة الانفتاح إلى التخلص من المشاكل والمتاعب . . والتخلص من الحرمان الطويل . . وإن كان البعض – وهم قلة معظمها يعيش خارج مصر – زعم أن الانفتاح هو الارتداد عن الاشتراكية . . وهم بهذا يسيئون إلى الاشتراكية ويصورونها بالحرمان والانغلاق والجوع ! !

وسياسة الانفتاح هى العودة إلى التعايش مع العالم الخارجى . . هى العودة إلى فتح الأبواب والنوافذ المغلقة ، والاحتكاك بالفكر الذى يعيش وراء هذه الأبواب والنوافذ . . هى السماح لرأس المال الأجنبى بالعودة إلى العمل فى مصر بعيداً عن الاستغلال والخوف فى نفس الوقت .

ومثل هذا الأمر لا يتحقق بين يوم وليلة . . يحتاج إلى وقت ، والأهم من الوقت أنه يحتاج إلى عقول متفتحة . وقد كان من الضرورى ، ونحن ندعو إلى سياسة الانفتاح أن نوضح هذه الحقيقة ، وأن نؤكدها ، حتى لا يتحول الانفتاح

إلى شعار زائف من الشعارات التى يجيد البعض ترديدها . .

وكما قلت فإن حماس الجماهير للانفتاح كان أكبر من واقع الانفتاح . . وهذا حق للجماهير . . وفى نفس الوقت كان حديث المسئولين عن الانفتاح أكثر وأكبر من حجمة وواقعة . . وهذا خطأ .

الواجب ألاّ نغرق الجماهير فى الأمل . . وإلا تحول الأمل إلى وهم . . وإلى سراب !

إن تحقيق سياسة الانفتاح تحتاج إلى أمور كثيرة . .

تحتاج أولا وقبل كل شيء إلى عقول متفتحة مؤمنة بما تفعله ، وقد عشنا سنين طويلة وعقولنا مغلقة . . لذلك لن يكون سهلا علينا أن نتغير فى يوم وليلة .

إننى أتصور مرحلة انتقال . . ستة أشهر . . سنة . . أو سنتين . . تنتقل فيها العقول من حالة الانغلاق إلى حالة الانفتاح . بعدها تبدأ القدرة على حل المشاكل ، وتبدأ القدرة على التخلص من الأزمات والاختناقات . . وتبدأ القدرة على العودة إلى الحياة الطبيعية . . والانطلاق بعد ذلك إلى تحقيق الأمل فى المستقبل .

إننى متفائل . . لأننا نملك عملة جديدة اسمها الأمل .



إبراهيم نافع

الكعكة لا بد من زيادة حجمها



سئلتُ كثيراً فى الفترة الأخيرة : ما هو موقف الاقتصاد المصرى ؟ والإجابة عن هذا السؤال فى حدّ ذاتها عسيرة ؛ فليس من الممكن بطبيعة الحال القول فى كلمات مقتضبة إن الموقف الاقتصادى طيِّب . . أو إن الموقف الاقتصادى سيئ . . فكلا الردَّيْنِ لهما ما يفسّرهما . . والحديث فيهما يحتاج إلى جلسات للشرح ، ولا يمكن أن توفيهما حقّهما جلسة ليل .

إن الاقتصاد المصرى مرّ بمراحل عدّة ، ظهر فى بعضها عناصر قوة كبيرة ، وظهر فى بعضها الآخر ملامح التعب والإرهاق . فإذا كان الاقتصاد المصرى قد بدأ فى الخمسينيات يخطو خطوات التمصير ووجود الذات ، فإنه قد بدأ فى أواخر الخمسينيات ينفّذ أول خطة صناعية ، ثم بدأ فى أول الستينيات ينفّذ أول خطة خمسية كاملة فى مصر كانت نتيجتها – بحق – عظيمة ، إذ زاد معدَّل التنمية حوالى ٦ $\frac{٣}{٤}$ ٪ فى المتوسط ، وذلك بالرغم من أن هذه الخطة قد واجهت عقبات كبيرة سواء فى اختيار بعض المشروعات أو عدم التوازن فى تكامل القطاعات من جهة ، وبحرب اليمن من جهة أخرى ؛ وكانت النتيجة الحتمية ظهور عوامل التضخم التى بدأت تضغط بشدة على الموقف الاقتصادى فى مصر ، وكان من

نتيجته أيضا اللجوء إلى سياسة الانكماش فى عامى ٦٥ و ١٩٦٦ .

وجاء عام ١٩٦٧ بالهزيمة العسكرية التى تركت بصماتها المركزة على الاقتصاد المصرى :

- إغلاق قناة السويس وفقدان حصيلتها بالعملات الأجنبية .
- فقدان الموارد الاقتصادية لمنطقة من أغنى مناطق مصر الصناعية والزراعية والملاحية فى بورسعيد والسويس والإسماعيلية .
- تهجير أكثر من مليون مواطن إلى قرى مصر والأعباء الاجتماعية التى كان على الحكومة مواجهتها .
- إنفاق عسكرى لإعادة بناء جيش بأكمله .

كان نتيجة ذلك باختصار :

١ - خفض الاستثمارات لمشروعات التنمية ، وبالتالى انخفاض الزيادة فى معدل التنمية حتى أصبحت بالكاد توازى الزيادة فى السكان أو عدد البشر الذى يزيد كل عام .

٢ - التضحية ببعض المرافق الأساسية كالطرق والمجارى والمياه والتليفونات وبعض الخدمات الأخرى .

٣ - أصبحت بعض القطاعات فى الدولة لا تعمل بكامل طاقاتها وبخاصة فى الصناعة التى وصلت الطاقات العاطلة فيها إلى ٣٠٪ ، وكذلك الزراعة وقطاع الأدوية .

ومع ذلك ، وبكل هذه الظروف ، وبالإضافة إلى أخطاء كثيرة أخرى يمكن اعتبارها كمعاول هدم كبيرة فى الاقتصاد المصرى ليس هنا مجال تحليلها - أمكن أن يثبت الاقتصاد المصرى ، وأن يوفّر إنتاجاً صناعيًّا وزراعيًّا ما كنا نقدر على استيراده من الخارج مهما كانت الظروف .

وجاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وكان فى حساباتها الموقف الاقتصادى

الصعب الذى كان ينتظر مصر فى عام ١٩٧٤ ، فى نواحى النقد الأجنبى والنقد المحلى أيضاً .

وفى أول أسبوع لحرب أكتوبر تولّت دول البترول العربية تمويل ميزانية النقد الأجنبي المصرى بما قيمته ٥٠٠ مليون دولار ، ساعدت على تمويل بعض النفقات العسكرية ، ووفّرت فى الوقت نفسه بعض الأرصدة التى يحتاج إليها استيراد بعض السلع الضرورية الأخرى .

وبعد انتصارات أكتوبر ووجهت الحكومة بمتغيرات رئيسية داخل مصر وفى المنطقة العربية وفى العالم الخارجى .

داخل مصر

– الانتصار العسكرى على إسرائيل فى حرب أكتوبر لا يعتبر حلًّا نهائيًّا فما زال العدوّ يحتلّ أراضى مصرية من ناحية ؛ كما أنه لا يعتبر حلًّا نهائيًّا للقضية الفلسطينية ، وبالتالى فإن الاستعداد العسكرى لا بد ان يستمر . وبأقصى طاقة . وبالتالى أيضاً فإن الإنفاق العسكرى كما هو عليه وزيادة .

– اعتبار منطقة القناة من العمق المصرى ، ولذلك فلا بد من البدء فى عمليات التعمير . . وبالتالى إعادة أهالى المنطقة إلى مدنهم . . كما أن عودة الأهالى إلى المنطقة يحتاج إلى تشغيلهم للاستفادة من الإنتاج فى هذه المنطقة . . ذلك أيضاً يحتاج إلى اعتمادات أقلها المائة مليون جنيه التى اعتمدت للتعمير .

– إن تدهور بعض المرافق والخدمات الأساسية التى ذكرناها قد ظهر بصورة واضحة ، فى الوقت الذى وصل صبر الناس فيه إلى درجة التشبع .

– إن ارتفاع أسعار البترول ٤ مرات ، والتضخم الاقتصادى فى دول العالم الغربى ، قد أثرا فى الأسعار العالمية فى جميع السلع التى تستوردها مصر تقريباً . ومصر حتى الآن لا تعتبر دولة بترولية ، فلم تستفد من ارتفاع الأسعار بصورة مباشرة من جهة ، وتأثرت بارتفاع أسعار السلع الأخرى من جهة أخرى . فارتفعت قيمة وارداتها فى العام الحالى إلى ١٢٠٠ مليون جنيه فى الوقت الذى وصلت قيمة صادراتها

إلى ٦٠٠ مليون جنيه ، أى بعجز فى الميزان التجارى يبلغ ٦٠٠ مليون جنيه ، مما يشكل عبئاً ماليًّا سواء عن طريق القروض أو التسهيلات الائتمانية من العالم الخارجى التى تدفع منها مصر أقساطاً سنوية بالإضافة إلى الفوائد .

فى المنطقة العربية

إن القرار الكبير باستخدام سلاح البترول فى المعركة العربية ، بوقف توريده عن بعض الدول ، ثم الزيادات المتتالية فى أسعاره ، قد خلق مورداً هائلا من العملات الحرة لدى الدول العربية المنتجة للبترول . وهذا العائد يكفى الاحتياجات الداخلية للدول المنتجة ، سواء فى عمليات التعمير أو التنمية ، كما يكفى لتكوين احتياطيات هائلة للسنوات المقبلة . وإن ما نخشاه هو أن الفائض بعد ذلك سيكون حتماً عبئاً على هذه الدول . ولا نقول فقط إن هذا الفائض يمكن استيعابه فى مصر ذات الإمكانيات الاقتصادية الكبيرة والإمكانيات البشرية الهائلة ، وإنما نقول إنه يمكن استخدامه فى المنطقة العربية جميعها ، ففيها الأراضى الزراعية غير المستخدمة ، وبها يمكن إقامة الصناعات الهائلة المتكاملة . وهذه تغير التنمية العربية وتفيد الشعب العربى بصفة عامة ، سواء فى اليمنين أو فى سوريا أو فى السودان أو فى مصر . كما أنها تخلق عائداً ثابتاً للدول المنتجة للبترول ينفعها إذا ما نضب الخام الموجود فى الأرض .

فى العالم الخارجى

ظهرت بعد حرب أكتوبر القدرة الاقتصادية الجديدة للعالم العربى ، بما يملك من سلاح البترول من جهة ، وبما يمتلكه من عوائد البترول الضخمة من جهة أخرى . كما أن حرب أكتوبر أظهرت أيضاً الدور الرئيسى لمصر فى المنطقة العربية ، وأنه يمكن عن طريق التعامل معها الوصول إلى الدول العربية الأخرى .

وصحيح أن العالم الغربى لن يهدأ حتى يجد حلا لاستقطاب الموارد التى حصلت عليها دول البترول ، أو لإيجاد بعض الحلول أو القيود على الثروات العربية التى

تتحرك من بنك إلى بنك أو من دولة إلى دولة وراء فائدة أكبر . كما أنه صحيح أيضاً أن هذه الدول رفعت أسعار منتجاتها .

أين نحن الآن ؟

١ – أمامنا جميع المشاكل الداخلية التى ذكرناها .
٢ – وأمامنا المتغيرات فى المنطقة العربية وفى العالم الخارجى .

ومن أين نبدأ ؟

هناك مشروعات قطعت شوطاً كبيراً فى التنفيذ لا بدّ من استكمالها وتشغيلها ، للاستفادة بالأموال التى صرفت عليها ، وهناك مشروعات التعمير ، وهناك الطاقات العاطلة التى يمكن بإعادة تشغيلها إضافة بضع مئات من ملايين الجنيهات . لذلك تم التفكير فى إعداد خطة انتقالية تنتهى فى آخر عام ١٩٧٥ للانتهاء من تحقيق هذه الأهداف عبوراً إلى خطة شاملة جديدة تعيد إلى مصر شبابها .

ما هو المستقبل ؟

أفكر فى مستقبل الاقتصاد المصرى بعد حرب أكتوبر من الموقف الصعب وليس من الموقف الوردى ، من موقف العمل وليس من موقف اللامبالاة .
ستبدأ مصر فى عام ١٩٧٥ ، وقيمة الواردات التى تحتاج إليها للسلع التموينية الضرورية وللمواد الخام اللازمة لتشغيل الطاقات والآلات للمشروعات الجديدة تبلغ ١٨٤٢ مليون جنيه ، وقيمة حصيلة الصادرات المصرية ٦٤٢ مليون جنيه ، أى بعجز فى الميزان التجارى يبلغ ١٢٠٠ مليون جنيه ، رقم ضخم . . يحتاج إلى مجهود أضخم .

هل هو مستحيل ؟

الرد بدون تردد : لا .

وهذه هي الحقائق :

- إن الانتصار العسكرى فى أكتوبر عامل اقتصادى حاسم . وإنه إذا تم الوصول إلى حل نهائى فى جنيف ، كان معنى ذلك إعادة فتح قناة السويس ومواردها لن تقل بأى حال من الأحوال عن ٢٥٠ مليون جنيه عملة صعبة .
- إن خفض الإنفاق العسكرى سيؤثر ولا شك ، بالرغم من أن مصر لا بد أن تحتفظ بجيش قوى على أعلى مستوى تكنولوجى حمايةً لأمنها واقتصادها القومى .
- هناك خط الأنابيب الذى يجرى تنفيذه وموارده مضمونة .
- إن الزيادة فى الإنتاج التى ستحققها إعادة تشغيل الطاقات العاطلة ستمكّننا من أن نصدّر جزءا منها ، ولا سيما أن قيمة هذا الإنتاج تصل إلى حوالى ٦٠٠ مليون جنيه .
- إن مصر لم تحصل بعد على نصيبها من السياحة الدولية . وذلك يرجع إلى حالة الخوف السائدة قبل حرب أكتوبر من جهة ، وعدم استعداد فنادقنا من جهة أخرى . وإن عودة الاطمئنان إلى مصر ، وسياستها الثابتة ، مع الاهتمام باقتصاديات السياحة ، وزيادة الفنادق التى بدئ فى إنشائها ، ستزيد من دخل السياحة .
- إن البترول موجود فى مصر ، والدلائل مشجعة ، وإن بعض الحقول الغنية التى قد تكتشف يمكن أن تقلب الصورة تماماً .
- الاستفادة من القروض المتاحة ، وبخاصة تلك التى تمّ الاتفاق عليها بعد حرب أكتوبر ، يمكن أن تعطى نتائجها سريعاً ، كما أن المعونات والتسهيلات ذات الشروط السهلة التى بدأت تظهر فى الأفق ، أو تصل بالفعل ، ستسهل بعض الصعوبات .
- إنه مع الاستفادة بما ذكرناه من متغيرات إقليمية ودولية ، سيمكن ضمان تدفق بعض الأموال العربية إلى مصر ، وضمان الخبرة الفنية والتكنولوجيا

الحديثة من العالم الخارجى . وذلك بطبيعة الحال يحتاج إلى خطة واضحة يظهر فيها : المشروعات المحددة التى ستقوم بتنفيذها الحكومة والقطاع العام ، أو المشروعات المشتركة بين القطاع العام والمستثمر الأجنبى ، أو القطاع العام والقطاع الخاص المصرى ، أو القطاع الخاص المصرى وحده ، أو القطاع الخاص المصرى مع القطاع الخاص الأجنبى .

بذلك يبدأ العمل فى جميع القطاعات ، وتبدأ انطلاقة اقتصادية اجتماعية لا مكان فيها لمتفرج أو لمصفق ، فالازدهار لا يأتى طواعية لشعب شاكٍ أو باكٍ ، وإنما يأتى عن عمل طويل شاق متواصل يؤتى ثماره لشعب بأكمله . فالموارد الإضافية هى وحدها التى يمكن إعادة توزيعها كأجور ، أو فى إنشاء مشروعات جديدة تضيف عمالة جديدة ، أو يمكن عن طريقها تحسين الخدمات . وإلا فستكون النتيجة بصفة عامة أصغر من توزيعها على مجموعة أكبر .

الدكتورة طلعت الرفاعى

سيأتى النُّور





أقولُ لكلِّ مَن هاموا
بحبِّ الأرضِ والجَدولْ
أليس العارُ
فى دارى . . بنار الغدر
أن أُقتَلْ
وما ذنبى سوى أنى
بجَمْر كرامتى أُشعَلْ . .
أقولُ لكلِّ من عَبَدوا
أجيجَ ترابِهم قَبلِى
أقول لكل من سَكِروا
بعِطرِ نسيمِهم مِثْلى
أقول لكلِّ من عَشِقوا
جمالَ الحق والثوره . .
أيا ثُوَّارَ كلِّ الأرض

يا مَن فى ضمائرهم
عذابُ الأرض والإنسان
يا من يشعلون دمَاءَهم من أجل
مَحْوِ شقاء هذى الأرض والإنسان
أقول لهم . .
أنى العُدوان
يزحفُ فى رُبَى وطنى
أنى يَغتالُ
فيه الأرض والإنسان . . !

* * *

أقول لكلٍّ من نُكِبتْ . .
لكُلِّ صَبيّةٍ أكلتْ
ضباعُ الحربِ فارسَها . .
لكلِّ فتًى على عينْيهِ
طيفٌ من حبيبتهِ التى غرِقتْ
بنار الحرب
لكلِّ أب
فقيدُ حياتهِ ولَّى
فأصبحَ حُرقةً
فى قاع قاع العين
لم تَدمعْ
أقول لكل والدةٍ
فتاها راح لم يَرجعْ
أقول لهم . . .

سيأتى النُّور : .
يَغمُرُ بالسلام الأرض
يُزهِقُ عَتمةَ الباطل
بصفعَةِ شمس . .
أقول لكل مَن هاموا
بفجرٍ راحُه الصَّحوهْ
بطولةُ شعبِنا صَرعتْ
وحوشَ شراهةِ القَسوهْ
بطولةُ شعبِنا نَفَضَت
عِظام الأرض
فانتفضَتْ براكينا
يُدوِّى جمرُها بالرعْد
إن الحقَّ مِدفعُنا
وإن الحقَّ صارينا
فيانيران كونينا . .
سَقينا من دِمانا الشمس
فوق رمالِنا السّمراءِ
نشتعلُ . .
فتَشتعِلُ الرمالُ بنا
أما أبصرتَ فى سيناء
لوحاتٍ تُضىء بها
دِماءُ الشّمس
نحن بها دِماء الشمس
تَشرَبنا الرمال . .
فنرتوى . .

نحيا . .
نصير بها بَساتينا
وأنهاراً تُغنِّى
تحت ضوء الشمس
إن الحقَّ شريانُ السلام
ونحن نَبْض الحق
فى شِريانِه دمنا
يدقُّ ملاحِمَ الثوره
كذلك نحن نَجرِى اليوم
أنهاراً . .
ونَزرعُ فى حقول اللَّيْلِ
أقماراً . .
لأهْل الأرض . .

* * *

أقول لكل من نَصَبوا
جسوراً عظمها التحرير
رفعنا من جماجمنا
قلاعاً صخرُها العِزَّه
وكناها بمرتفعاتنا الشَّماء
كنّاها صواعق
لا تَملُّ اللهْو . .
فى غابٍ يُسَمَّى الموت
كنّاها . .
على هضباتِنا
أسطورةً لبطولةٍ وَعْره

تلوَّى الغَدْرُ فيها
ضربةً مُرَّه
وذاق القهرُ
جائزة على العُدوان
فوق مَنابِرِ التاريخ
فى الجُولان . .

* * *

أقول لكل مَن حَسبوا
قصيدةَ حُبِّنا نَزْوَه
ومن فَتَحوا لوحدتنا
بكل خَميلةٍ هُوَّه
أقول لهم :
قصيدةُ حبِّنا أَلَقُ
ونَبْع النبع لا يَرْقَى
إليه الحِبْر والورقُ
قصيدة حُبِّنا سِفْرٌ
بعُمق العمق مخْتَرِقُ
قصيدةُ حبنا أزلٌ
مَداه الضوء والعبَقُ
حقيقة حبنا قدَرٌ
بجذر الجِذر ملتصِقُ
دمٌ غَنَّى بنبض دمٍ
على الساحات مُعْتَنِقُ
عِناقٌ صاغَهُ عَلَمٌ
على الهامات منعتِقُ

أقول لهم ؟ . . .
بلمْح البرق كُنّاها
بأروعِ ما يكونُ الكَوْن
كناهَا . .
بكل هديرِ هذا الكونِ
كناها . .
بِمَدٍّ موجُه مائةٌ
من المليون كُناها . .
إرادة قلب . . !

* * *

لجمْنا فى بُطونِ الأرض
ماردَنا . .
إلهَ النارِ والبَركه . . .
فشبَّ القرُّ
وانتصبتْ جِبالٌ
من صَقيعِ المَوت
وانشلَّتْ ليالٍ
كان فيها الضوء
يَرقُص يملأ الدنيا مزاميرا
وسوّدنا نهاراتٍ
بومضة ريشةٍ منا
أحلْناها دياجيرا
على أشلائها تَركهْ
لبعضِ مَفاصل الحركهْ . .

* * *

نثَرنا الذُّعر . .
رُحنا من كُوانا الحُمْر
نَرقبُ مَرقصَ الأعداء
أحجاراً من الشّطرنج
تَركُض ها هنا وهناك
تَلهَث تحت وطءِ الرُّزْء
تجرِى فى خُطَى الأشباح
خلْف سَراب حفنة دِفء . . !

* * *

أقول لأصدقاء الحقّ
والحُريةِ النضرهْ
أقول لكل مَن وَقفوا
بحالِك لَيلِنا معَنا
عرفناكُم وعِشنا وهج ثَوْرتكم
وأسْكرَنا رحيقُ النّصر
تُزكيه بسالتُكم
لكم منا بأكتوبر
تحياتُ النّضال بعيد ثورتِكم
بعيد لقائنا الأكبر
مع التحرير
فى سيناء والجولان
أقول لهم . . .
نحيّيكم
ونُهديكم وُروداً
من حدائق نارِنا العَطِرة

مُضمَّخةً
بعطر الشمس
أنتم يا رفاقُ الشمس
أنتم يا أحباء
السلام
ويا بناةَ حضارةِ الثورهْ . .

محمود عوض

جيل سيئ السمعة !





كان الرومان يقولون منذ ٢٣٠٠ سنة : من حق كل إنسان أن يجنّ مرة !

وإذا مارست بدورى هذا الحق الآن فإنه يجب أن أقول عن الجيل الذى أنتمى إليه . إنه جيل سيئ السمعة . كنا كذلك قبل حرب أكتوبر . ويجب أن نظل كذلك بعدها .

لقد رضعنا فى صبانا المبكر شعارات كثيرة ، وقرأنا إشارات مرور كثيرة ، تحدد لنا مقدماً الطريق الذى يجب أن نسلكه من أجل أن نصبح فى النهاية مواطنين صالحين فى هذا البلد ، وهذه الأمة . إنهم حددوا لنا مقدمًا نوع « الطبخة » التى يجب أن تتكون منها عواطفنا ، ومقاس القالب الذى يجب أن نضبط عليه تصرفاتنا ، وطبيعة المواصفات التى يجب أن تكون عليها أفعالنا لكى نحصل من المجتمع بعد ذلك على شهادة بحسن السير والسلوك . مواصفات تقول لنا إن المواطن الصالح هو الشخص الذى لا ينقد أبداً ، وإنما يوافق دائماً . لا يبادر أبداً ، وإنما يتبع دائماً . لا يسأل أبداً ، وإنما يطيع دائماً . لا يجازف أبداً ، بل يحتاط دائماً . لا يتفوق أبدًا ، بل يتوسط دائمًا . لا يتطرف أبدًا ، بل يعتدل دائمًا . لا يغامر أبدًا ، ولكنه يبحث عن راحة البال دائماً .

إن صبانا المبكر ، فى هذا الجيل ، هو تسجيل حى لهذه المواصفات التى كنا نتنفسها فى كل ثانية مع كل نسمة فى الهواء ، وكل كلمة فى الصحف ، وكل تعليق فى الإذاعة ، وكل صورة فى التليفزيون .

كانت مشكلتنا هى الحرية . حرية أن نقول « لا » ، وحرية أن نرفض مبدئيًّا التنازل عن هذه الحرية مقابل أى « علف » يقدمه المجتمع لنا . إن المجتمع ظل يعلمنا سنوات طويلة أن الخبز أهم من الحرية . . والطاعة أهم من التمرد . . والتصفيق أهم من التفكير . وحينما تمرّد جيلنا كله على هذه الشعارات ، بعد هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ ، بدأ الأكبر سنًّا منا -- الأكبر سنًّا وسلطة – ينظر من قمة الهرم إلينا نحن الواقفين فى السفح . إنه ينظر إلينا ، ويمصمص شفتيه مشمئزًّا ومعترضاً ومندهشاً فى النهاية . هؤلاء الشباب مشاغبون . ما الذى يريدونه من هذا البلد ؟ ألم نضمن لهم التعليم المجانى ؟ ألم نضمن لهم وظائف فى الحكومة كل سنة ؟ ألم نشتر لهم مائة أوتوبيس فى العام الماضى ؟ ألم نقرر لهم عشرين جنيهاً يصرفونها كل شهر بغير أن يستحقوها ؟

نعم ، كل هذا حدث . . وأكثر .

ولكن المشكلة كانت دائماً هى أننا نفكر فى أشياء لم تكن مهمة عندهم بالأمس !

لم يكن السؤال هو : هل يصمد بلدنا أو لا ؟ طبعاً سوف يصمد . ولم يكن السؤال هو : هل تاريخنا مستمر فى التراكم أو لا ؟ طبعاً مستمر . ولم يكن السؤال يتعلق بما إذا كان بلدنا يعيش أم لا . إنه يعيش .

ولكن السؤال كان هو : كيف يعيش بلدنا ؟ هل يعيش باعتباره جزءاً من القرن العشرين ، أو باعتباره عقبة فى طريقه ؟ قبل أن نفكر فى أين وماذا ومتى ولماذا . . يجب أن نفكر ، ونطيل التفكير فى : كيف ؟ إن كل إنسان يستطيع أن يكون غنيًّا . . بالتهريب أو بالسرقة أو بالنصب أو بالاحتيال ، أو بالكفاية . إن ثروته لا معنى لها قبل أن نعرف أولا : كيف حققها ؟ من هنا فقط نستطيع أن نرى ثروته باعتبارها قيمة مضافة إليه أو مخصومة منه .

ولقد حدث مرة أن كتبت فى جريدة « أخبار اليوم » سلسلة بعنوان « محاولة لفهم الجيل الجديد » . . ونشرت الحلقة الأولى منها فى عدد ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٨ . وفى تلك السلسة كتبت أقول :

« لقد تراكمت عدة اتهامات ينسبها الجيل القديم إلى الجيل الجديد ، كان من نتيجتها أن أصبح الجيل الجديد جيلا سيئ السمعة ! هل أقول الحق ؟ إن معظم الاتهامات الموجهة إلى الجيل الجديد – وأنا منه على أى حال – هى اتهامات صحيحة ! وربما يحتاج الجهر بهذه الحقيقة إلى أن يجنّ الإنسان مرة . . كما كان يحق للرومان القدماء . ولكن الأمل يبقى هو العزاء الوحيد . الأمل فى أن إنساناً ما . . شخصاً ما . . سوف يعود إلى هذه الحقيقة بعد سنوات قادمة ويقول : فعلا . . كان هذا الرجل عاقلا منذ عشرين سنة » !

إن الرقيب الحكومى على الجريدة بدأ يقرأ البروفات قبل النشر ، بأصبع على شفتيه ، متردداً من البداية فى الموافقة أو الاعتراض على نشر السلسة . إنها صحافة مصر قبل العبور

ثم استمر الرقيب يواصل قراءة ما كتبت فى الحلقة الأولى . . إلى أن وصل إلى فقرة قرأها بصوت مرتفع ، كما لو أنه اكتشف قنبلة زمنية تحت كرسيه . فى الفقرة كنت أقول : « إن الحكومة تريدنا – نحن الجيل الجديد – أن نصبح كالمساكن الشعبية التى تبنيها : متشابهين فى كل شىء ، منظمين فى كل شىء ، متوسطين فى الارتفاع ، متساوين فى الحجم . هذه هى الصورة المؤلمة . . . إن كل ما تريده لنا الحكومة هو أن نسجل حياتنا يوماً بعد يوم . سنة بعد سنة ، صمتاً بعد صمت . نوماً بعد نوم ، تكراراً بعد تكرار . إن المجتمع قد يتصور أننا أصبحنا كذلك فعلا بحكم الرغبة ، ولكن هذا هو الخطأ الفادح . إن كل الاتهامات ضدنا صحيحة . . ولكن . . لا تجعلونا كبش فداء لخطايا المجتمع . . هو الذى ولدنا . هو الذى أنشأنا . هو الذى يجب أن يقف فى قفص الاتهام » .

هنا بدأ تململ الرقيب يصبح اعتراضاً ، والاعتراض يصبح تأشيرة حمراء . لقد اعترض على الفقرة كلها . وبعد مناقشة اعترض على نصفها . وبعد مناقشتين

اعترض على سطر واحد فيها .

لم يكن هذا هو المهم . ولكن المهم هو أنه فى اليوم التالى شاءت الظروف أن تقع مظاهرات الطلبة الشهيرة فى فبراير سنة ١٩٦٨ . كانت المناسبة الظاهرة للمظاهرات هى الأحكام التى صدرت ضد قادة سلاح الطيران بسبب هزيمة يونيو . ولكن التطورات سرعان ما كشفت بعد ذلك عن الأسباب الأخرى ، الأعمق ، لتلك المظاهرات . أسباب تتعلق بأسلوب كامل فى التربية ، والتعامل ، والحكم . . كان الشباب هم أكثر ضحاياه ، وهم الآن أكثر المتمردين عليه . إنهم متمردون ضد السلطة والمجتمع كله ، الذى أصبح الآن فى قفص الاتهام .

وفجأة أصبح الجو السياسى كله مشحوناً بالكهرباء . . وأصبحت تلك الكهرباء واضحة فى التشدد المفاجئ من الرقابة على الصحف . إن الرقيب الذى كان يتناقش معى فى الأسبوع الماضى ، أصبح معترضاً على أى مناقشة فى هذا الأسبوع . وبدلا من أن يشطب سطرين أو فقرتين ، شطب فى هذه المرة الحلقة الثانية بأكملها . إنها حلقة كنت أناقش فيها أسباب الفجوة بين الشباب والمجتمع . . ولكن الرقيب كان يراها باعتبارها « مذكرة تفسيرية » لما جرى من مظاهرات . . .

– هل ترانى أحرص على مزيد من المظاهرات ؟

– لا .

– ألم توجد هذه الحلقات لديك من قبل المظاهرات ؟

– نعم .

– إذن ، لماذا تعترض على حلقة بأكملها ؟

– لأن الجو الآن مشحون بالكهرباء .

– ولكن ، لماذا هو أصلا مشحون بالكهرباء ؟

– لأن الشباب يتظاهرون فى الشوارع .

– ولكن ، لماذا يتظاهر الشباب ؟

– لا أعرف .

– إذن ، ماذا تعرف ؟

– أعرف فقط أن لدى تعليمات ، ويجب أن أنفذها . . مفهوم ؟

طبعاً مفهوم . إن المفهوم هو أن إخفاء ما يجرى أحسن علاج له . ليس المطلوب هو تشخيص المرض ، أو علاجه ، ولكن المطلوب هو التظاهر بعدم وجوده . . وهذا هو أساس المشكلة بيننا وبين المجتمع كله . إن أحدًا لا يريد أن يعرف ، أو يتظاهر بأنه لا يعرف . إن لهم عيوناً ولكنهم لا يرون . . وإن لهم آذاناً ولكنهم لا يسمعون .

لقد كانت تنطبق على جيلنا تماماً كلمات الزنجى الأمريكى فى الرواية التى كتبها « رالف إليسون » سنة ١٩٥٣ . كلمات قالها وهو يصرخ : « أنا رجل خفىّ . . إن الناس يرفضون أن يشاهدونى . . إننى متألم من حاجتك إلى إقناع نفسك بأننى موجود فى الدنيا الحقيقية ، وأننىَ جزء من كل الضجة والقلق . إننى ألعن ، وأشتم ، وأقسم أن أجعلهم يعترفون بى . . إنك معترض على تصرفى هذا ، وتعتبره تصرف إنسان غير مسئول . إن الحق معك . . ولكن ، لمن أستطيع أن أكون مسئولا ، ولماذا يجب أن أكون مسئولا ، وأنت ترفض رؤيتى ؟ » .

نعم ، كان المجتمع يرفض رؤية جيل بأكمله . يرفض مناقشته أو الاعتراف به أو حتى بمجرد الاستماع إليه .

وتلك كانت مشكلة السنوات العشرين الأخيرة . إنها مشكلة من عشرين مشكلة خلقها الخلل السياسى الذى تسمّم به المجتمع المصرى قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧ بسنوات طويلة . خلل اصطلحنا على تسميته مؤخرًا بـ « مراكز القوى » .

لقد كنا نحن ، الجيل الشاب فى هذه الأمه ، وقود هذه الثورة . . بدل أن نكون جنودها . إن جيلنا ولد لكى يفتح عينيه على شعارات مثل « ارفع رأسك يا أخى . . فقد مضى عهد الاستعباد » . . فالثورة تلقفتنا وعمرنا أقل من العاشرة . إن أناساً هذه مواصفاتهم لا يمكن اتهامهم بأنهم يدافعون عن جذورهم قبل الثورة . لم يكن لنا جذور . ولا يمكن اتهامهم بأنهم يريدون العودة إلى الوراء . لم يكن خلفنا وراء . ولا يمكن أيضاً اتهامهم بالتآمر . لم يكن بيننا متآمر . لم يكن خلفنا هدف نسعى إليه . . والهدف الوحيد المتاح لنا هو التقدم إلى الأمام . التقدم ببلدنا ، وبأنفسنا .

لقد تلقفتنا الثورة ونحن جيل ملىء بالتحدى الطازج للحياة . جيل مشحون

بالمرح والصحة واللهفة والشوق والأمل والحيوية . لم تكن فى صوتنا نبرة يأس ، ولا فى تفكيرنا آثار هزيمة . ولا فى شخصياتنا علامة حزن ، ولا فى حياتنا معركة خاسرة . إن المعارك الخاسرة بدأها وخاضها غيرنا . وبالرغم من أننا فى النهاية دفعنا جزءاً من الثمن . . فإننا لم نتورط مطلقاً فى واحدة منها .

ثم . . بدأنا نشم رائحة الفساد . بدأنا نشم الرائحة ، بغير أن ندرك بالضبط أين مصدرها ؟ . . ولماذا السكوت على أسبابها ؟ فى تلك الأيام كان التمرد شيئاً مفهوماً . . ولكن عقوبة إعلانه كانت قاسية . إن العقوبة هى أن يتم تصنيفك فى خانة المعادين للثورة . نعم ، فى تلك الأيام كان كل شىء – صواباً أو خطأ – يتم الحديث عنه باعتباره إنجازاً من إنجازات الثورة .

إن كلمة « ثورة » عريضة فى مداها . . فهى تمتد من أقصى المثالية ، إلى منتهى الوحشية . . ومن العظمة إلى القسوة . ومن الروحية إلى القوة . إنها كلمة تغير ألوانها لأنها تستمد أصباغها من الناس والظروف . وفى الثورة المصرية ، كما فى كل ثورة أخرى ، تستطيع أن ترى بوضوح نوعين من الثوريين عملا تحت لوائها منذ سنة ١٩٥٢ : هؤلاء الذين اصبحوا ثوريين بدافع من المثالية ، وأولئك الذين أصبحوا ثوريين بدافع من الحقد . إن الأولين – كأشخاص من أفضل من الجماهير – يريدون رفع هذه الجماهير إلى مستواهم ، بالتجربة ، والتعليم ، والتحرر . أما الآخرون فقد كانوا فى حالة تعيسة من البداية . . لأنهم يريدون أن ينتقموا من هؤلاء الذين كانوا أسعد منهم ، وبارتفاعهم إلى السلطة يريدون الانتقام من هؤلاء الذين سقطوا من السلطة ، إنهم فى النهاية يمثلون نمواً متقيحاً على الوجه الطاهر للثورة .

وكانت المشكلة هى أن هذا التقيح ينمو يوماً بعد يوم . . تحت سمع الجميع ، وعلى مشهد من الجميع .

وفى الوقت نفسه كانت الحصانة ضد هذا التقيح تنهار يوماً بعد يوم . إننا نعرف مثلا أن الجسم الإنسانى ، حينما يواجه اختلالا صحيًّا ، نسميه مرضاً ، يكون مصحوباً بردود أفعال محددة قاطعة . . تميل إلى أن تعيد الجسم إلى حالة

تشبه ما كان عليه قبل هجوم المرض . إن شيئاً شبيهاً بذلك يجب أن يحدث حينما يعانى نظام اجتماعى من الاختلال أو المرض . شيئاً يشبه نفس النوع من رد الفعل يجب أن يحدث لكى تعود الأمور إلى نصابها ، وتحل الصحة محل المرض . إن بعض الثورات القصيرة النظر تقضى مقدماً على مثل هذه القوى التصحيحية ، وهذا يفسر لنا جزئيًا لماذا تنتهى ثورات كثيرة إلى شيء مختلف تماماً عما أراده لها الثوار فى البداية .

ولقد كنا نحن – شباب هذه الأمة – ندرك ذلك ولا نفهمه . . ندرك أن فى بلدنا أخباراً سيئة لا تقولها لنا الصفحة الأولى . . وإشاعات متناثرة لا تفسرها لنا شاشة التليفزيون . . وعلامات استفهام كبيرة لا تعترف بها موجات الإذاعة . فى تلك الأيام كان الرجال يبرقون فجأة كالشهب ، ويسقطون فجأة كالشهب أيضاً . وحينما كنا نبدى أقل علامة من التساؤل . . فإن حكماء هذه الأمة كانوا ينصحوننا بأن نغلق أفواهنا ونصمت . . فحتى « الحيطان لها ودان » . نعم ، نستطيع أن نتساءل . . ولكن ليس بصوت عال . نستطيع أن نبحث . . ولكن ليس بجرأة . نستطيع أن نستقصى . . ولكن ليس فى كل شيء . نستطيع أن نشارك . . ولكن ليس فى القضايا الأساسية للمجتمع . إن القضايا الأساسية ، خصوصاً الأساسية ، ممنوعة علينا ، بل ممنوعة على الجميع .

كنا نحن – صغار هذه الأمة – نعبر عن إحساسنا .

وكانوا هم – كبار هذه الأمة – ينقلون إلينا حكمتهم .

كانوا يردون علينا قائلين : إن كل شيء يهون فى سبيل الهدف الأسمى . نعم . هناك تسلط سياسى ، وهناك كبت وقمع وتعذيب وإرهاب وتقارير سرية ومراكز قوى . ولكن ، ما قيمة كل هذا إلى جانب الأهداف الكبرى التى تحققت ؟ وإذا كان لابد من الاعتراض . . فإن النتيجة لن تختلف فى النهاية . النتيجة هى أن الحياة تسير . . بنا أو من غيرنا .

بالطبع ، الحياة تسير . إن الحياة تسير . . سواء تصرفنا فيها كجبناء أو كأبطال . ولكن السؤال هو : تسير إلى أين ؟ إلى القرن الحادى والعشرين . أم إلى القرن

الحادى عشر؟ إلى الديمقراطية . . أم إلى الإرهاب ؟ إلى الانتصار على الواقع ، أم إلى الهزيمة أمامه ؟ بالطبع ، الحياة تسير . ولكن فى هذا العصر من الاضطراب والتغيير والتشوش والشك والامتهان . . فإن على كل منا أن يبحث عن معنى لحياته .. عن قيمة يسعى إليها ومبدأ يحارب من أجله .

كنا نلاحظ أن الجيل القديم – حكماء هذه الأمة – يساندون كل إجراء ماداموا هم يقفون على الشاطئ الآخر من النهر . لقد أيدوا وساندوا إلغاء الأحزاب واختفاء المعارضة ، أيدوا وساندوا حكم الرجل الواحد . أيدوا وساندوا إلغاء المؤسسات الدستورية . أيدوا وساندوا النظر إلى المواطنين باعتبارهم مجموعة من الأتباع ، وليسوا مجموعة من الشركاء . أيدوا وساندوا اختفاء الرأى الآخر . أيدوا وساندوا الكبت والقمع والتعذيب والتسلط والمعتقلات . . مادام فى الزنزانة مواطن آخر غيرهم . وفى كل اختبار كان اهتمامهم يتركز أولا على سؤال واحد فقط : ألا تزال رؤوسهم ثابتة فوق أكتافهم أم لا ؟ فوق أكتافهم . إذن : يا عزيزى الحاكم ، استمر ونحن معك . الكراسى ما زالت تحتهم ؟ إذن : نحن وراءك .

إن الحاكم فى أى أمة يستطيع أن يطغى ، وأن يستبد ، وأن يجعل أعوانه يطغون ويستبدون . هذه طبيعة الحكم . ولكن حكماء هذه الأمة يستطيعون أن يعترضوا ، وأن يمتنعوا وأن يرفضوا . ولكن كل هذا لم يحدث . وإذا حدث أن أصبح التعفن أمامهم أقوى من تجاهلهم إياه .. فإنهم كانوا – فى أحسن الأحوال – يديرون ظهورهم وينظرون إلى الاتجاه الآخر ، متظاهرين بأنهم لا يرون التصفية الكاملة لكل رأى مختلف . وهو الأمر الذى كانت مراكز القوى تقوم به بصفة دورية .

إنهم كانوا يجدون حجة مقنعة فى كل مرة . وحينما انهارت الحجج كلها ، أخرجوا فى النهاية حجتهم الأخيرة : كل شىء يهون فى سبيل مصر . مادامت كلمة مصر أصبحت مسموعة ، وجيشها أصبح أقوى ، واستقلالها أصبح أكيداً ، ومعاركها أصبحت منتصرة ، إذن .. فكل تنازل يهون . تهون الحرية ، تهون الثقافة ، يهون التعليم ، يهون العدل . والتاريخ يعلمنا أن أفدح المظالم يمكن أن تستمر ، وأكبر الأكاذيب يمكن أن تعيش . . إذا سكت عليها عدد كاف من الناس .

واقتنعنا . .

إننا اقتنعنا لأنه لم يكن أمامنا سوى أن نتمزق بين بديلين : إما أن ندخل دنيا الآباء بشروطهم هم . . وإما أن نبقى جزءاً من دنيانا فى المدرسة أو الجامعة . . بشروطنا نحن .

إننا لو بقينا فى دنيانا بشروطنا ، فإننا نكون قد هزمنا أنفسنا مقدماً قبل أول طلقة . ولو دخلنا دنياهم بشروطهم . . فعلينا أن نقدم التنازلات إليهم من أول دقيقة . فبمجرد أن تحصل على وظيفة بعد التخرج ، تصبح جزءًا من المجتمع ، ويصبح عليك غالباً أن تهاون على حساب تلك المبادئ التى ظلت غالية وعزيزة عليك فترة طويلة سابقة . إن الاختيار الوحيد المطروح أمامك هو : إما أن تكون سنداناً ، وإما أن تكون مطرقة . إن أصحاب النفوذ حجزوا لأنفسهم المطارق . . ولم يتركوا لك سوى أن تكون سنداناً . . الكل يدق فوق رأسه ، وليس عليه سوى أن يستسلم .

نعم ، دخلنا الواقع بجزء من شروطهم . تحمسنا وصفقنا وآمنا وأيدنا . . لم يعد أمامنا أن نعتمد على نظام . . وإنما أصبح علينا أن نعتمد على النوايا الطيبة لمن يحكموننا .

لم يعد أمامنا أن نعترض على الانتهازية والوصولية والنفاق والكذب . . وحينما كان أبى يقول لى « لا تكذب . . لأنك لو كذبت فلن يصدق أحد ما تقول » ، فإننى كنت أعلم أنه يقول لى بنفسه كذبة مدوّية . . لأننى أعرف أن الأكاذيب هى أكثر الأشياء نجاحاً وانتشاراً .

لم يعد أمامنا أن نعترض ، فلقمة العيش مهددة . . والحرية مفقودة . لقد كان هذا مفهوماً جديداً . . حيث البراءة تصبح الدليل الملموس على أنك مذنب . إن الجريمة لم تعد هى أنك تعترض ، ولا أنك تتكلم . لقد أصبحت الجريمة هى أنك لا تصفق بصوت أعلى من زميلك ، أو لا تتحمس بقدر أعلى من جارك فى الشقة التالية . الجريمة أصبحت هى أنك لست عضواً فى شلة ، والشلة ليست جزءاً من مركز قوى ، ومركز القوى ليس جزءاً من نظام .

لقد انتشر الفساد وتفشت الانتهازية والمحسوبية واختفت الكفايات وهاجرت الأصوات المخلصة ، ومن لم يهاجر بقى فى مكانه . . ولكن بعد أن أعلن انسحابه النفسى والعقلى من كل ما يجرى . إن كتّاب التقارير السرية هم الذين يحتفظون لأنفسهم بحق الكلمة الأخيرة فى تقرير هل أنت مواطن صالح أولا ؟

لقد كنا نودع فى كل ليلة واحداً من الآمال الكبيرة فى حياتنا ، ونتقبل العزاء فى وفاة حلم من الأحلام العريضة فى عقولنا .

نعم : كنا نموت قليلا . . كل يوم .

وفى البداية كنا – نحن المتفرجين – نهون الأمر على أنفسنا بقولنا : معلهش . . كل شىء يهون فى سبيل مصر .

فى البداية هانت المبادئ وبعدها هانت القيم ، بعدها هان المستقبل ، وأخيراً : هانت مصر ! لقد صحونا ذات يوم لكى نجد مصر مضروبة فى ميدان القتال . لقد ضربتها إسرائيل . . ولكنها فى الحقيقة كانت مضروبة من الداخل . . قبل وقت طويل من هزيمتها أمام إسرائيل .

كانت مصر قد تعفنت ، وصمتت ، وتنازلت ، وتسوست . . قبل أن يشهد قتال يونيو الرصاصة الأولى .

إننى لست محتاجاً هنا إلى أن أسجل الزلزال النفسى الضخم الذى أحدثته كارثة يونيو ١٩٦٧ . فلقد فعلت ذلك فى مقالات وكتب أخرى . ولكنى محتاج فقط إلى تسجيل ما حدث بعد الكارثة .

لقد فوجئنا بأن الذين أعلنوا من قبل تأييدهم لكل ما حدث . . هم أنفسهم الذين يعلنون اليوم إدانتهم لكل ما حدث . إنهم حكماء فى كل مرة . . منطقيون فى كل مرة . . متحمسون فى كل مرة . . ولكنهم فى النهاية : كاذبون فى كل مرة !

إن كل ما يريدونه هو السلطة . . بقايا السلطة ، وذيول السلطة ، ورضاء السلطة ، وبعدها . . فليذهب أى شىء إلى الجحيم .

ولكننا لم نذهب إلى الجحيم . لقد بدأ جيلنا يرفض من جديد أن يتنازل على

بياض عن عقله وتفكيره وإحساسه . . رفض جيلنا أن يذهب ثمن الهزيمة هباء .
إن الذين دفعوا ثمن هذه الهزيمة من دمائهم كانوا نحن ، أبناء هذا الجيل ،
ولم يكن أى أحد آخر . لقد مات منا الآلاف على رمال سيناء فى ظل تعليمات تقول
لهم : تراجعوا إلى الخلف . . وليس فى ظل تعليمات تقول لهم : تقدموا إلى الأمام .
مات منا الآلاف بغير أن يعرفوا لماذا . . ولا ماذا جرى . إنها المرة الأولى فى تاريخ
مصر على ما أعلم . . التى تكون فيها ضحايا بلا معركة . . وأمواتاً بلا سبب . . وشهداء
بلا قضية .

ولكن ، حيث كان مفروضاً أن تكون هزيمة يونيو ضربة قاضية لكل شىء
نظيف وصادق وطاهر فى مصر . . فإنها بدأت تصبح ضربة قاضية لكل شىء
مزيف ومتسلط وكاذب فى مصر.

إن جيلنا رفض أن يستسلم ، وبدأ يفكر لحسابه الخاص . إن تفكيره فى هذه
المرة بدأ بعد الفيضان . لقد خرجنا من الهزيمة بغير أبطال نسير خلفهم ، ولا زعماء
نستمع إليهم ، ولا علم نلتف حوله ، ولا تقاليد نجتمع حولها ، ولا ذكريات تشدنا
إلى الدنيا المزيفة التى اندثرت . لقد أصبحنا جيلا مولوداً بغير حبل سُرى . إن
معنا الحق ، والإحساس ، والأمل . . ولكن ليست معنا السلطة .

إن السلطة كانت ، حتى بعد يونيو ، ما تزال فى أيدى مراكز القوى . وفى الحرب
ضد تلك المراكز كانت الهزيمة مصير كل من حاول الاقتراب منها ، بما فى ذلك
جمال عبد الناصر نفسه . كان هذا شيئا طبيعيًّا ، بعد سنوات طويلة من النمو
السرطانى لتلك المراكز . سنوات تحولت فيها السلطة إلى دائرة مغلقة ، والحكم إلى
تركة وراثية ، والمناصب إلى مكافآت على الولاء .

أقول إن جمال عبد الناصر نفسه . . ربما يكون قد حاول . . ولكنه اكتشف
فى النهاية أن الواقع قد أفلت من بين يديه . كان هذا شيئًا طبيعيًّا بعد أن أصبحت
مراكز القوى مثل تلميذ الساحر الذى استحضر عفريتًا من الجان لكى يأتيه بشىء
من النبيذ . ولما كان يجهل التعويذة التى يصرفه بها بعد أن جاءه بما يكفيه . . فإن
أمره انتهى إلى الغرق فى بحر من النبيذ .

أو . . فلأقل شيئاً آخر : إن إرهاب مراكز القوى قد اتخذ لنفسه إيقاعًا خاصًا به .
إن الوحش « فرانكشتاين » قد تم بناؤه ببطء وبحرص عبر فترة من الزمن ، والآن . .
أصبحت له إرادة خاصة به لا يمكن وقفها .

كانت القضية المبدئية هى : من المسئول عن كارثة يونيو١٩٦٧ ؟

لقد بدأ جيلنا يتهامس ، ثم يتكلم ، ثم يصرخ ، ثم . . أخيراً . . يتظاهر
إن مظاهرات فبراير ١٩٦٨ كانت أول رد فعل حاد من الغاضبين فى هذه الأمة ،
الذين يريدون أن يعرفوا حقيقة المرض . قبل أن يوافقوا على العلاج المطروح .

كان التناقض هو أن عقوبة التآمر على قلب نظام الحكم هى خمس وعشرون
سنة ، فى حين أن عقوبة التآمر على هزيمة مصر هى خمس عشرة سنة !

وكان التناقض هو أن نقول إن الثأر ضرورى فى المستقبل القريب .
ولكن المناقشة ممنوعة فى الماضى القريب !

وكان التناقض هو أننا نقول إن هذه الهزيمة لن تتكرر ، ولكننا نرفض فى الوقت
نفسه أن نناقش أسبابها .

كان هذا نوعاً من المنطق المعكوس . . ولم يكن له سوى تفسير واحد : أن فتح
ملفات هزيمة ١٩٦٧ سوف يمزق ثقوباً كثيرة فى ستارة الغموض وعدم المسئولية
التى تحيط بها مراكز القوى نفسها . من هنا كانت الأسباب الملحة -- وليست
الكاملة - لمظاهرات ١٩٦٨ .

إن جيل الشباب يريد أن يحصن مصر ضد الهزيمة مستقبلا . . فى حين تريد
مراكز القوى أن تحصن امتيازاتها ضد المحاكمة مستقبلا . من أجل هذا كانت
الرغبة فى القمة هى أن هزيمة ١٩٦٧ تعتبر كارثة . . هذا صحيح . . وتمثل قضية ،
هذا حق . . ولكن ، دعونا نقيد القضية ضد مجهول ! دعونا نعتمد من جديد على
النوايا الطيبة لهؤلاء الذين يحتفظون فى أيديهم بمقاليد الأمور .

وكان هذا كثيراً . . كثيراً جداً . فخرجت المظاهرات . مظاهرات ضد الواقع ،
وضد إعفاء أحد من الحساب ، وضد السلطة .

إننى شخصياً كنت دائماً ضد السلطة . ليست السلطة التى يمثلها سائق

أوتوبيس لا يقف عند المحطة ، أوأب يمنعك من السهر ليلا . إننى أفهم ذلك مع أننى لا أحبه . ولكننى أتكلم هنا عن السلطة التى تنظر إليك وإلى جيلك كله باحتقار كامل . إنهم ربما يقولون لك إنك رفيق طيب للحظة . ولكن ، حينما يضع شخص ما قطعة ورق فى أيديهم يعطيهم بمقتضاها قدراً من السلطة . . فإنهم يبدءون فوراً يتحكمون فيك ويستبدّون بك . . تلك هى اللحظة التى أكون فيها ضد السلطة .

وفى الوقت نفسه فإننى شخصيًا ضد العنف . وضد التظاهر كأسلوب للتعبير عن الرأى . بل إننى حرصت دائماً على ألا أكون جزءًا من تنظيم أوشلة تفرض عليك ما تريده .

ولكن هذا كله لا يمنعنى من أن أفسر على الأقل دوافع الجيل الذى أنتمى إليه .. فى التمرد والغضب . إن الشباب هم فى العادة مثاليون أكثر مما هم ثوريون خطرون . إن الاختبار الحقيقى لكل مجتمع يكمن فى قدرته – أوعجزه – عن التعامل مع الجيل الشاب فى حالات احتجاجه هذه ضد تخلف الواقع عن المثل العليا . وحينما يكون المجتمع مستقرًا فى أساسه ، ومرنًا بما يكفى للتجاوب مع أوجه الشكوى . . فحينئذ يستطيع هذا المجتمع أن ينام قرير العين دون أقل خشية من شبابه . إن الطريق مفتوح أمامهم للتعبير عن آرائهم أولا بأول ، بغير عقبة أو رقابة أو وصاية . . فلماذا إذن يخشاهم المجتمع أويخشى غيرهم ، ويخشى أن ينقلوا احتجاجهم إلى الشارع ؟ !

أما حينما تكون الوسيلة الوحيدة التى يستخدمها المجتمع مع حركات الاحتجاج هى العنف . . وهى الكبت . . وهى التسلط . . فإنه يصبح حينئذ معرضاً للخطر . خطر التعرض لنوبات هيستيرية مفاجئة من السخط ، وخطر التحجر السياسى وفقدان الحساسية للمشاعر المتغيرة بين أعضائه .

إن شيئاً من هذا كان قائماً وقتها فعلا .

لقد تحركت الحكومة بسرعة فى اتجاهين : امتصاص هذا الاحتجاج السياسى بالالتفاف حوله عن طريق مجموعة من الإجراءات (إعادة محاكمات الطيران . . بيان ٣٠ مارس . . التعديل الوزارى . . إلخ) ثم بقذف المنطق القديم فى وجه الشباب : ماذا تريدون ؟ ألم نضمن لكم التعليم المجانى ؟ ألم نضمن لكم وظائف

فى الحكومة ؟ ألم نشتر لكم مائة أوتوبيس فى العام الماضى ؟ إلخ . . . إلخ .

إنه المنطق القديم نفسه : ليس للإنسان من حقوق على حكومته أكثر من « العلف » الذى تقدّمه له .

إنها – أيضاً – المبارزة القديمة نفسها : أيهما أكثر أهمية . . الخبز أم الحرية ؟

إن أحدًا لم يفهم أن ما يميز الإنسان عن المخلوقات الأخرى هو أنه – بالإضافة إلى رغبته فى أن يعيش – يريد أن يعيش حياة أفضل .

وأحداً لم يفهم أن فى مصر أبطالا حقيقيين يجب أن تكتشفهم . . قبل أن تركع أمام أبطال ملفقين .

وأحداً لم يفهم أن هزيمة يونيو ١٩٦٧ لم تكشف فى الواقع عن مجرد أزمة حكومية . . إنما كشفت أساساً عن أزمة حضارية .

وأحداً لم يفهم أننا يجب أن ننظر إلى الحكومة باعتبارها شيئاً أقل من مشكلة سلطة ، وشيئاً أكثر من مشكلة قيادة .

وأحداً لم يفهم أن انسحاب شباب هذا المجتمع منه قد احتاج إلى كارثة قومية ، وسوف يحتاج استردادهم إليه إلى ثقة قومية .

وأحداً لم يفهم أن « الأتباع » الذين ضحوا بعشرين ألف قتيل بغير تساؤل . . لن يفرطوا اليوم فى نقطة دماء واحدة بغير حيثيات .

نعم . لم يفهم أحد . أو ، على الاقل ، لم يحاول أحد . لقد اتخذت إجراءات ، وأزيلت آثار ، ولكن الأسباب بقيت على ما هى عليه . أسباب الهزيمة .

ثم : بدأ التغيير .

مع حدة الصراع ضد العدو ، وتكرار حركات الاحتجاج والغضب ، واستمرار فجوة الثقة قائمة . . بدأ التفكير فى علاج آخر .

إن هذا العلاج لم يبدأ بإجراءات ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ، ولا هو بدأ بحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

إننا بدأنا نكسب حرب أكتوبر ، فى رأيى ، قبل أن تقع فعلا بسنوات طويلة . . تماماً مثلما بدأنا نخسر حرب يونيو قبل أن تقع بسنوات طويلة .

فى أول استفتاء شعبى جرى بمصر لانتخاب أنور السادات رئيساً للجمهورية – وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٩٧٠ – خرجت نتيجة الاستفتاء معلنة أن ٩٠,٢ ٪ يوافقون على السادات كأول رئيس للجمهورية يخلف عبد الناصر.

كانت تلك فى حد ذاتها نتيجة مثيرة للدهشة . . بعد أن جرت العادة فى مصر من قبل على أن تكون نتيجة أى استفتاء هى مقدماً ٩٩,٩٩ ٪

المهم . . خرج أنور السادات بعدها لكى يعلن على شاشة التليفزيون فى ١٨ أكتوبر ١٩٧٠ ، قائلا : « إن الذين قالوا لا . . إنما كان قولهم لها تحفظاً على المرشح لرئاسة الجمهورية نفسه . إن هذا لم يسبب لى أى ضيق ، ولا اعتبرته مدعاة لألم ، إنما اعتبرته ظاهرة صحية » .

لقد استطاع الحاكم ، أخيراً أخيراً ، أن يضع أذنه على النبض الحقيقى لمصر . القدرة على أن تقول « لا » للحاكم . . بغير أن يكون الثمن هو اعتبارك خائناً وعدوًا وكافراً ومتمرداً . إنها كلمات جديدة ، وأسلوب جديد . إن هذا التصحيح كان مبكراً من أنور السادات بالنسبة لسلبيات نظام الحكم فى مصر . إن حقك وحقى وحقها وحقنا جميعاً فى أن نقول « لا » بغير أن تطاردنا أجهزة الحاكم نحن وأولادنا من بعدنا . إن هذا المواطن المعترض ظل هو المواطن الخفى فى المجتمع المصرى طوال فترة طويلة سابقة . إنه كان موجوداً دائماً . . ولكن الاعتراف به هو الذى لم يكن موجوداً . . كما لو كان مجرد التظاهر بعدم وجوده هو القضية الأساسية .

ثم جاء أنور السادات فجأة لكى يعلن : كلنا شركاء فى هذا البلد . . الذين يقولون نعم والذين يقولون لا . إن هذه الحقيقة هى شىء بديهى ومفروغ منه ، وهى الأصل والأساس . ولكن ، من طول غيابها عن حياتنا السياسية فى مصر . . أصبحت تبدو لنا – نحن شباب هذه الأمة – كالاكتشاف المفاجئ . . وهو انطباع لم أستطع التخلص منه لفترة طويلة تالية .

إن أنور السادات لم يتحرك بعدها بسرعة . . فمراكز القوى أحاطته بحقول ألغام وقنابل زمنية عديدة . . ولكنه فى ذلك اليوم عبّر على الأقل عن اتجاه السفينة .

مع ذلك فإن أنور السادات نفسه لم يسلم هو الآخر من مواجهة تمرد هذا الجيل . إن الجديد فى هذه المرة هو أنه لم يتخذ من هذا التمرد حجة جديدة لإعادة هذا الجيل إلى ما كان عليه . لا شىء فى هذا العصر يعود أبداً إلى ما كان عليه . إنه أيضاً لم يضع جيلنا أمام بديلين اثنين : الخبز أو الحرية . إنه لم يفعل ذلك ، بالرغم من أن مراكز القوى حاولت أن تغريه بذلك . طبعا : التفكير البوليسى فى السياسة يبدأ دائماً من مقدمة أن كل الناس مذنبون ومتآمرون إلى أن يثبت العكس .

مع ذلك فإن عوامل كثيرة ساعدت فى بقاء أزمة الثقة تلك على ما هى عليه . الثقة بين جيل الشباب وبين الدولة .

فمن الناحية المبدئية كان هناك فى الظل دائماً كابوس هزيمة ١٩٦٧ ودروسها .

ومن ناحية أخرى كانت هناك حالة الكسل العقلى التى أصيبت بها أجهزة السلطة ، بحيث إنها لا تريد مطلقاً أن تنزل إلى الشباب وتسمع منهم وتفسر لهم . . ولكنها تريد فقط أن تزجرهم وتعاقبهم .

ومن ناحية ثالثة هناك تجاهل للتغيير الذى وقع فى المناخ السياسى ولا يمكن إلغاؤه . . إن جيلنا هو الذى عانى من الهزيمة والمرارة والألم . ألم السير فى حياة لا يعرف اتجاهها ولم يشترك فى صنعها . . ووسط أحداث لا دور له فيها سوى التفرج عليها . لقد تقطعت أسلاك الاتصال بيننا وبين الدولة . . بحيث أصبحت فجوة الثقة أزمة ثقة . إن تشويه السمعة أصبح هو وسيلة الجميع ضد هذا الجيل . وكأنما أصبح سوء السمعة عزاء وتعويضاً عن جوهر القضية نفسها . لقد قالوا عن جيلنا إنه جيل من المتمردين بغير سبب . . والمعارضين بغير دافع . . والمشاغبين بغير قضية . بغير قضية ؟

إذا لم يكن الدفاع عن بلدنا ، وإدخال القرن العشرين إلى حياتنا ، هو القضية . . إذن . . فماذا تكون القضية ؟

إن القضية كانت بالنسبة لنا تحمل أبعاداً كثيرة ، بعد أنور السادات وبعد سقوط مراكز القوى وانتهاء النظرة البوليسية إلى جيل بأكمله .

القضية أصبحت هى : كيف نسترد قوتنا . . والعدو يحتل أرضنا على بعد مائة

كيلومتر من عاصمتنا ؟

القضية هي : كيف ننقد مصر ، بغير أن نؤذيها ؟ . . كيف ندافع عن مصر ، بغير أن ندعم فيها الخيلاء والغطرسة ؟ . . كيف نغير مصر ، بغير أن ندمرها ؟ . . كيف نروى قيمها الطيبة ، بغير أن ننمى فيها أعشابها الطفيلية ؟ . . كيف نعشق ترابنا ، بغير أن تدوس علينا الأقدام ؟ . . كيف نعبر لأنور السادات عن ثقتنا فيه ، بغير أن يختلس سماسرة الأمن والبوليس جزءاً منها لحسابهم ؟ . . كيف نقف معه صفًّا واحداً ، بغير أن يعنى هذا أننا نقف معه عقلا واحداً ؟ . . كيف ننقل إليه حبنا ، بغير أن نساهم فى موجة جديدة من عبادة الفرد ؟ . . كيف نخبره بأننا أبناؤه ، بغير أن نجعله حاكماً أبويًّا ؟ . . كيف نثق ، بغير أن تكون ثقتنا على بياض ؟ . . كيف نؤمن ، بغير أن يكون إيماننا غيابيًّا ؟ . .

إن علينا أن نتحد جميعاً فى السعى لانتصار قادم . . بالرغم من أننا مشحونون بالمرارة من هزيمة تحققت .

تلك كانت قضية جيلنا . كانت كل هذا . . وأكثر .

كانت قضيتنا هى إصرارنا على أن نكون دولة عصرية . إصرارنا على أن يكون مجتمعنا . . ليس عادلا ومتنبِّهاً فقط ، لكن مفتوحاً أيضاً . وحينما كنا نقول ذلك ، كان حكماء هذه الأمة – وهم مازالوا مستمرين فى التحدث باسمها – يحتجون فى البداية بأن صوت المعركة أهم من أى صوت آخر . . إن هذه الحقيقة ، التى هى صحيحة فى جوهرها ، كانت تتحول فى النهاية إلى وسيلة جديدة لإنكار أو إخفاء تفسخات وعورات مجتمعنا خلف شعارات أخلاقية ووطنية . إن سقوط تلك الشعارات لم يكن يمنعهم من الدهشة بسبب غضب جيلنا وتمرده . . الذى هو بالضرورة نوع من النقد لأوضاع كثيرة . . هم أنفسهم جزء منها .

إنهم لم يدركوا أن ضغط الهزيمة على أعصابنا ، واستمرار الاحتلال لأرضنا ، كان يملأ عقلنا بمشاعر خطرة : مشاعر الفخر المهزوم والآمال الخائبة ، والقيم التى هزمتها النرجسية القيادية .

لقد حمل كل منا هذا التوتر العصبى فى داخله إلى جامعته ، ووظيفته ،

وجاره فى الشقة التالية ، وزميله فى الأوتوبيس ، وصديقه فى النادى ، وشريكه فى تراب هذه الأرض . ومع كل يوم جديد يمر بغير تحرك ضد العدو المحتل لأرضنا . . كان البخار يتجمع . . والتوتر يتراكم . . والقنبلة الزمنية توشك أن تحول المجتمع كله إلى شظايا . إن القيادات كلها كانت تبشر بيوم قريب وبثأر لابد منه ، ولكن جيلنا كله كان يحتاج إلى دليل . إن نفوسنا قبل الطلقة الأولى فى المعركة — لن تستطيع أن تصدق أو تستريح أو تهدأ .

ثم : انطلقت الشرارة .

لقد بدأت الحرب فى تلك اللحظة التاريخية بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر.

هنا فقط التأمت الجراح ، وتوحدت الصفوف . هنا فقط أخلت المرارة مكانها للثأر. لقد تحولت الأمة كلها فى لحظة واحدة إلى جندى واحد . . وعقل واحد . . وصف واحد .

إن أحد مشاهد تلك اللحظات لن يغيب عن ذهنى مطلقاً . فبمجرد إذاعة البيان الأول نسى الناس كل شىء فجأة ، كل شىء مرير ومؤلم اختفى وذاب فجأة فى مشهد واحد : مشهد الناس وهم يتكلمون بعضهم إلى بعض ، ليست أحاديث طارئة وعرضية . . ولكن أحاديث طويلة حارة بين غرباء تماماً . إنهم غرباء جمعهم البيان الأول على نواصى الشوارع وفى المقاهى والميادين . إن البيان الأول — بقدر اقتضابه وقلة كلماته — أشعل انفجاراً من الكلمات والأحاديث والمناقشات . إنها مناقشات تجرى كنوع من الاستشفاء العام . لقد انطلقت الشرارة . وفى انطلاقها أعادت تذكير الناس بحقيقة أن علاقاتهم بعضهم ببعض ظلّت طوال ستّ سنوات فظّة جدًّا وخشنة للغاية ، ثم غير أخويه . إن الأطفال عادوا يتحدثون بحب إلى آبائهم ، والموظفين يحبون رؤساءهم ، والمواطنين يثقون تماماً فى قائدهم . فى هذه المرة لن يحاسبه أحد على النتيجة . . ولكن يكفيه فقط أن يقوم بواجبه كمصرى .

وعلى رمال سيناء نفسها . . كان كل جندى يقوم بأكثر من واجبه . . إن شحنة الانتظار والألم تترجم نفسها الآن إلى رصاص ينطلق ودماء تسيل . إن

الجيل المتمرد ، الجيل سيئ السمعة ، يعوض الآن بعقله ما تقصر فيه التكنولوجيا . . ويسدّ بصدره فوهات المدافع فى خط بارليف . .ويفتدى بروحه كل حبة رمل أمامه . إنه فى هذه المرة يدفع دماءه وروحه ثمناً لمعركة حقيقية . ثمن له مقابل . يكفى أن يكون المقابل كرامة وعزة ورأساً يرتفع إلى السماء وقدماً تتقدم إلى الأمام واحترامًا ضائعًا يعود إلى النفس .

كان هذا هو أعظم إنجاز حققته حرب أكتوبر : احترام النفس .

فى هذه الحدود يصح أن أقول إن حرب أكتوبر أعادت ضبط عقاربنا كلها على ساعة واحدة . لقد استيقظنا من جديد على كمية لا نهائية من الحب يحتفظ بها كل منا لبلده فى أعماقه . . إن الذين قالوا نعم لكل شىء ، والذين قالوا لا لأى شىء . . أصبحوا فجأة يقولون كلمة واحدة : إلى الأمام .

تلك هى الروح التى حققتها معركة أكتوبر .

ثم : انتهت المعركة . . ولكن الحرب لم تنته .

إن الرصاص عندما توقف لم يكن هذا يعنى مطلقًا أن الحرب قد انتهت . . أو أن كل شىء أصبح على ما يرام فجأة . لا . بالعكس . فعلى المستوى العسكرى : مازالت المعركة مستمرة ، وما زال الرصاص محتاجًا إلى الانطلاق من جديد .

وعلى المستوى الحضارى : ما زالت القضية الرئيسية قائمة .

إن القضية فى هذه المرة أصبحت بكل معنى من المعانى : تجديد شباب مصر .

ومثلما اكتشف كل منا لنفسه دوراً فى المعركة العسكرية ، فإن على كل منا أن يكتشف لنفسه أيضًا دوراً آخر فى المعركة الحضارية . إن السلطة تستطيع أن تتقدم إلى جيل الشباب بيد ممدودة وعقل مفتوح وقلب صاف ودعوة جادة للمشاركة . إننا ربما لا نستطيع أن نعطى هذه الأمة مزيداً من الشعارات أو الفلسفات أو الأقوال المأثورة . ربما لا نستطيع أن نعطيها وعوداً براقة تمضغها ألسنتنا وتدوسها أقدامنا . بالتأكيد ليس هذا دورنا .

ولكننا بالتأكيد أيضاً نستطيع أن نعطى هذه الأمة مزيداً من الصدق والصراحة . . والثقة فى المستقبل . . والأمل فى القرن الحادى والعشرين . إننا من الآن نفعل

هذا فعلا ، ولكننا نستطيع أيضاً أن نفعل أكثر .

إن المشكلة هي أنك مالم تحتل مركزًا وتملك سلطة . . فإن ما تستطيعه يمكن أن يكون قليلا جداً .

ولكن ، حتى هذا القليل . . يحتاج إليه بلدنا الآن ، في هذه اللحظة ، بشكل حاد جداً . إن كلًا منا يستطيع مثلا أن يعيش نوع الحياة الذى يعجبه . ولكن مذاق هذه الحياة يمكن أيضاً أن يبرهن ، أو يحاول أن يبرهن على أنه ما زال من الممكن أن نختلف بغير عداء ، ونناقش بغير مرارة ، ونتجادل بغير ألم . مازال من الممكن أن نعمق في بلدنا ، وحكومتنا ، ومؤسساتنا ، القدرة على التحمل . تحمل الاختلاف والنقد والتجربة والحوار الحيّ بين الرأى والرأى الآخر .

بالطبع سوف يظل الرأى الآخر مجرداً من الحماية مالم تسانده مؤسسات دستورية قائمة ومعترف بها ، وتمارس نشاطها في الضوء والعلانية . إن هذا يجرنا إلى مناقشة قضية الديمقراطية وقضايا أخرى كثيرة ليس هذا مجالها . إن ما يجعلني متفائلا ، من الآن ومقدماً ، هو أن أنور السادات نفسه مؤمن بهذه القضايا . . مؤمن بأن الخبز ليس بديلا عن الحرية . . والحرية الفردية ليست منفصلة عن المؤسسات التي تحميها . . والقانون ليس مختلفاً عن العدالة . . والشعارات ليست تعويضاً عن التطبيق . . والحكماء ليسوا بديلا عن الشباب . . والولاء ليس بديلا عن الكفاية . . والنوايا الطيبة ليست بديلة عن الأعمال الطيبة . باختصار . باختصار . . المواطن الحر . . هو الشرط الأول لبناء الدولة العصرية .

وفي هذه النقطة فإن كل ما يفعله أنور السادات هو أنه يسدد الشيكات التي حررتها الثورة على نفسها ، وتأجل تسديدها فترة طويلة جداً – ٢٢ سنة !

حلمى مراد

الجدّية . . سبيلنا إلى مستقبل أفضل



عندما جلست لأكتب هذه السطور ، تزاحمت فى رأسى الخواطر : ماذا أكتب ؟ وماذا أدَع ؟

فى كلّ يوم ، بل فى كلّ لحظة ، يرى كلٌّ منا ويسمع ، فى كلّ موقع ، ما يثير الأسى ويبعث على الخجل . . ما يستوجب النقد ، والإصلاح ، بل الثورة على الأخطاء التى ما يزال يرتكبها « أفراد » فى مواقع المسئولية ، على مختلف المستويات !

أفراد لم يغيِّروا – بعدُ – ما بأنفسهم : إنْ عمداً ، أو تواكلا ، أو جرياً على سُنّة الداء المُسْتَشْرى فى بلدنا ، مع الأسف المفجع : اللامبالاة !

أفراد لم ينفعلوا بعدُ بروح ٦ أكتوبر . . أو – على أحسن الفروض – تنقصهم « الهمّة » لتطوير أنفسهم ، وأساليب تصرفاتهم ، وقراراتهم ، وتوقيعاتهم . .

فما الذى ما زلنا نفعله ببلدنا فى الواقع ؟ . . وما الذى ينبغى – و « نستطيع » – أن نفعله ، للعبور به إلى مستقبل أفضل ، بعد أن حقَّق له الرئيس الشجاع « أنور السادات » ، ومعاونوه الأكفاء ، العبور العسكرى والسياسى إلى النصر ؟

نحن نتبادل الحكايات ، والنقد ، والنِّكات . . ثم ينفضّ « السّامر » ،

ويمضى كلّ شىء فى طريقه : تستمرّ الأخطاء . . واللامبالاة . . و « الانغلاق » . . والتعقيد !

بدلا من تبادل النقد فى المجالس . . فليَعْمَلْ كلٌّ منا على إصلاح ما يملك إصلاحه من أخطاء – ولو صغيرة – فى موقعه ، فما الكبائر إلا مجموعة من هذه الصغائر !

بدلا من تبادل النِّكات فى غير طائل . . فلْنَتَّقِ الله فى بلدنا ، ونصطنع الجدية ولو « اصطناعاً » ، إن صحَّ ما يزعمه أعداؤنا من أن الجدية ليست ، ولن تكون ، من طبعنا !

لَكَمْ يحزُّ فى نفسى – كلّما دخلتُ موقعاً من مواقع العمل : مكتباً ، أو مصلحة ، أو بنكاً ، أو مجلساً ، أو هيئة – أن أجد العاملين فيه يجتمعون حلقات ، لا همّ لهم غير المزاح ، وتبادل النِّكات ، و « التريقة » ، والسخرية : من كل الأشياء ، والأشخاص . . حتى من أنفسهم !

إننى أدعو علماء الاجتماع إلى أن يبحثوا ، و « يفتونا » فى أمر هذه الظاهرة الغريبة التى تَفَشَّت فى مجتمعنا : ظاهرة الميل – المغالى فيه – إلى الهزل ، والمزاح ، والسطحية ، وعدم الجدية ، وإضاعة الوقت فى التفاهات . . !

حتى فى تمثيلياتنا الإذاعية والتلفزيونية ، ومسرحياتنا ، وأفلامنا ، نلاحظ هذه الظاهرة : الإغراق فى الضحك « الأبله » ، والاستمرار فيه ، بلا داع ولا مناسبة !

. . قد يقول قائل إن الضحك إما أن يكون تعبيراً عن سعادة بالغَة ، أو تنفيساً عن شقاء مقيم . .

لكنى غير مقتنع بهذا التفسير ، فقد زرت نحواً من ٣٥ دولة ، اختلطت بشعوبها وأفرادها ، وبعضهم أسعد منّا حالا ، بمراحل . . وبعضهم أتعس منّا ، وأكثر شقاء ومعاناة . . لكنى لم أصادف ، فى أى منها ، عُشْرَ مِعْشار هذا الميل « المَرَضىّ » إلى الهزل ، الذى نلمسه فى مجتمعنا ، حيث لا يلتقى اثنان إلا ويبدآن حديثهما بتبادل النكات ، أو الإغراق فى الضحك والمزاح و « التريقة » !

فهل من أمل فى « قليل » من الجديّة ، ولو اضطررنا إلى أن نفرضها على أنفسنا فرضاً فى البداية ، و « نتكلّفها » تكلفاً . . حتى نألفها وتصبح طبعاً فينا . . يوماً ما ؟ !

وليست الجديّة التى أدعو إليها هى الاكتئاب ، والتجهُّم ، والقتَامة . . بل بالعكس ، فهذه كلها ظواهر « مَرَضيّة » أشَرُّ وأنْكَى من الإغراق فى الهزل . . وإنما الذى أتمنى أن نتعلمه من الشعوب المتحضّرة هو الابتسامة الهادئة - حتى فى مواجهة الشدائد ! -- والعمل الدائب فى تفاؤل ، ومرح متّزن ، يفلّ الحديد ويحقّق المعجزات !

وأكتفى من الخواطر التى أثارتها فى رأسى فكرة هذا المقال ، ببضعة أمثلة ، أسردها جزافاً . . بغير ترتيب ولا تنميق :

ابدأ بنفسك !

• كلنا ننتقد حركات « الالتفاف » والعودة من جديد إلى طوابير الجمعيات الاستهلاكية ، لشراء المزيد من السلعة نفسها ، مرة بعد مرة ، بعد مرة !

ننتقد . . ثم نفعل الشىء نفسه !

فلماذا لا يبدأ كل مواطن بنفسه ، ويقاطع -- أو فى القليل « يقاوم » ! -- شهوة « تخزين » السلع التموينية ، وحرمان غيره منها ؟

• لماذا لا نلغى من قواميس معاملاتنا مع التعساء من البشر الذين وضعتهم الأقدار تحت رحمة « توقيع » أو « قرار » بسيط منا ، هذه العبارة التقليدية التى يتندر بها العالم عنا : عبارة « فوت بكرة » ، ثم « بكرة » ، ثم « بكرة » ! . . بلا داعٍ ، غير إذلال العباد ؟ !

• كانت إسبانيا منذ سنوات فى عِداد الدول « الفقيرة » نسبيًّا ، فقفزت فى أقلّ من عشر سنوات إلى مرتبة الدولة صاحبة أكبر دخل من السياحة فى العالم ، أو الدولة رقم (١) فى هذا المضمار !

ونحن نتفوّق على إسبانيا فى « المعالم السياحية » ، واعتدال الجوّ . . ولكن ينقصنا العَصَبان الرئيسيان فى فنّ اجتذاب السائح :

١ – فعلى مستوى الدولة ينقصنا تعديل قوانين الجمارك والعملة ، ومواعيد السهر ، كما تنقصنا وسائل الانتقال والمواصلات المريحة ، ثم العدد الكافى والنوع المناسب من الفنادق ، والمطاعم ، والمقاهى ، والملاهى – ولو البريئة ! – التى تتيح للسائح أن يقضى وقتاً طيباً بقية نهاره وليله ، بعد عودته من زيارة المناطق الأثرية التى لا تثير أكثر من « ربع » اهتمام سائح اليوم ! . . أو بمعنى آخر لا « تغريه » بزيارة بلدنا إلا بنسبة ٢٥٪ فقط !

٢ – وعلى مستوى الفرد – أى موظف المطار ، والجمرك ، والفندق ، والبنك ، وشركة الطيران ، والملهى . . إلخ – تنقصنا ابتسامة الترحيب ، و « المرونة » أو « التيسير » على السائح ، كى نوفر له كل دقيقة من وقته فلا نبددها ، وكل ذَرَّة من أعصابه فلا نتلفها بالتباطؤ و « التعقيدات » ، التى لعلَّ عُشرها من فعل الدولة ، وتسعة أعشارها من فعل الفرد !

كيف نفرض اسم مصر على صحافة العالم !

• على ضوء ما قرأته فى صحف إنجلترا وألمانيا وفرنسا خلال معارك أكتوبر المجيدة ، وقبلها ، وبعدها . . وما لمسته من أساليب تغطية الإذاعات وشبكات التليفزيون فى تلك البلاد وغيرها ، لأخبار بلدنا . . فى الحرب أو السلم . . وما سمعته من المتخصِّصين فى كل هذه المجالات . . تجمعت لدىّ الانطباعات التالية :

١ – إذا أردنا أن تبرز صحافة العالم ووسائل إعلامه أخبارنا فى صفحاتها الأولى – بدلا من أن تهملها ، أو تكتفى منها بسطور ، فى ركن منزو ، من صفحة

غير مقروءة – فعلينا (وهذه مسئولية وكالة أنبائنا فى المقام الأول : « ا . ش . ا ») . أن نراعى روح العصر السائدة اليوم ، فى هذه المجالات ، وهى صياغة الأنباء بلغة « الخبر » لا لغة « المقال » . . مع مراعاة الصدق الكامل – مائة فى المائة – بذكر ما لنا وما علينا ، وعدم إخفاء الحقائق ، ولو كانت فى غير صالحنا ! (لأننا مهما أخفيناها ، فسوف تنقلها وكالات الأنباء الأخرى العالمية ، ولن « ينوبنا » بالتالى غير فقدان الثقة فى أنبائنا ووكالاتنا !) . . فالخبر الصادق الموجز « الجديد » ، الخالى من الحشو والمغالاة و « الإنشاء » ، سيجد طريقه حتماً إلى الإبراز فى مانشيتات الصحف ووسائل الإعلام العالمية كافة ، ولو برغم أنفهم ! . . ولو بحكم مصلحتهم فى السبق الصحفى أو الإذاعى !

٢ – ولكى نفرض أخبارنا على صدر صحف العالم ، علينا أن نُغَيِّر نظرتنا إلى مفهوم « الخبر » فى عصر الفضاء ، فلا نحصر اهتمامنا فى الأخبار السياسية وحدها ، فرُبَّ خبر علميّ جديد عن بحث فى أحد معامل المركز القومى للبحوث – مثلا – أو خبر اجتماعى طريف عن ذكاء طفل صغير فى قرية ، أو رسم مبتكر لتلميذ فى مدرسة ، تنشره الصحف العالمية فى أبرز مكان من صفحاتها . . فى الوقت الذى تهمل فيه تحقيقاً سياسيًّا طويلا تبرق به وكالة أنبائنا ، أو خبراً سياسيًّا معاداً ، لا ينطوى على جديد !

٣ – وفى صحافة العالم اليوم ، تحتلُّ الصورة ، أو الرسم الكاريكاتورى الذكيّ ، مكاناً ومكانة هامّين . . فليتنا نبعثر مصوِّرينا – الممتازين بالفعل ! – فى جميع المجالات ، والمناسبات – غير السياسية ! – كلّ يوم . . ثم نفرز إنتاجهم ، ونصدّر الصالح والطريف منه إلى وكالات الصور المتخصصة كافة ، فى عواصم العالم – ولو بالمجان ! – فإن كلّ صورة تنشر فى صحيفة أجنبية ، عن أى موضوع ، ويرد فيها ذكر بلدنا ، فى سطر واحد تحتها ، تذكّر العالم بنا ، وبقضايانا السياسية ، أكثر من مائة مقال سياسى بحت !

ولنذكر دائماً أن الدعاية الناجحة لأىّ بلد ، تتحقّق بقدر عدد المرات التى يَرِدُ فيها ذكر هذا البلد بين سطور أى خبر ، أو تحت أية صورة أو « لقطة »

اجتماعية أو فنية . . وكلما نجحنا فى فرض اسم بلدنا على الصحف أو الإذاعات فى أى مجال ، (ولو كان مجال عرض فيلم مصرى فى عاصمة من العواصم الأجنبية !) ازداد وَعْىُ العالم – شعوبه ، ورأيه العام ، قبل حكوماته - بنا ، وبمستقبلنا ، وحاضرنا ، وبالتبعية بقضايانا السياسية ! . . ولنخفِّفْ من التركيز على ماضينا الحضارىّ ، فى مجالات الدعاية السياحية ، فلعلّ تذكير السائح بشمسنا الساطعة ، ودفء جوّنا ، وعيون « حلوان » المعدنية والكبريتية ذات المفعول الناجع فى علاج الروماتزم ، أجدى علينا فى جلب الآلاف من السائحين ، من « التغنى » بأمجاد أجدادنا الفراعنة ، ومن التقوقع فى هذه الدائرة « المستهلكة » دون سواها !

إن الفتى من يقول هـــأنذا　　ليس الفتى من يقول كان أبى !

نسوا وجود بلدنا على الخريطة !

ه ولإيضاح وجهة نظرى هذه ، أذكر مثالا حيًّا من الواقع ، لاحظته على مدى العشرين عاماً الماضية ، وفى جميع رحلاتى وأسفارى – ولعلّ الآلاف غيرى قد لاحظوه بدورهم ، بل لست أشكّ فى أن الكثيرين من الطلبة والطالبات الذين سافروا إلى الخارج ، منذ فتحت لهم الأبواب فى الأعوام الثلاثة الأخيرة ، قد مرّت بهم تجربته « المُرّة » ! -- فأينما حللت . كنت أصادف من يسألنى : من أى بلد أنت ؟ . . فكان يحلو لى أن أختبر ذكاء صاحب السؤال ، فألقى عليه عبء الاستنتاج . . ولدهشتى - وألمى ! – كان السائل يستعرض أسماء عشرة أو عشرين بلداً آخر ، فى جميع قارات الأرض ، ليس بينها اسم مصر ! . . كان يستنتج مثلا وعلى التوالى : الهند ، إسبانيا ، إيران ، إيطاليا ، اليونان ، البرازيل ، العراق . .إلخ . وحين يعلن عجزه فى النهاية ، ويلقى سلاحه ، فأقول له : « مصر » . . يستدرك وكأنه سمع ذكر (المريخ) : « آه ، حقًّا ؟ » .

إلى هذا الحدّ كان يندر أن يخطر اسم مصر على بال الناس فى الخارج ، أو يجول بفكرهم ، أو يتردّد على ألسنتهم ! -- وإن كانت هذه الظاهرة قد بدأت تتغيّر خلال معارك أكتوبر ، حين صار اسم مصر وسوريا على كل لسان . . كما لا بد

أن يساهم فى تغييرها – مع مرور الزمن – تزايد عدد المسافرين إلى الخارج من المصريين ، (من الطلبة وغيرهم) ، فى الأعوام الأخيرة . . ويكفى هذا كسباً لنا من حركة سفر الطلبة ، أو سفر المهاجرين إلى امريكا ، وكندا ، وأستراليا . . وهو كسب يذكّر الفرد العادى فى تلك البلاد بأن هناك بلداً له مكانه على خريطة العالم ، اسمه مصر . . وبالمرارة هذا الشعور الذى يحسُّه كل مسافر مصرىّ يصطدم بهذا التساؤل عن جنسيته ، وهذا النسيان لوجودنا !

أعود من هذا الاستدراك إلى القول بأن من واجب كل مواطن ، فى موقعه ، أن يسهم فى فرض اسم بلده على صحافة العالم عن طريق التكرار اللحوح ، بالخبر الصادق ، أو الصورة الذكية . . وليكن رائد صانع الخبر – وليس ناقله – أن يحاول جهده جعل الخبر الذى يذكر لمناسبته اسم مصر ، خبراً مشرفاً . . وليس خبراً مُزْرياً !

أفكار سياحية من (الدنمرك)

• وعلى ذكر السياحة ووسائل تنشيطها ، كى تصبح من مصادر الدخل القومى الرئيسية للبلاد ، يحضرنى مثل – من أمثلة جَمَّة ، يضيق عنها هذا المجال – أُهدِى فكرته إلى المهندس إبراهيم نجيب ، وزير السياحة ، ومعاونيه من المسئولين فى هذه الوزارة الشابّة التى ينبغى أن توفّر لها الإمكانيات الكاملة للانطلاق والانفتاح . . وهو مثل يعطى فكرة عن مدى اهتمام الدول المتقدمة بالترحيب بزائريها من السائحين ، وتحقيق التعارف بينهم وبين أفراد شعبها ، بغية ترك أحسن انطباع فى نفس السائح عن البلد والشعب ، ليصبح ذلك – تلقائيًّا ، ودون قصد – أداة للدعاية للبلد الذى زاره ، وجلب المزيد من الزائرين إليه فى المستقبل ، من بين أصدقائه ومخالطيه :

فقد كنت فى زيارة للدنمرك عام ١٩٥٨ ، وفى أثناء التأشير على جواز سفرى لدى وصولى إلى مطار « كوبنهاجن » ، قُدِّمت إلىّ استمارة مطبوعة كى أملأ خاناتها – إذا أردت – فى ثوان ، بذكر اسمى ، وعنوانى المقرر أو المرجّح فى المدينة ، ثم مهنتى أو تخصّصى ، العملى أو الدراسى . . وكان عنوان هذه الاستمارة

بالإنجليزية هكذا (MEET THE DANES) أى (تعرّف إلى شعب الدنمرك) . .
وسألت الموظف عن الغرض من ملء هذه الاستمارة ، فشرح لى الفكرة المقصودة منها : قال إن الدولة فكّرت فى أن تدعو المواطنين الذين يرغبون فى التعرف إلى ضيوف بلدهم من سياح الدول الأخرى ، إلى تسجيل أسمائهم وتخصصاتهم فى سجلّ أعدّ لهذا الغرض . . وقد أقبل الآلاف من سكان العاصمة الدنمركية على تسجيل أسمائهم فى هذا السجل . . وفى كل يوم ، يفرز المكتب الخاص بهذه العملية فى المطار حصيلة اليوم من الاستمارات الجديدة التى يملؤها السياح القادمون لتوّهم ، ثم يرسلها إلى أبناء المهنة التى ينتمى إليها كل سائح . . فإذا كان السائح طبيباً – مثلا – ترسل الاستمارة التى بها اسمه وعنوانه ، والمدة التى ينوى الإقامة خلالها فى الدنمرك ، إلى من عليه الدور من الأطباء الدنمركيين الذين استجابوا لنداء الدولة وسجّلوا أسماءهم فى برنامج التعرف إلى السائحين . . فلا يلبث الطبيب المضيف أن يرسل – بمجرد تسلم الاستمارة – دعوة إلى الطبيب السائح ، القادم من أى بلد آخر ، كى يتناول الشاى فى ضيافته وزوجته ، للتعارف ، والترحيب به ، ومعاونته على الاستفادة من الوقت الذى سيقضيه فى بلدهما ، كى يحقّق أفضل نتائج من رحلته . .

وبالفعل . . لم يمض يومان على وصولى إلى كوبنهاجن ، وملء الاستمارة التى قدمت لى فى المطار ، حتى تلقيت فى الفندق بطاقة أنيقة مكتوبة بالآلة الكاتبة ، يدعونى فيها الأديب « فلان ، وزوجته » إلى تناول الشاى معهما فى بيتهما الكائن بشارع كذا فى الساعة كذا من يوم كذا !

وتوجّهت فى الموعد المحدَّد ، فاستقبلنى المضيفان فى مسكنهما الصغير الأنيق ، وقضيت فى ضيافتهما نحو ثلاث ساعات ، تحدّثنا خلالها عن بلدى وبلدهما ، وأذهلتنى معلوماتهما عن مصر القديمة ، (وأذكر أنهما أفاضا فى الحديث عن مكانة القطط عند المصريين القدماء ، وأطلعانى على كتاب فاخر بالدنمركية ، محلّى بالصور ، عن هذا الموضوع غير المطروق ! . . ولا أنكر أننى أحسست بشىء من الخجل ، لأن معلوماتهما عنه كانت تفوق معلوماتى !) . . ثم سألانى عن مصر

الحديثة ، وشعبها ، وأحوالها . . وحدّثانى عن الدنمرك وأهلها ، وشاهدت معهما فقرات من برامج التلفزيون الدنمركى ، وهما يشرحانها لى ، ويعلقان عليها . . إلخ .

وخرجت من مسكن مضيفىّ فى نهاية الزيارة وأنا أتمنى لبلدى أن ينفذ برنامجاً مماثلا ، يتيح فيه لزائريه من السائحين فرصة « التعرف إلى المصريين » . للدعاية لمصر ، وتنشيط حركة السياحة إليها . .

لفتات رقيقة من وحى « الوعى السياحى » !

ه ومثل آخر من أمثلة براعة الدول فى الدعاية لنفسها ولصناعاتها ، وتقدم « الوعى السياحى » لدى أفرادها ، دون تدخل من الدولة :

نصحنى صديق ذات يوم بزيارة مصانع « كارلسبرج » ، التى تعدّ أكبر مصانع للبيرة فى أوربا ، لأرى نموذجاً رائعا للنظافة والتعقيم فى صناعة هذا المشروب الشعبى ، الذى تستهلكه شعوب أوربا كما نستهلك نحن الماء الزلال . وليس هذا مجال وصف الضمانات الهائلة التى توفر فيه لحماية صحة المستهلكين ، ولا مجال وصف ضخامة تلك المصانع ، التى أقيمت فى داخلها محطة سكة حديدية خاصة بها ، تخرج منها القطارات المملوكة لها محمّلة بأطنان من إنتاجها ، لتنطلق منها مباشرة إلى عواصم أوربا كافة ، على الخطوط الحديدية الممتدة بينها ! . . وإنما الذى يهمّنى من الموضوع كله فى مجال « الوعى السياحى » هو هذه « اللفتة » ، البالغة الدلالة : عند دخولى المصنع فى بداية الزيارة – وعلى غير موعد سابق – سألنى مدير العلاقات العامة الذى يستقبل زائرى المصنع كل يوم ، عن جنسيّتى ، كأنما عفواً . . ثم صحبنى متنقلا بى بين أرجاء المصنع الذى يشبه « مدينة » مترامية الأطراف . . حتى أكملنا جولتنا بعد نحو ساعتين ، فدعانى إلى المطعم المخصَّص لموظفيه ، كى يقدّم لى قدحاً من إنتاجه . . وإذا بى أفاجأ برؤية « علم مصرى » صغير يرفرف داخل إناء ، على المنضدة التى جلسنا إليها !

كل هذا والرجل يعلم أننى مجرد سائح يزور بلده ، ولست تاجراً ولا مستورداً لإنتاج مصنعه بحال من الأحوال ! . . ولكن ، هكذا يفهم كل فرد فى الدول

التى نضج فيها الوعى السياحى ، كيف يمارس الدعاية لوطنه فى كل مناسبة ومجال . . بلمسات رقيقة تجذب القلوب ، وتجلب السياح !

واجب الصحافة فى مجال تطوير المجتمع

، وأنتقل من حديث السياحة إلى حديث الصحافة ، صحافتنا ، وواجباتها نحو الشعب فى المرحلة القادمة (فى غير المجال السياسى الذى يلقى من المسئولين عن الإعلام ما يستحقّه من عناية وتوجيه) . .

وأول هذه الواجبات فى نظرى أن تتجه الصحافة اتجاهاً إيجابيًّا « ثوريًّا » ، نحو تطوير المجتمع ، وتنوير المواطنين وتثقيفهم . .

تطوير المجتمع وتنوير المواطنين ، بمحاربة البدع والتقاليد البالية المترسّبة فى أعماقنا من عصور التخلّف ، والتى لا مثيل لها فى أى بلد متحضر . . ويكفى مثالا عليها بدعة « صفحة الوفيات » فى جرائدنا اليومية – والتى استشرت « واستفحلت » إلى صفحتين وثلاث فى بعض الأيام ! – ولعلها استغلال تجارى ذكى من مديرى الصحف ، لغريزة اجترار الأحزان التى ورثناها عن أجدادنا المصريين القدماء ! . وإلا فهل يدلّنى أحد على مثيل لها فى صحافة أى بلد آخر من بلاد العالم المتقدمة ؟

فى كل بلاد الأرض تكتفى أسرة الفقيد بإبلاغ الأقرباء والخاصة بطريق التلفون ، كى يشتركوا إذا استطاعوا فى تشييع الجنازة . . أما من هم أبعد من الأقرباء صلةً بالمتوفى ، كأصدقاء الأسرة ومن إليهم ، فتكتفى بإبلاغهم النبأ بعد التشييع ، لمجرد العلم ، ببطاقة مطبوعة ترسلها إليهم بالبريد . .

أما نحن – بتحريض من صحافتنا – فنجعل من المناسبة الحزينة ، الوقورة بطبيعتها ، فرصة للقيام بـ « مظاهرة » نتفاخر فيها بالحَسَب والنَّسَب ، ونملأ ربع صفحات الجريدة اليومية بأسماء ومناصب كل من يمتُّ إلى الفقيد بصلة ، من قريب أو بعيد . . ونتبارى فى إطالة النعى و « مطّ » سطوره حتى يشغل أكبر مساحة ممكنة من الجريدة ، تدليلا على مكانتنا الاجتماعية ومكانة فقيدنا . . ثم نعيد الكرة

بعد أيام لتوجيه الشكر إلى المعزين ، فنستعرض أسماء كل من يعنّ لنا أن نتباهى بتعزياتهم . . ثم تتكرَّر القصّة فى ذكرى الأربعين – وهى تقليد مصرىّ قديم أيضا ، آن لنا أن نتخلص من طقوسه الجنائزية ! -- ثم يتنافس أفراد الأسرة فى إظهار بلاغتهم الإنشائية بمناجاتهم الفقيد فى الذكرى السنوية الأولى ، فالثانية ، فالثالثة . وهَلُمَّ جرًّا . .

دلّونى على بلد يحدث فيه هذا ، غير مصر ! . . وصحافة تفسح صفحاتها لهذه التقاليد البالية غير صحافة مصر ! . . وإلاّ فأولى بنا وبصحافتنا أن نحارب هذه البدعة ، أو فى القليل نقاوم إغراء « حب الزهو » الذى يمليها ، إن لم يكن بجرّة قلم ، فبالتدريج . .

ولست أجهل أن هذا الباب ، بل هذه الصفحات ، باتت من أكبر مصادر الدخل وموارد المال لجرائدنا ، ولكن . . لو كنت مكان الدكتورة وزيرة الشئون الاجتماعية ، لعوضت الصحف عن هذا المورد الغزير ، من أى بند من بنود الميزانية المخصصة للإصلاح . . وترشيد المجتمع !

. . والتثقيف بعد التنوير

• وبعد هذه الكلمة عن واجب الصحافة نحو تطوير المجتمع وتنوير المواطنين ، يجىء دور الصحف فى التثقيف العام . . ومظهره الأول الذى ينقص صحافتنا – مع الأسف الشديد – هو تخصيص ولو « نصف عمود » كل يوم ، وصفحة أو صفحتين من العدد « الأسبوعى » لكل جريدة ، لنشر تقييم موضوعى « نزيه » للكتب الجديدة التى تصدر فى بلدنا وبلاد العالم الأخرى . . وتقييم مماثل – غير خاضع لدوافع الدعاية والإعلان – للأفلام السينمائية الجديدة ، وأهم برامج التلفزيون والإذاعة ، مثلما تفعل صحف كل بلاد العالم المتقدمة . بحيث يكون هذا الباب دليلا صادقاً للمواطن ، يرشده إلى ما يستحق أن يقرأه ويشاهده ويسمعه ، لتثقيف عقله وعقول أهل بيته . .

الحل الأمْثَل . . لأزمة النشر !

ه ومن مجال الصحف إلى مجال « الكتب » ، يغدو الحديث ذا شجون ، مثيرة للأشجان حقًّا ! . . وحسبي هنا أن أقتبس من إحدى الدول التي زرتها في العام الماضي – وهي « المجر » – فكرة كفيلة بإيجاد حل لأزمة النشر التي وصلت إلى مرحلة الاختنـاق في « عنق الزجاجة » ، بسبب عوامل عديدة متشعبة ، ليس هذا مجال شرحها ، وإن كان قاسمها المشترك الأعظم في الواقع ليس هو أزمة الورق – فهذه لا يزيد عمرها على عام وبضعة أشهر – وليس هو نقص إمكانيات ناشري القطاع الخاص . . ولا هو بيروقراطية و « لجان » ناشري القطاع العام . . وإنما القاسم المشترك الأعظم في أزمة النشر عندنا يكمن في اختلال « اقتصاديات الكتاب » ، أي العجز عن الموازنة : بين تكلفة إصداره ، وبالتالي ارتفاع سعر بيعه ، في كفة . . وبين نقص « القدرة الشرائية » على اقتنائه ، وضعف « رغبة » الفرد في شرائه ، في الكفة الأخرى !

. . . وهي لعمري « معادلة صعبة » ، ليس لها غير حلين عمليين :

١ – فبالنسبة لنقص القدرة الشرائية عند القارئ العادي نتيجة لارتفاع الأسعار (أسعار الضروريات المعيشية ، وأسعار الكتب ، معاً) ، فالحل الأمثل هو أن نطبق الفكرة التي اتبعتها « المجر » ، حيث تشتري الجهة المشرفة على المكتبات العامة – أي دور الكتب – من كل كتاب جديد يصدر فيها أربعة آلاف نسخة لهذه المكتبات التي تنتشر في طول البلاد وعرضها ، والتي توجد مكتبة واحدة منها على الأقل في كل قرية ، وتوجد عشرات منها في مختلف الأحياء بكل بلدة أو مدينة . ولو طبّقنا هذا النظام عندنا لاستعضنا عن هذه المكتبات العامة – إلى أن توجد بهذا العدد الضخم – وحدات الاتحاد الاشتراكي ، والثقافة الجماهيرية ، والمدارس الثانوية . .

وحين سألت رئيس اتحاد الناشرين في بودابست : « إذا أتيح للقارئ أن يقرأ الكتاب بالمجان في المكتبات العامة على هذا النحو ، أفلا يؤدي ذلك في

ذاته إلى الإقلال من فرص بيعه بعد ذلك فى الأسواق ؟ » . كان جوابه الفورى : « بالعكس . فلقد أثبتت التجربة أن الكتاب الذى تتاح الفرصة لقراءته مجانا فى المكتبات العامة ، يزداد الإقبال على شرائه بعد ذلك ، كى يهديه مَنْ أعجبه إلى أصدقائه فى أعياد ميلادهم ، أو يقتنيه فى مكتبته الخاصة ، حرصاً على الاحتفاظ به فى متناوله أو متناول أهل بيته على الدوام ! »

وإذا علمت أن بيع هذا العدد من النسخ للمكتبات العامة يغطى نفقات طبع أى كتاب ويزيد ، بحيث يضمن الناشر سلفاً أنه لن يخرج خاسراً من أية عملية نشر ، وبحيث تكون حصيلة بيع أية نسخة للجمهور بعد هذا محققة لربح مؤكد ، أدركت السبب فى انتعاش حركة النشر فى تلك الدولة الصغيرة نسبياً ، التى يقلّ تعداد سكانها عن « ثلث » تعداد سكان بلد كمصر - إذ لا يصل إلى أحد عشر مليوناً – ومع ذلك فهى تنشر فى العام الواحد (حسب إحصاء عام ١٩٧٢) نحو ستة آلاف وستمائة كتاب ، طبع منها فى العام المذكور نحو ٧٢ مليون نسخة . . أى أضعاف أضعاف ما يصدر ويطبع فى مصر !

وفضلا عن تلك الآلاف الأربعة من النسخ التى تشتريها المكتبات العامة من كل كتاب يصدر هناك ، فإن أجهزة الإعلام كلها - كالتلفزيون والإذاعة تذيع ضمن برامجها اليومية فقرات للدعاية للكتب الجديدة عن طريق تقييمها والتعريف بها ، كما تسمح بالإعلان الصريح عنها مقابل أجور رمزية تافهة .

ولو أمكن أن تأخذ مصر بمثل هذا الحل ، لرحّبت دور النشر عندنا بأن تنشر فوراً أى كتاب يقدم إليها من أى مؤلف . . ولانتهت بذلك « أزمة » النشر !

كتب تستحق أن تلغى من المدارس فوراً !

٢ – أما بالنسبة لتنشيط « شهية » القراءة عند الفرد ، كما تصبح رغبة ملحة فى اقتناء الكتب ومطالعتها ، فذلك يقتضى غرس هذه الهواية فى نفوس النشء منذ الطفولة والصبا الباكر . . وعبء هذه المسئولية يقع على عاتق ثلاث جهات ، لا رابع لها : البيت ، والمدرسة ، ووزارة التربية والتعليم . .

• فى البيت ينبغى أن يتعاون الوالدان على ترغيب طفلهما فى الاطلاع والقراءة منذ نعومة أظفاره ، ويربيا فيه عادة اقتناء الكتب والمحافظة عليها ، ويخصصا له ولو رفًا صغيراً يكون نواة لمكتبة خاصة به ، تكبر وتنمو معه وهو يكبر وينمو !

• وفى المدرسة ينبغى أن تكون من أولى مهام المعلم - من الروضة إلى الجامعة - أن يغرس هواية القراءة فى تلاميذه ، ويشجعهم عليها ، ويكافئهم على ما يقرءونه خارج المقرر بوضع درجات إضافية يخص بها من يستجيب لهذا التوجيه . . كما يستطيع واضعو برامج التعليم أن يخصصوا نصيباً من الدرجات فى « المجموع » للقراءة الحرة ، بإشراف مدرسى اللغة العربية مثلا .

• أما مسئولية وزارة التربية والتعليم فهى أن تلغى - بجرة قلم ! - جميع كتب المطالعة والأدب والنصوص الحالية التى تدرّس لأبنائنا فى جميع مراحل التعليم الابتدائى ، والإعدادى ، والثانوى ، بعد أن تكلف لجاناً من مستويات مختلفة تماماً عن اللجان التى اختارت تلك الكتب ، باختيار بدائل لها يضعها مؤلفون ذوو أساليب عصرية جذابة ، تجمع بين المادة الرصينة والقالب المشوّق الذى يستأثر بلب التلميذ ويحببه فى لغته العربية بدلا من أن ينفره منها ، كما يحدث حاليًا ! . . مؤلفون يعرفون كيف يختارون للمطالعة مقتطفات من أجمل ما كتب كتاب العربية ، فى جميع العصور ، فى مكان المقتطفات التى تدرس حاليًا ، والتى تعدّ من أقبح وأسمج ما كتب كتّاب العربية وشعراؤها !

وقد أتيح لى أن ألمس الفوارق الشاسعة بين صياغة الكتب الحالية المقررة فى مدارسنا ، وبين صياغة ومختارات كتب المطالعة التى تدرس فى مدارس كل من فرنسا وإنجلترا ، حين كلفنى المجلس الأعلى للآداب والفنون منذ أشهر بدراسة هذا الموضوع . . فأذهلتنى جاذبية مواد كتبهم المخصّصة للمطالعة فى المدارس ، بالقياس إلى سماجة كتبنا . . وأدركت سرَّ الانحدار المخيف الذى أصاب لغة شبابنا فى السنوات الأخيرة ، وركاكة أساليبهم فى الكتابة والتعبير . . ولم أدهش لضعف الوعى القرائى عند أجيالنا الجديدة ، وانصراف أبنائنا وبناتنا فى هذه الأيام عن المطالعة ، وعن اقتناء الكتب بشغف ونهم كما كانت الحال فى الماضى . .

النزعة المحلية تكتسح مجالى المسرح والسينما

ه وإذا انتقلنا من عالم الصحافة والكتب إلى عالم السينما والمسرح ، فماذا نجد ؟ وماذا ينبغى أن يتحقَّق فى هذين الميدانين من « انفتاح » على العالم ؟

نجد أن الاتجاه إلى « المحلية » ما يزال سائداً ، سواء فى مجال المسرح أو السينما :

ففى مجال المسرح توقَّف – أو كاد – تقديم المسرحيات العالمية المترجمة أو المقتبسة عن أساطين مؤلفى المسرح ، سواء المعاصرون أو المنتمون إلى أجيال سابقة . . فمنذ عرضت مسرحيات « الخال فانيا » و « المفتش العام » و « زهرة الصبار » ، وإحدى مسرحيات « لوركا » . . لا أذكر أننا شاهدنا فى السنوات الأخيرة مسرحيات أجنبية من التراث المسرحى العالمى !

وفى السينما ، زحفت الأفلام المصرية فاحتلت أكثر دور العرض الكبرى ، ولعشرات الأسابيع – بل الأشهر المتوالية ! – وتقلّصت الأفلام الأجنبية ذات المستوى الرفيع ، فلم نعد نشهد منها طوال العام أكثر من بضعة أفلام قليلة ، ربما يقل عددها عن العشرات من الأفلام « الهمجية » المسماة أفلام « الكاراتيه » !

وإذا كانت حماية صناعة السينما المصرية واجباً على الدولة ، فى الحدود التى يتطلبها النهوض بهذا الفن ، وتأمين المشتغلين به على أرزاقهم . . فإن على الدولة واجباً آخر نحو مئات الآلاف من المواطنين المثقفين ، المتعطشين إلى متابعة ركب الحضارة وموكب الفن السينمائى العالمى ، فى مختلف مدارسه واتجاهاته . . ولست أغالى فأطالب بأن نجارى فى مجال المسرح عُشر ما يعرض على خشبة مسارح لندن وباريس من مسرحيات رائعة ، عصرية وكلاسيكية على السواء . . ولا أطالب بأن نجارى فى مجال السينما سيل الأفلام الجبارة التى تغمر دور السينما فى مدن أوربا وأمريكا . . وإنما حسبى أن أردِّد مطالبة مثقفينا للسلطات بشىء من الانفتاح على « عالم » السينما الأجنبية . . فليس كل المثقفين تتاح لهم فرصة السفر إلى الخارج كل عام كى يمتّعوا أبصارهم – بل أذهانهم – بالجرعة الثقافية الدسمة التى يحتويها

كل فيلم من مئات الأفلام الأجنبية ذات المستوى الرفيع التى تعرض فى جميع مدن أوربا وأمريكا ، بل التى يعرض أكثرها فى جارتنا العربية الشقيقة لبنان . .

ولكم يحزّ فى النفس – ومن واقع تجربتى الخاصة فى صباى الباكر – أن القاهرة التى كانت تشهد فى عامى ١٩٣٨ و ١٩٣٩ فى دار سينما الكورسال بشارع عماد الدين (فى مكان مسرح محمد فريد حاليًّا) ، موسماً كاملا – يمتد طوال العام – من الأفلام الفرنسية الممتازة التى كان يتألق فيها نجوم السينما الفرنسية فى تلك الحقبة من أمثال « هارى بور » ، و « جابى مورلاى » و « ميشيل مورجان » ، والمؤلف الممثل العبقرى « ساشا جيترى » . . لا تشهد الآن من عشرات الأفلام الجديدة التى تعرض فى فرنسا كل « أسبوع » ، سوى فيلم واحد فى « العام » ، للممثل الكوميدى « لويس دى فونيس » !

وأملى كبير فى أن يستجيب الوزير الأديب « يوسف السباعى » لهذا المطلب ، فيستطيع التوفيق بين حماية صناعة السينما فى مصر ، وبين حماية أذهان ونفوس الأجيال الجديدة – على الأقل – من أن يعلوها صدأ الحرمان من الثقافات العالمية الرفيعة ، فى هذا المجال . .

والله ولى التوفيق .

حمدى عباس

سيكولوجية المقاتل فى حرب أكتوبر



لم تكن حرب أكتوبر من الناحية النفسية حرباً تقليدية لتحرير أرض مغتصبة فحسب ، بل كانت عملاً مجيداً أكّد به المقاتل العربىّ قدرته الحقيقيّة على التخطيط والتفكير المنطقى السليم ، بعد أن أشاعت كل وسائل الدعاية المضادّة أن المقاتل العربىّ لا يستطيع في أىّ مرحلة من مراحل الصراع العربىّ الإسرائيلى أن يخطِّط تخطيطاً علميًّا ناجحاً لحرب ناجحة ، يخوضها تنفيذاً لهذا التخطيط المبنىّ على الحسابات الدقيقة ، ليحقق فى النهاية نصراً عسكريًّا مشرفاً . ومن هذا المنطلق لم تكن حرب أكتوبر حرب استعادةِ أرضٍ سليبة فحسب ، وإنما كانت حرب استعادةِ ثقة .

لقد وجد المقاتل المصرىّ نفسه يعمل فى ظروف تختلف تماماً عن الظروف التى عمل فى ظلها قبل حرب ١٩٦٧ وفى أثنائها . تلك الظروف كانت قائمة على سياسة استعراض القوة المظهرية دون تثبيت لدعائم هذه القوة – ولقد حدث قبل حرب ٦٧ أن قام الجيش المصرى بمناورات حربية اعتبرتها القيادة على درجة كبيرة من الأهمية ، فسارعت جريدة أمريكية تمولها عناصر صهيونية ، وبالاتفاق مع المخابرات الإسرائيلية بنشر موضوعٍ عن هذه المناورات ، وجاء فى صدر صفحتها

الأولى أن « مصرتملك أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط » . . وتناقلت وكالات الأنباء هذا الخبر على أساس أنه سبقٌ صحفى . . حتى وصل إلى الصحف المصرية فأبرزته فى صدر صفحاتها الأولى . . مُصدقةً ومُسلِّمة بكل ما جاء به . واستشرى هذا الشعور داخل الجيش . أى أن الإحساس بالقوة فى تلك الفترة لم يكن قائماً على أسس واقعية وعلمية مدروسة ، بل كان قائماً على « الإيهام بالقوة » ، مَهَّدت له وسائل الدعاية المضادّة ، فصدَّقناه . . وبعد أن خُدِّرت نفوسُنا سَعَتْ إسرائيل إلى كل دول العالم تطلب العون والمساعدة والمال والسلاح ، بصفتها الدولة الضعيفة فى المنطقة . وكنا نحن أول ضحايا « وهم القوة » .

واستُدرِجنا بعد ذلك إلى حرب ٦٧ ، ثم حدثت الهزيمة العسكرية . لم يكن فقدان الأرض هو أفدح خسائر هذه الحرب ، بل كاد أن يكون الانهيار النفسىّ وفقدان الثقة أفدحَ الخسائر وأقساها . . لقد استطاعت إسرائيل احتلال الأرض . . وحاولت « احتلال » نفسية المقاتل . ولكن هزيمة ٦٧ العسكرية ألقت ضوءاً كاشفاً قويًّا تبيَّنَّا خلاله العيوب والأخطاء والمهازل التى وقعت ؛ ومن ثَمَّ خرج الشعب ليُعلن على العالم رفضَه الهزيمة وإصرارَه على مواصلة النِّضال الحقيقى لاستعادة الأرض . . واستعادة الثقة .

تغيَّرت القيادات . . وتغيَّر معها أسلوب العمل . . وبدأت القوات المسلحة عملية التخطيط السليم والحسابات الدقيقة وتطبيق الأسلوب العلمى فى إدارة شئون الجيش المختلفة . . فأوفدت الضباط والجنـــود أيضاً فى بعثات دراسية لدول متقدمة علميًّا ، وصديقة . . وبدأت مرحلة من العمل الشاقّ الرهيب الصامت ، رفَعَتْ فيها القوات المسلّحة شعار « العرق فى التدريب يوفر الدم فى المعارك » .

وكان لتجنيد المؤهَّلين علميًّا أثر بالغ فى تطوير أساليب العمل داخل القوات المسلحة . فقد تغير الأمر تغيُّراً كليًّا بعد أن صار الجندىّ « الأمىّ » — الذى كان يتعامل بصعوبة بالغة مع بندقية بسيطة التركيب — مقاتلاً جامعيًّا أو متعلماً تعلماً متوسطاً ، يتعامل بفهم ووعى وذكاء مع آلات معقَّدة التركيب وصواريخ تعمل إليكترونيًّا . وهذا التغيُّر قد أتاح الفرصة أمام القيادات للتوسع فى عملية استيراد

الأسلحة الحديثة والمعقدة والأجهزة الإليكترونية ، وهى على يقين أن هناك عقولاً تستوعب تعقيد هذه الأسلحة ، ونستطيع أن تتعامل بها مع العدو فى براعة تسندها الشجاعة وتؤيدها الثقة . .

والأهم من ذلك أن العلاقة بين أفراد « الوحدة » العسكرية قد تغيرت أيضاً . . . فعلى سبيل المثال كان الجندىّ المتخرج فى الجامعة ، يعمل تحت قيادة « ضابط » متخرج فى الجامعة أيضاً . . وربما متخرج فى الكلية نفسها . . أو فى دفعة التخرج التى تخرج فيها هذا الجندى – واستوعب الضباط خريجو الكلية الحربية – المؤهلون علمياً وعسكرياً – هذه الروح الجديدة ، وصار ارتباط الجندى بوحدته ارتباط زمالة وصداقة وتفاهم متبادل ، فى إطار من الاحترام والانضباط الذى تفرضه التقاليد العسكرية .

ومن ناحية أخرى قام هؤلاء الجنود المؤهلون ، بعملية توعية وتثقيف وتعليم لزملائهم غير المؤهلين علمياً داخل الوحدة . وبذلك انتقلت القوات المسلحة إلى مرحلة جديدة من العلاقات . . علاقات التفهُّم العميق من المقاتلين للمعدات المعقدة التركيب . هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى . . علاقات إنسانية متبادلة بين المقاتل وقادته ، مما أدَّى إلى بلورة الهدف وراء هذا العمل الشاقّ الرهيب الدَّءُوب الصامت .

وتوافرت لدى القيادة كل الظروف للعمل على استرداد أهم ما فقدته فى حرب ٦٧ ، وهى « الروح المعنوية » وذلك بما عرف باسم « حرب الاستنزاف » . لقد كانت هذه الحرب حرباً نفسية قبل أن تكون عمليات حربية تقليدية . . ومهما قيل عن الخسائر المادية التى تعرضت لها مدن القناة أو قواتنا فى العراء ، فإن هذه الحرب التى لم تتجاوز مجموعة عمليات عسكرية خاطفة قد أكدت حقيقة لا تقبل الجدل ، هى أن بوسع الجندىّ المصرىّ أن يستردّ مكانته بين جيوش العالم عن جدارة واستحقاق .

إن أسوأ اللحظات التى تمر بالجندى المقاتل هى لحظات البقاء فى خندقه . . يتدرّب وينتظر ، ولا شىء غير هذا . . فهذه اللحظات تجعله نهباً لصراعات نفسية

عنيفة . . وتصبح نفسية الجندى بذلك . . أرض عمليات لحرب غريبة . . هى لحرب النفسية . . والنصر العسكرى لا يحرزه إلا من ينتصر فى هذه الحرب النفسية . . وتعد هذه الحرب - التى خاضتها قواتنا المسلحة طيلة سنوات الاستعداد والترقب - من أشرس الحروب النفسية التى شهدها تاريخ الحروب .

إن حجر الزاوية فى بناء الحرب النفسيّة هو « العقيدة القتالية » ، فالعقيدة القتالية للجيش المحارب هى التى تبلور كل الحقائق أمامه وتوضح له الرؤية وتحدِّد له الأهداف التى من أجلها يدور القتال . . وفى حرب ٦٧ لم تكن هناك عقيدة قتالية واضحة ومقنعة أمام المقاتل . . بل كانت هناك عدة « مسوّغات » لا « عقائد » ، فتارة يقولون له إنه ذاهب لتطهير القدس . . وتارة أخرى للدفاع عن شرفه وعرضه . . ثم رفعوا له شعار « حماية عملية بناء المجتمع ضد الأخطار الخارجية » . . وتضاربت « المسوغات » والشعارات حتى أصبح الذهاب إلى الميدان عملاً غير مفهوم ، فالمقاتل لا يعرف شيئاً عن سلاحه . . ولا عن طبيعة الأرض التى يقف عليها . . ولا عن الاسباب التى أدت لذهابه هناك . لذلك كان لا بد من حدوث تغيير جوهرى يؤدى إلى ظهور عقيدة قتالية . . سهلة الإدراك ومقنعة . . يتفاعل معها المقاتل ويقتنع بها .

العقيدة القتالية بين مصر وإسرائيل

لقد فرض الواقع التاريخى صياغة العقيدة القتالية للقوات المسلحة المصرية . فبعد أن فقدنا الأرض كان علينا أن نحدّد الهدف وهو تحرير هذه الارض . وهكذا تبلورت العقيدة القتالية ، وأصبح الهدف واضحاً ومقنعاً ، وصارت الرؤية واضحة أمام المقاتلين ، وأضحى كل فرد داخل القوات المسلحة يعرف أن العمل المكلف به هو « تحرير الأرض » . بعدها . . زال الغموض . . ولم يعد هناك مجال للبحث عن مسوّغات للقتال . . المسألة ببساطة . . أن هناك أرضاً مغتصبة بالقوة . وأنه يجب « تحرير هذه الأرض » . . بالقوة أيضاً .

وعلى الضفة الأخرى من قناة السويس كانت هناك قوات مغتصبة تحاول

صياغة عقيدتها القتالية منذ عام ١٩٤٨ . . والواقع أن من يعتقد فى وجود عقيدة قتالية واضحة وثابتة للجيش الإسرائيلى ، مخطئ واهم . . لقد حاول حاخامات الجيش الإسرائيلى الربط بين ما جاء فى كتبهم المقدسة وأطماعهم التوسعية وأحلامهم بتكوين إمبراطورية تمتد من النيل إلى الفرات . . ولكنهم أخفقوا فى ذلك . . فالمجتمع الإسرائيلى مجتمع ممزق . . يعانى من التناقضات . . والصراعات المختلفة ومن الأطماع والأحلام الشخصية . .

وبوسعنا أن نتخذ من بين أسرى الجيش الإسرائيلى اثنين فقط نموذجاً لهذا المجتمع المتناقض ، أحدهما محام يهودى أرجنتينى برتبة « رقيب » ترك وطنه الأصلى الأرجنتين سعياً وراء أحلام امتلاك قطعة أرض يدافع عنها ببندقية صيد ضد شرذمة من العرب المسلحين بالخناجر . . (هكذا قالوا له) . . أى أنه جاء سعياً وراء المغامرة والبطولة والتملك . وحين وصل إلى إسرائيل وجد نفسه فجأة داخل « أوفارول » لونه أخضر داكن . . ثم وجد نفسه فجأة فى مواجهة جيش نظامى قوى . . ثم وجد نفسه فجأة أيضاً ، بعد يومين من وصوله إلى الجبهة أسيراً لهذا الجيش النظامى . . القوى ! ! ! لقد اعترف هذا المحامى الأرجنتينى باستعداده للعودة إلى وطنه الأصلى « الأرجنتين » ، بعد أن تكشفت أمامه الحقائق . . كان الرجل يشعر بالحسرة والندم ، ولكن بعد أن فقد ذراعه اليسرى فى المعركة الخاطفة التى أدت إلى وقوعه فى الأسر . . ! !

النموذج الثانى « نقيب » إسرائيلى من مواليد إسرائيل عام ١٩٤٨ . . عاش طيلة حياته فى مستعمرات « الكيبوتز » . . تم أسره فى إحدى المعارك الخاطفة بعد أن قُتل كل من كانوا معه وعددهم حوالى ستة وعشرين ، بواسطة مجموعة من رجال القوات الخاصة المصرية عددهم اثنا عشر مقاتلاً فقط ! ! ! هذا النقيب لا يعرف عن « القضية » غير المعلومات المحددة التى صاغوها له فى الكيبوتز . . لقد جاء إلى الدنيا وهو لا يعرف إلا أن فلسطين أرضه . . وأن الصهيونية قد حررتها من المغتصبين العرب ! ثم أقنعوه بأن على جيله أن يعمل ليسترد ما تبقى لهم من أرض اغتصبها العرب من النيل إلى الفرات ! وبرغم أن هذا النقيب قد اعترف بإلحاده

وبأن أسرته كلها ملحدة وبأنه لا يؤمن بالخرافات الواردة فى التوراة والتلمود ! !
فإنه بادر بالقول إنه يعتبر التوراة سجلاً تاريخيًا لحركة الشعب اليهودى . . ورفض
بعد ذلك أن يناقش أية فكرة تتعارض مع هذه الأفكار (المزروعة فى دماغه) .

وليس الهدف هنا تحديد أى الرجلين على صواب ، ولكن هذين النموذجين
يصوِّران مدى التناقض الذى يعانى منه الجيش الإسرائيلى . . إنه جيش واحد لكنه
منقسم على نفسه عقائديًا بين مؤمن شديد الإيمان بعقيدته ، وآخر لا يهمه سوى
المجد الشخصى وبطولات قصص الغرب .

ولقد وصل التناقض مداه حين أصبح من المقرر داخل الجيش الإسرائيلى
أن المهاجرين من أمريكا وأوربا يخدمون فى الجيش داخل إسرائيل بعيدين عن
الجبهة . . أما المهاجرون من الدول الشرقية والعربية فيدفعون بهم إلى الجبهة أمام
القوات المصرية ، أو على حد تعبير أحدهم « فى مواجهة الجحيم » . . ولهذا نشأ
داخل الجيش الإسرائيلى صراع حاد بين اليهود السفرديم . . والأشكيناز .

كان هذا التناقض الصارخ ، وهذا الشرخ فى بناء الجيش الإسرائيلى ،
هو مجال هجوم الحرب النفسيّة المصرية التى شنّتها قواتنا ضد قوات العدو . أما
مجال عمل الحرب النفسية الإسرائيلية بعد ٦٧ فقد كان الدعاية المضادة القائمة
على الصَّلَف والغرور . . والتى تحاول بمختلف الطرق تثبيت فكرة « الجيش الذى
لا يقهر » ، وأن المقاتل المصرى لا يمكن أن يثبت أبداً أمام هذا الجيش فى أية
مواجهة . . وكانت حجتهم فى ذلك أن جيشنا قد هُزم من قبل فى ثلاث جولات
متتالية .

ولكن القيادة المصرية اتبعت أسلوباً جديداً فى مواجهة هذه الحملة الدعائية
المسمومة التى استهدفت احتلال « رقعة أرض » داخل نفسية المقاتل وعقله . . كما
احتلت أرضه من قبل ! كان الردُّ هادئَ النبرةِ خالياً من التشنّجات واقعيًا عمليًا . .
لا بد أن تعود إلى المقاتل العربى ثقته فى نفسه ، وفى سلاحه ، وفى قادته ، وفى عدالة
قضيته . . لذا جاء الرد بسيطاً للغاية . . أن يقف المقاتل بنفسه على مدى كذب
هذه الادعاءات ، ويتعرّف على حقائق الموقف وعلى أصالة معدنه ، ومن ثمّ بدأت

وحدات صغيرة من القوات المسلحة المصرية تقوم بعمليات عبور . . محددة هدفها . . هو :

١ – بثّ الذعر فى صفوف العدو . .

٢ – بعث الثقة فى نفس المقاتل وفى سلاحه .

لقد قامت وحدة مصرية بعملية عبور ناجحة داخل خط بارليف . . وما إن عَبَرَ أفراد هذه الوحدة إلى الأرض المحتلة حتى أحسّوا أنهم أمام الله ، وفى كنفه ، وفى مواجهة التاريخ ، وأن اللحظة التى يعيشونها هى ألف عام . . هذه حبات الرمل التى يجب أن تُستَرَدَّ كل حبة منها بقطرة دم ، أحسّ الرجال أنهم أمام تجربة مصيرية يجب أن تنجح ، ولو أدَّى الأمر إلى فنائهم جميعاً . . ولبثوا فى أماكنهم صامتين يترقّبون « الصيد » المنتظر . . وبعد لحظات قضوها فى ضحك مكتوم وتندّر وتنكيت كعادة المصريين . . ظهر الصيد . . وفجأة مزّقت الرصاصات جوف الصمت الأخرس . . وزمجرت الرشاشات ، واستحالت بقعة الأرض إلى جحيم مستعر . . وأصيب أفراد « الصيد » بذهول شلّ قدراتهم . . وسرعان ما تناثرت الأشلاء والجثث . . وعلا الصراخ بالعبرية بعبارة واحدة متكررة « النجدة ! ! المصريون ! ! المصريون ! ! » .

تمّ القضاء على الصيد . . وكان لا بد من عودة أبطالنا إلى الضفة الغربية ومعهم « الحلو » ! ! و « الحلو » عند الأبطال هو الأسير ! ولاح لهم جنديان يجريان فزعاً وهرباً . . ولم يتردّد المقاتل عبد المقصود فى تتبعهما وحده . . وأمسك بهما دون أن يطلق طلقة واحدة من مدفعه . وعادت المجموعة إلى أرض الوطن ومعها « الحلو » بعد أن حقّقت مهمتها بنجاح .

عادت الوحدة وهى تحمل إحساساً جديداً . . لم يكن سعادة غامرة وفرحة بالنجاح . . وإنما كان إحساساً بالارتياح . . لقد تمت المواجهة . . ووقف المقاتل المصرى فى مواجهة المقاتل الإسرائيلى ، ليحقق مهمته بأعصاب ثابتة ، ملتزماً بالأوامر المحدّدة ، منفذاً ذلك المخطط الموضوع بعد دراسة علمية دقيقة .

وأكّدت مثل هذه العمليات أن الدعاية التى تروّجها إسرائيل دعاية كاذبة ،

تعتمد على الكثير من المغالطات التى دفعت هى ثمنها بعد ذلك .

كان المقاتل المصرى يعود من عمليات العبور المحدودة ، فيحكى عن بطولاته وقدراته فى مواجهة جنود العدو ، فيثير هذا حميّة الرجال ويشعل حماستهم . . وأصبح العبور هدفاً ، وحلماً ، وأمنيّة شخصية . . الكل يرغب فى العمل . . الكل يهدف إلى تحرير الأرض . . الكل يسعى إلى النصر ، أو الشهادة . .

ومن هنا قضينا على « الأسطورة قبل الحرب » . . ومن هنا استعاد المقاتل المصرى ثقته فى نفسه ، وفى سلاحه ، وفى قيادته ، وفى عدالة قضيته . . وعقيدته القتالية . وأصبح قادراً على خوض معركة التحرير . . لكن كان عليه أن ينتظر . . وبقى على القيادة أن تُجرى حساباتها بدقّة . . وأن ترقب المتغيرات الدولية . . وترسم خططاً تعتمد كل الاعتماد على الأساليب العلمية فى الإدارة . . إدارة النيران . . وإدارة المعارك .

وتحقق لنا النصر فى الحرب النفسية . . قبل أن يتحقق فى المعارك الحربية .

وبعد أن حققت حربنا النفسية أهدافها إلى حد كبير ، وأحرزت نتائج لا بأس بها فى كثير من الأحيان ، بدأت مرحلة الاستعداد للحرب . لم تكن هناك ديكتاتورية فى التفكير أو التخطيط . . بل كانت هناك دراسات وبحوث وحقائق علمية وآراء مختلفة ومتعارضة . . تخرج من احتكاكها نتائج ثابتة وواضحة . . وتمت دراسة دقيقة مرهقة للاحتمالات السياسية الدولية كافة . . والمتغيرات ، والاقتصاد ، والسلاح ، والذخيرة ، والرجال ، والاحتياط ، واليوم ، والساعة ، وزاوية ميل الشمس ، وسرعة تيار الماء فى القناة ، والتنسيق بين الجبهات ، والتمويه والخداع . . و . . انطلق القرار كالرصاصة . . مارقاً . . مدوّياً . . « العبور . . لتحرير الأرض » . .

لم يحدث أن قرأنا من قبل فى تاريخ الحروب المعاصرة عن قوات حربية تذهب إلى ميدان القتال ، والسعادة تغمر رجالها ، والفرحة تعلو وجوه المقاتلين . . ولكن حدث هذا للجيش المصرى لحظة صدور الأوامر بالتحرك تجاه الأرض المغتصبة لتحريرها . لم يكن أحد يجهل أن الحرب آتية لا محالة . . لكن قرار

الحرب كان يحمل فى طياته مفاجأة لها مذاق خاص . . فقد كانت هذه ساعة الخلاص . . لقد وقف الجنود والضباط يتعانقون فى فرحة وسعادة مجنونة . . فقد أسكرهم منظر الطائرات المصرية بأعدادها الهائلة وهى تعود من داخل سيناء ، بعد أن دكت حصون العدو ومطاراته فى عمق سيناء ، ومهّدت الطريق للرجال ليحرّروا الأرض . . وصاح أحد المقاتلين قائلاً : « أخيراً رأيت سلاحنا الجوى يعمل بجانبنا . أنصتْ إلى أزيز الطائرات وهديرها . . إنه نغم ! ! » .

واندفع المقاتلون . . وخرجت من حناجرهم صيحة « الله أكبر » قبل أن تفسح المجال لصراخ الطلقات المحمومة ، وزمجرة الدانات ، وزئير الصواريخ وتمت المواجهة التى كان ينتظرها كل مقاتل منذ ستة أعوام . .

ولعلى لا أذيع سرًّا حين أقول إن دقة التخطيط وحكمته وصلت إلى حدّ أن القيادة أجرت « بروفات » لهذه الحرب قبل موعد التنفيذ بعام كامل . . وكان لهذا الجهد الخارق فى التخطيط والتنفيذ أثرٌ بعيد المدى لدرجة أن خسائرنا فى اليوم الأول للقتال لا تكاد تذكر . . فى حين أن الخبراء العسكريين توقّعوا أن خسائر محاولة العبور فقط قد تبلغ حوالى ٧٥٪ من القوة البشرية والعتاد ولكن الشعار الذى رفعته القوات المسلحة « العرق فى التدريب يوفر الدم فى المعارك » قد تحقق برغم كل التوقعات .

لا أحد يجهل قصص البطولة والفداء التى شهدتها أرض سيناء . . لا أحد ينسى الرجال الذين ألقوا أجسادهم فوق الألغام ليمر زملاؤهم فوق جثثهم ! ! . . لا أحد ينسى الرجل الذى سدّ بجسده دشمة مدفع لا تتوقف طلقاته . . ليمنعها . . حتى يعبر زملاؤه إلى هذ الحصن ويدمروه ! . . لا أحد ينسى الرجل الذى رمى جسده فوق السلك الشائك الذى أحاط بموقع حصين ليعبر الرجال فوق جسده ويدمروا هذا الموقع ! . . لا أحد ينسى هذه الأعمال الخارقة والبطولات الفذّة التى أكدت أصالة المقاتل العربى وشجاعته وبطولته .

لم يكن الإحساس الذى سبق الحرب إحساساً بالخوف التقليدى الذى يشعر به المقاتلون فى أى مكان فى العالم قبل الحرب . . بل كان إحساساً بالارتياح . . .

إحساساً بأن لحظة الثأر الشخصى قد حانت . . إحساساً بأن الرجل فى طريقه ليطفئ جذوة النار التى ظلت متأججة فى صدره ست سنوات . . إحساساً بالخلاص !

إن هذه الروح التى انطلقت فى العاشر من رمضان . . لم تكن روحاً مكتسبة . . أو وليدة ظروف خاصة . . بل كانت روحاً أصيلة أطلقتها هذه الحرب من مكامنها . . وحيث إنها شىء ثابت لا يتغير ولا يفنى أو يتبدد فسوف تظل أبد الدهر باقية كما هى . . زاداً يخوض بها المقاتل ما بقى من جولات أخرى .

د. السيد أبو النجا

الإدارة بعد معركة العبور





فى رأيى أنه برغم ما أفاض فيه الكتّاب من تقييم لمعركة العبور فى ٦ أكتوبر الماضى ، وبرغم هذا التعبير البليغ الذى شاع بعد أن صكه قلم توفيق الحكيم فقال : « لقد عبرنا الهزيمة » ، وبرغم ما سرده الباحثون من آثار هذا العبور على النواحى السياسية والاجتماعية فى العالم العربى ، فإن هناك حقيقة لم تستهو الكاتبين إليها حتى الآن كما استهوتهم اعتبارات الذات ، فدبّجوا المقالات فى استعادة العرب ثقتهم بأنفسهم ، ورد الاعتبار للكرامة العربية الجريحة ، واستعادة الأرض السليبة والذود عن الحقوق المشروعة لشعب فلسطين . . ونسوا فى غمرة حماسهم للنصر أن العامل المؤثر من خلف هذه النتائج كلها هو التخطيط الذى حدد وقت المعركة ، وحشد الجهود العربية من حولها ، وجمع السلاح المتكامل من أشتات المصادر ، ووجّه الاتفاقيات والعملات الصعبة والمحلية لمواجهة النفقات . هو القيادة الرشيدة التى لم تضيع وقت العرب فى الخطب الطنانة ، والشعارات الرنانة ، ولم تلهب شعور الجماهير بالحديث عن إسرائيل « المزعومة » ، وعن ظلم الاستعمار ، وأساليب الغدر والخيانة ، وعن الإباء وعدم التسليم بالهزيمة .

لقد توقفت القيادة عن الإسهاب المعتاد فيما فقدناه ، وعن سبّ الصهاينة

الملاعين ، والأمريكيين الكاذبين ، وعكفت على استقصاء نواحي القوة فى إسرائيل ، وتدبير الإمكانيات لمواجهة هذه النواحى ، واستعراض البدائل لبدء المعركة ، واختيار الحل الأمثل من بينها . ثم لم تضيع الممكن فى طلب المستحيل ، كما يقول الدكتور محمود فوزى ، ولم تقم بأعمال بهلوانية فى طلب التصفيق ، وإنما توقفت حين رأت التوقف أحكم من السير.

لقد كنت أنصت لأنور السادات فى الساعات الحالكة فأتخيله محاسباً يصور حساب الأرباح والخسائر فى كل حركة ، ويضبط ميزان المراجعة ليقارن بين المكاسب والتضحيات بعد كل مرحلة . كان مجلس الشعب يستقبله بالهتاف والتصفيق فلا يرد بغير الابتسام ، ويضع قبّعته العسكرية على المنضدة ثم يقول : « باسم الله » ، ويحاضر فى هدوء بدل أن يخطب فى ثورة ، ويتحدث إلى العقل بدل أن يتملق العاطفة ، ويتجه إلى المجتمع الدولى بلغة الإنصاف بدل أن يتباهى بلغة القوة . فإذا ذكر رئيسة وزراء إسرائيل فهى « مسز مائير » وليست شيئًا أقل . ذلك ومدافعنا تدك الحصون ، وصواريخنا تملأ الجو .

هكذا « صنع » أنور السادات قرار العبور ولم « يصدره » فقط صنعه من مواد أولية كثيرة ألف بينها ، ثم راقب عملية الصنع ، وجعل يختبر الجودة ، حتى وصل إلى النقطة التى انتهى عنـــدها « تزايد الغلة » بلغـــة الاقتصاديين ، فأوقف آلة الحرب قبل أن تدخل المعركة دور التصفية ، فإن أخذ العرب حقوقهم بالمفاوضة فذاك ، وإلا فعلى السياسة الأمريكية أن تشهر إفلاسها ليبدأ هو الحرب من حيث انتهى .

وكما كان للإدارة الرشيدة أثرها فى تحقيق العبور ، وفى الحصول على نتائج إيجابية فى الأيام الأولى من المعركة ، فقد كان لإهمال ناحية إدارية هامة هى الاتصال Communication أثره الكبير فى الاختراق الإسرائيلى يومى ١٥ و ١٦ أكتوبر. فقد كشف التحقيق عن أن نتائج الاستطلاع لم تكن تبلغ بسرعة إلى القائد الأعلى ، وأن قواد الفرق الميكانيكية لم يكونوا قريبين من قواتهم ليعطوهم التعليمات اللازمة أولا بأول . إن نقص الاتصالات العسكرية هو الذى سبب ثغرة الدفرسوار.

ومن وحى الروح الواقعية لأنور السادات أنه أمر بإطلاق حرية الكلمة والإفراج عن المعتقلين وإعادة القضاة إلى أماكنهم وإلغاء الحراسة ، ليجعل من الجبهة الداخلية سندًا قويًا يمده بالأحرار الذين يدافعون عن حرياتهم ولا يسوق له المقيدين بالأغلال وهم عبء على المعركة ، لأنه ليس فى قلوبهم ما يشدهم للقتال .

ثم واجه الرئيس واقع البلاد فلم يؤثر أهل الثقة ويخاصم أهل الخبرة ، لأنه عرف أن أهل الثقة ليسوا أهل نصح بقدر ما هم أهل تأييد ، وأن أهل الخبرة – وقد بعدوا بأنفسهم عن المشاركة فى تسيير الأمور على كره منهم – قد آن الأوان لإرضائهم والاستفادة بكفاياتهم .

ولم يستمع لقول من قال : « إن العبرة ليست بالربح وإنما هى بمدى استجابة المنشآت للأهداف الاشتراكية » ، وجعل شعاره السلامة المالية ، وعن طريقها عمل لتحقيق الأهداف القومية . وهكذا أخذ يحوّل الاشتراكية إلى وسائل عملية لزيادة الإنتاج ، رفع دخول العاملين وتوفير العملات الحرة ، ولم يقف عند ترديد الشعارات وعقد الاجتماعات وتنظيم الشلل وتوجيه المطالبات لرؤساء مجالس الإدارات .. هؤلاء الرؤساء الذين أصبحوا يشعرون أنهم على قدم المساواة مع باقى العاملين ، فلا يفصلون إلا بعد تحقيق ، ولا يوضعون فى السجون إلا بحكم القضاء ، ولا يشتمون فى الاحتفالات العامة لأنهم من نسل الرأسماليين وأتباع آدم سميث !

والحق أننا نجحنا اجتماعيًا ولم ننجح اقتصاديًا حتى الآن . نجحنا فى رفع رءوس العاملين والفلاحين أمام أصحاب رءوس الأموال ، وفى تحريرهم من الإقطاع وتعليمهم قراءة الصحف ومتابعة أنباء العالم ، وقضاء الإجازة الصيفية على شاطئ البحر ، وتعليم أبنائهم فى الجامعات وإيفادهم إلى أوربا – وليس هذا بالشىء القليل من الناحية الاجتماعية – ولكننا لم ننجح حتى الآن فى رفع دخولهم بما يوازى الارتفاع فى الأسعار .

والسؤال الآن هو : كيف نتجه فى سيرنا لنجعل من سياستنا الاقتصادية وعاء لما حققناه من نجاح اجتماعى ؟ إن السياسة الاقتصادية تظل حبراً على ورق مالم تأخذ الإدارة بيدها إلى ما تصبو إليه من آمال . والسبيل إلى إصلاح الإدارة

عسير بعض الشيء ، ولكن الذى يدعونى إلى السير فيه هو حرية الحركة التى هيأها لنا هذا العهد . لقد أصبح البوح بما فى الصدور ممكنًا ، فعلى الإداريين أن يأخذوا مكانهم على الطريق مع السياسيين .

إن إصلاح الإدارة يأتى من بابين كبيرين :

أولهما : تخليص القطاع العام من فائض العمالة .

وثانيهما : إطلاق يد المديرين فى إثابة المجتهد وعقاب المقصر .

أما عن الباب الأول فقد أعلنا مجانية التعليم فى المرحلتين الثانوية والجامعية ، ولم نتوسع فى إنشاء المعاهد وإعداد الأساتذة ، وإنما حشرنا أعداداً متزايدة من الطلاب فى الفصول والمدرجات دون أن نكفل لهم المستوى العلمى المطلوب ، ثم فرضنا الخريجين على الشركات فغاصت بهم حتى أوشكت أن تغرق .

وأخّرنا تعليم اللغة الإنجليزية إلى المرحلة الثانوية توفيراً للعناية باللغة العربية فحق على خريجينا قول طه حسين : « إن أمىّ القرن العشرين هو الذى لا يعرف لغة أجنبية » فكيف بخريجينا وهم لا يجيدون اللغة العربية ؟

ولم نوجه الحاصلين على الشهادة الإعدادية بمجاميع قليلة من أول الأمر إلى المدارس الحرفية كالنجارة والبرادة والكهرباء والسباكة والحلاقة وغيرها ، كما لم نوجه الحاصلين على الثانوية العامة بمجاميع قليلة إلى المعاهد المهنية التى تخرج مساعدى الهندسة ومعاونى الصحة والعاملين فى الفنادق والممرضات فى المستشفيات . . . إلخ . وبهذا كان يمكن أن نقصر دخول الجامعات على المتفوقين من الطلاب الذين يصلحون فعلا لقيادة المجتمع فى مجالات تخصصهم ويجدون مقعداً يجلسون عليه ، ومعملا يتدربون فيه ، وأستاذاً يشرف عليهم فى دراساتهم وبحوثهم .

إن التعليم لم يعد ترفاً ذهنياً كما كان فى الماضى ، وإنما هو عملية استثمارية ، ومالم يعد على البلاد بأكثر مما أنفق فيه فهو عملية خاسرة . لقد أصبحت الدولة بالتعليم الجامعى فى خدمة الفرد ولم يعد الفرد فى خدمة الدولة . وإلا فما قيمة الأعداد الهائلة من الخريجين الجامعيين إذا كان نوعهم من مستوى يقل كثيرا عن المطلوب ؟ لقد طلبت مرة من أحد عمداء كلية الهندسة – وهو صديق – أن يرشح لى مهندساً

إلكترونيًا فرد بالموافقة ، ولكننى قلت مستمرًا : « أريد مهندساً ينتج » فعقب مستدركاً « أما المؤهل فنعم ، وأما الإنتاج فلا . . وكيف تريده أن ينتج وليس فى الكلية ورشة إلكترونية على الإطلاق ؟ » ، قلت : « إذن لماذا تدعون أنكم تخرجون مهندسين إلكترونيين ؟ » فقال فى صوت خفيض : « لعل من الأفضل حقًا أن نذكر فى شهادة البكالوريوس أن فلانا خرج من الكلية ولم يتخرج فيها ! » .

إن مشكلتنا الإدارية الأولى فى رأيى هى انخفاض مستوى الخريجين وإغراق شركات القطاع العام بهم ، فيثقلون كاهلها ويأكلون أرباحها . وفائضهم يزداد عاماً بعد عام ، فعلينا أن نعبر هذا الفائض كما عبرنا الهزيمة . ليس معقولا أن يكون طلابنا جميعاً – دون طلاب العالم أجمعين – صالحين للجامعات . إن أكثرهم ليسوا طلاب علم وعمل ، وإنما هم طلاب خمسة وعشرين جنيهاً فى الشهر ، طلاب مكتب وكرسى فى مصلحة حكومية أو شركة من شركات القطاع العام . طلاب مركز اجتماعى له حقوق وليس عليه واجبات . ولست أفهم هذه المحاباة لخريجى الجامعات دون سواهم من المتعطلين والعجزة والمتسولين . إن ذوى المؤهلات أقدر من غيرهم على أن يدبروا لأنفسهم سبل العيش ، ويكفى أن الدولة ساعدتهم حين علمتهم بالمجان .

وحتى تكون كل شركة على بينة من أمرها لابد أن يكون لها « حساب خدمات » ترحل إليه العمالة الزائدة التى فرضت عليها دون أن يتطلبها الإنتاج ، ثم يكون الحكم على مدى نجاحها برصيد أرباحها وهو القيمة المضافة . أما مرتبات المقيدين فى حساب الخدمات فتنقل بالتدريج إلى حساب الأرباح والخسائر كلما احتاج العمل إليهم .

ولابد أن يلغى نهائيًا مبدأ توزيع الخريجين على الشركات ، ويترك لكل شركة أن تأخذ وأن تختار ما تحتاج إليه من العاملين ، فخير أن يكون فى السوق عاطلون من أن تنتشر البطالة المقنعة فى داخل الشركات فتربك أعمالها .

وإلى أن يتم هذا الإلغاء يحسن أن يكون التعيين مقصوراً على غير القاهرة والإسكندرية من المحافظات ، فهى أقل ازدحاما بالعاملين ، وأكثر احتياجًا للإصلاح .

وتخفيضاً من الزيادة القائمة يحسن الإعلان عن استعداد الدولة لدفع نصف المرتب لكل سيدة ترغب فى اعتزال الخدمة ولو إلى حين . فلا شك أن كثيرات منهن تقتضى ظروفهن العائلية بقاءهن فى بيوتهن . إن فى ذلك فائدة لهن وتوفيراً على الدولة .

وأما عن الباب الثانى فإن المديرين يمثلون الدولة التى هى صاحبة رأس المال . والدولة اختارت كلا منهم بعد فحص وتقليب ، فلماذا لا تضع ثقتها فيهم ؟ لماذا تطالبهم بالإنتاج وتغلّ يدهم عن الإصلاح ؟ هل معنى الاشتراكية أن يستوى الذين ينتجون والذين لا ينتجون ؟ وهل يصح فى الأفهام أن يرتقى العامل بفعل الزمن ولا يرتقى بفعل ما يقدم من عمل ؟ وما فائدة الهرم الإدارى إذا كان الذى على قمته لا يملك الحكم على الواقفين فى مواقع الإنتاج ؟

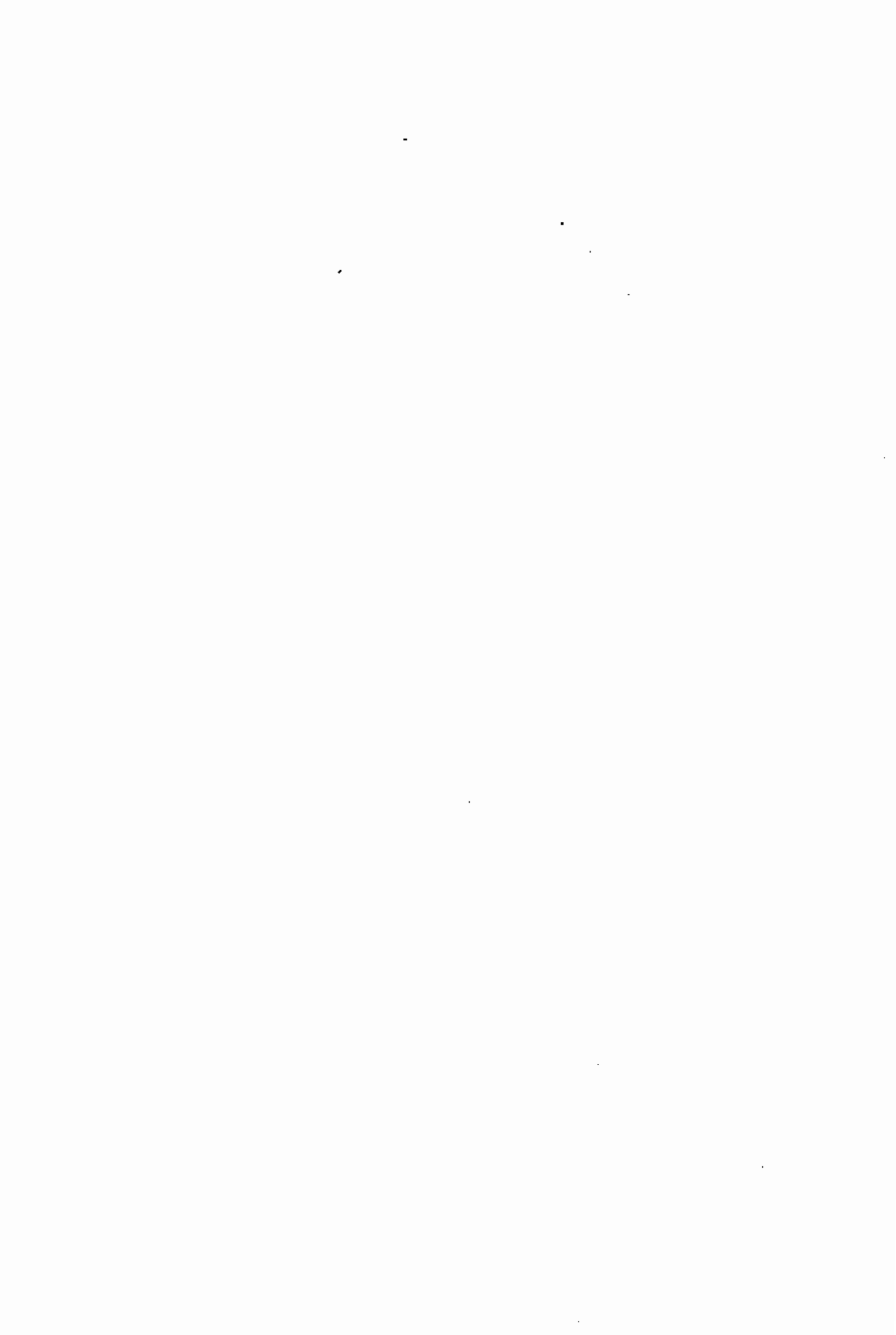
إن التخطيط لمعركة العبور كان بحكم الظروف مقصوراً على خط النار . أما ونحن نستعد الآن لمواجهة طويلة مع إسرائيل فلا عاصم اليوم من الهزيمة إلا أن ننهض باقتصادنا . وليس يكفى لهذه النهضة أن نفتح الأبواب للأموال العربية والأجنبية ، بل لابد من القضاء على هذا الخلل الإدارى الذى يخرّب كل شىء . لابد من تنظيم الأداة الحكومية بحيث تستجيب لمتطلبات أصحاب المصالح ، وتحشد عوامل الإنتاج لكى تتعاون فى تحقيق أكبر عائد مستطاع .

إن الانفتاح الاقتصادى مفيد كل الفائدة بل هو ضرورى ، ولكنه فى الوقت نفسه خطير كل الخطر ، فهو يزيد الطلب على السلع الاستهلاكية فيدعو إلى التضخم وارتفاع الأسعار إن لم يقابله زيادة فى الإنتاج . وهو يحمل البلاد عبء فوائد رأس المال ، فلابد أن يكون العائد من رأس المال أكبر من الفائدة عليه . إن رأس المال الأجنبى يفقد البلاد سيطرتها على مقدراتها إذا لم ينهض رأس المال الوطنى معه فى الوقت نفسه . ولا عبرة بالتكنولوجيا الوافدة إذا بقيت ملك الأجانب وحدهم ، فالعبرة هى بانتقالها فى الأجل الطويل إلى أيدى المصريين . إن الانفتاح الاقتصادى قد يدعو إلى « الرفاهية » الاقتصادية ، ولكنه لا يدعو بالضرورة إلى « التنمية »

الاقتصادية . وما نريده فى بلد اشتراكى كبلدنا هو التنمية ، لأنها هى التى تعود بالخير على القاعدة .

لقد اعترفنا بأخطائنا فى هزائمنا السابقة مع إسرائيل فعبرنا فى ٦ أكتوبر الماضى ، ويبقى أن نعترف بأخطائنا فى الإدارة لنضعها أيضاً فى الماضى ، ونضع الصحيح فى الحاضر ، والتخطيط فى المستقبل .

والله يهيئ لنا من أمرنا رشدا .



يوسف السباعى

الثقافة حق الجميع







إذا كان التعليم هو أحد الخدمات الأساسية التى تلتزم الدولة بأن تكفلها لجميع المواطنين . . وإذا كان الغذاء والكساء والمسكن هى الضرورات التى تعمل الدولة بأجهزتها المختصة على توفيرها للمواطنين . ومن أجل كفالة التعليم ومن أجل توفير هذه الضرورات ترصد الدولة فى ميزانيتها عاماً بعد عام عشرات الملايين من الجنيهات وعشرات الملايين من العملات . وتبذل الجهود وتحشد الطاقات فى سبيل تحقيق ذلك فإن الثقافة بدورها قد أصبحت إحدى الخدمات الأساسية التى تلتزم الدولة بتقديمها وتتعهد بإتاحتها للمواطنين على اختلاف أعمارهم وتنوع مشاربهم وتباين اتجاهاتهم ومسالكهم فى الحياة .

وإذا كان دخول الثقافة فى مضمار الخدمات التى تلتزم الدولة بإتاحتها للمواطنين قد جاء متأخراً فى الدور أو فى الترتيب من الناحية التاريخية – ذلك لأن أول ما التزمت به الدول فى نشأتها الأولى أن تقدم خدمات الأمن الخارجى والأمن الداخلى والقضاء بين الناس فى المنازعات فقد أخذت الخدمات التى تقع فى مسئولية الدولة تتتابع وتتزايد وظلت الثقافة حيناً من الدهر تعتبر من ألوان الترف أو أدوات الزينة أو أسباب تزجية الفراغ حتى اكتمل للدولة بنيانها وتباينت مصالح أبنائها وتشعبت

بهم المسالك وتعددت الدروب . وظهر أثر الثقافة فى التفرقة بين المواطنين وفى معايير الحكم على حظهم من التميز أو التفوق أو الموهبة أو النبوغ . ومن ثم أصبح للثقافة معناها وفحواها . وأصبح للثقافـــة ألوانها وينابيعهـــا ، وأصبح للثقافـــة روادها ومريدوها . وبدأت الثقافة تتسلل إلى مجمع الخدمات التى تتولاها الدولة والتى تحرص الدولة على توليها ، والتى تدرك الدولة خطرها فى تكوين الإنسان وصياغة حياته وشحذ قدراته وإبراز مواهبه وملكاته . . .

وعلى الرغم من أن الثقافة تعتبر آخر الخدمات التى أخذت الدول نفسها بإتاحتها أو بتوفيرها أو بكفالتها لمواطنيها فقد استطاعت عبر القرنين التاسع عشر والعشرين أن تثبت وجودها فى حياة الدول وأن تؤكد أهميتها وأن تكون فى النهاية أبرز وسائل التفاضل والتمييز بين الدول .

وعلى قدر تقدم الدولة فى مضمار الحضارة على قدر حفاوتها بالثقافة كإحدى الخدمات العامة التى تلتزم الدولة بتقديمها لمواطنيها . وعندما تصبح الثقافة إحدى الضرورات الأساسية فى حياة المواطنين فى إحدى الدول فذلك شاهد على أن هذه الدولة تضع نفسها حيث تريد فى صف الدول المتقدمة . وحيث تتواضع الثقافة وتبحث عن مكانها فى حياة المواطنين فى إحدى الدول فذلك شاهد على أن هذه الدولة لا تعدو أن تكون دولة نامية تحاول أن تجد لها مكاناً فى السباق الخطير الذى تحاول كل دولة أن تجد لها مكاناً فى حلبته أو فى مضماره .

والثقافة هى الوجه الجميل لعملة واحدة وجهها الآخر هو التعليم . وإذا مضينا فى التشبيه فإن التعليم وهو الخدمة الأساسية التى تلتزم بها الدولة فى مصر العربية هى الوجه المكتوب من وجهى العملة ، أما الثقافة – وهى الخدمة اليافعة العمر التى تحاول الدولة إتاحتها للناس فى بلادنا – فهى الوجه المصور الذى يجلوه الفن للعين المجردة فيمتعها بجمال الصورة وطلعتها قبل أن تجهد العقل والبصيرة بالقراءة والفهم . وإذا كانت الدولة تلزم المواطنين بالتعليم وتسميه فى مرحلته الأساسية التعليم الإلزامى فإن واجب الدولة أن تتيح للمواطنين الحق فى المقابل الجذاب للتعليم وهو الثقافة . من أجل ذلك فإننى أعتبر الثقافة هى الوجه الجذاب للمعرفة

التى تختفى منها صورة المعلم المتجهم وعصا المؤدب ، ورهبة الفصل الدراسى ومحنة الامتحانات الخاصة والعامة .

وإذا كانت الثقافة قد دخلت مضمار الخدمات العامة ، التى تلتزم الدولة بتوفيرها للمواطنين على استحياء شديد منذ السنوات المتوسطة فى القرن الحالى الذى أوشك أن ينصرم ويستسلم لبوادرقرن لاحق ، فإن ضرورتها لحياة الناس قد وضحت وضوحاً لا يحتاج إلى دليل . وكان من أوجب واجبات الدولة أن تلتفت التفاتة قوية نحوهذا القادم على استحياء فى مضمارالخدمات الأساسية وهوالخدمة الثقافية ، وأن تأخذ بناصرها وتكفل لها الاعتمادات والإمكانات . ومع ذلك فقد ظلت الثقافة ولا سيما بعد نكسة يونيو تتنقب برقع الحياء ، وتتوارى أمام سؤالين بالغى الأهمية ، ظلا طويلا يقفان فى وجه الثقافة وهما : هل توفيرلقمة العيش للناس أوجب فى ترتيب مسئوليات الدولة أو توفير الثقافة؟ . وهل توفير سلاح الدفاع عن الوطن المستباح ألزم فى ترتيب واجبات الدولة أو إتاحة الثقافة ؟ . وكانت الإجابة المبادرة عن السؤالين إجابة واحدة وهى على ظاهر الأمر إجابة لا يختلف عليها اثنان . وهى أن لقمة العيش أحق وقطعة السلاح ألزم . وبالتالى فقد ظلت الاعتمادات المالية التى ترصد للثقافة تتواضع وتتراجع حتى أصبحت لا تكفى لمواجهة مطلب واحد من مطالب الثقافة . . .

ومن دواعى الأسف أن أقرر باقتناع أن طرح القضية بهذه الصورة أو تقديم السؤالين بهذا الأسلوب قد كان ينطوى على ظلم بين بالنسبة لقضية الثقافة ولمفهوم الثقافة ، ولموقع الثقافة من الإنسان على هذه الأرض . فإذا كان الزاد والعتاد أولى برصد الأموال وحشد الجهود فقد كانت الثقافة وستظل زاداً وعتاداً ، وبغير الثقافة لا يهضم زاد وبغير الثقافة لا يقدح زناد . ولعل ما حدث فى أكتوبر العظيم هوالذى يقودنا إلى هذه الحقيقة . . فقد كانت الثقافة زاد المحاربين ، وقد كانت الثقافة عدتهم فى التوفر على أساليب الحرب ومعدات القتال ، وقد كانت الثقافة هى الشعلة التى ألهبت عزائمهم وشحذت بواعث الإيمان فيهم .

فإذا كان لى أن أتحدث عن دور الثقافة بعد أكتوبر العظيم فما كان يجوز

لى أن أقدم لهذا الحديث بغير ما قدمت من شأن الثقافة وخطرها بالنسبة للخدمات الأساسية التى تلتزم الدولة بتوفيرها ، ومن تعريف للثقافة بأنها الوجه الجذاب للمعرفة الإنسانية والتى تتحول إلى سلوك فى الحياة .

وإذا كان أكتوبر العظيم قد استطاع أن يعبر بنا مفازة النكسة وسواد ظلمتها ، وأن يعبر بنا مرارة الهزيمة لينقلنا إلى آفاق النصر وآلاء الأمل ، فإن دور الثقافة فى هذا العبور وفى هذا الانتقال وفى مرحلة ما بعد النصر هو من أخطر الأدوار وأوجبها بالتصدى والاعتبار .

وإذا سلمنا بأن الثقافة هى الوجه المشرق للعملة وهى الصورة الجذابة للمعرفة وهى محصلة جدول الضرب دون عصا العلم ، وهى ثمرة العلم دون رهبة الفصل ، فقد أصبح من أوجب واجبات وزارة الثقافة ومن ورائها الدولة أن تتيح لجميع المواطنين من أسباب الثقافة ، ومن ألوان الثقافة ، ومن عطاء الثقافة مايلى :

أولا : فى مجال الكلمة المطبوعة أو المخطوطة :

من حق كل طفل من أبنائنا أن يجد الكتاب الشائق بصوره ، الجذاب بطريقة إخراجه ، الذى يقدم له كل ألوان المعرفة سواء عن نفسه أو عن وطنه أو عن وجوده أو عن عالمه .

من حق كل شاب من شبابنا أن يجد الكتاب الوافى بمضمونه الحافل بمحتواه المتاح بسعره يقدم له حاجته من العلم ومن الأدب ومن الفن بكل ألوانه ومن مختلف منابعه وبكل اللغات التى يحتاج إليها تعليمه .

من حق كل مواطن من مواطنينا أن يجد الكتاب الذى يستثير رغبته فى المعرفة ، والذى يلبى حاجته إلى الاستزادة ، والذى ينقع غلته من التزود ، وأن يكون سعره فى متناوله أو استعارته مكفولة ميسرة .

من حق هؤلاء جميعاً أن يجدوا المجلة الحافلة بكل جديد فى العلم وفى الأدب وفى الفن .وبخاصة المجلات ذات التخصص ، منها ما يطبع فى مصر ومنها ما يستورد من الخارج من البلاد المختلفة .

من حق هؤلاء جميعاً أن يجدوا كل هذا متاحاً لمن يشاء . ولمن يقدر على شرائه وعلى اقتنائه . ومن حق هؤلاء جميعاً أن يجـــدوه متاحاً لمن لا يملك القـــدرة على الشراء والاقتناء أن يجد الفرصة المواتية للاستعارة والاطلاع فى المكتبات العامة وفى المكتبات الخاصة ، وفى المكتبات المحلية وفى المكتبات المدرسية .

وهذه الحقوق تعمل وزارة الثقافة بعد أكتوبر العظيم على إتاحتها وعلى توفيرها ، ولعل الدولة أن تقدم لها من الاعتمادات ما يكفل لها تحقيق ذلك .

ثانياً : فى مجال الكلمة المسموعة أو المقولة :

من حق كل طفل من أبنائنا أن يجد الكلمة التى يهفو إلى سماعها فى مسرح خاص بالطفولة ، سواء كان مسرحاً للعرائس والدمى ، أو مسرحاً للأداء الدرامى من لداته الأطفال ، وأن يجد قاعة الموسيقى التى يستمع فيها لألحان الموسيقى العربية والموسيقى العالمية ، وأن يجد قاعة الندوة التى يستمع فيها إلى ألوان من الحوار الذى يغذى رغبته فى المعرفة ، وتطلعه للاستفادة وانجذابه نحو المجهول .

من حق كل شاب من شبابنا أن يجد الكلمة التى تعبر عن مشاعره وتحكى نوازع قلبه وهواتف عقله ، فى مسرح يقدم ما يمتعه وما يصقل مواهبه وما يشحذ قواه ، وينقل إليه روائع المسرح العربى وروائع المسرح العالمى وألوان الفكاهة والمتعة الوجدانية .

من حق كل مواطن من مواطنينا أن يجد المسرح الذى يستطيع أن يغسل فيه متاعبه وأن ينسى فى الاستمتاع بعطائه كل ما حاق به من جهد وما ألم به من تعب ، من حق هؤلاء جميعاً أن ينسوا صراعات الحياة ومتاعب العمل ومطالب العيش فى سهرة ممتعة ، يتذوقون فيها الفن فوق خشبة مسرح أو قاعة موسيقى أو حلبة من حلبات السيرك ، أو محفل من محافل الأدب والشعر بكل الوسائل الميسرة والتكاليف التى لا تتجاوز دخولهم ومواردهم .

وكل هذا تلتزم وزارة الثقافة بأن تقدمه وبأن تكفله للمواطنين ، وهى حريصة

كل الحرص على ألا يكلفهم من أمرهم شططاً ولا يثقل عليهم أو يقلب متعتهم غماً ويجعل مسرتهم هماً . . ولعل الدولة بدورها لا تضن على وزارة الثقافة بما يكفل لها أن تفي بالتزامها وأن تؤدى واجبها وأن تكفل لأصحاب هذا العطاء من الفنانين والموهوبين حقهم فى الحياة الكريمة وفى العطاء المقابل .

ثالثاً : فى مجال الكلمة المرئية بالسينما :

من حق كل طفل من أطفالنا أن يجد الكلمة التى يحبها وأن يراها على شاشة السينما ، سواء فى الأفلام الروائية التى تحكى له من وحى طفولته ومن أداء لداته من الأطفال ما يشبع حاجته وما يوفر له المتعة والموعظة . أو فى الأفلام التسجيلية التى تنقل إليه المعارف فى مختلف ألوانها فى أبواب العلم وأبواب الفن ، ومن حق كل شاب من شبابنا أن يجد الرواية السينمائية التى تمتعه والتى تصقل معرفته بالحياة والتى تتيح له النماذج الطيبة والأسوة الحسنة ، والتى تجعله على بينة مما يجرى فى عالمه والتى تعبر بصدق عن مجتمعه . عن آماله وآلامه ، والتى تبصره وتأخذ بناصره فى مضمار الحياة ، وأن يجد الأفلام التسجيلية والأفلام التعليمية ، وأن تتاح له فرصة تنمية مواهبه وصقلها فى مجالات السينما المختلفة ، سواء فى المعاهد المتخصصة أو فى مراكز التدريب أو فى نوادى السينما وجمعيات الثقافة السينمائية .

ومن حق كل مواطن من مواطنينا أن يجد دار السينما سواء فى القرية أو فى المدينة أو فى العاصمة التى تحسن استقباله بما تقدمه له من الأفلام الجيدة وبما توفره له من الراحة والمتعة ونظافة الموقع ورقة الحاشية واستكمال المرافق ، وألا يقابل بالإهمال أو بالإهانة أو بالاستغلال .

وكل هذا تلتزم وزارة الثقافة بتوفيره وتدبيره ورقابته والإشراف على تقديمه وتقويمه ، وهى مسئولة أمام المواطنين مثل مسئوليتها أمام الدولة التى تلتزم بدورها أن تقدم لها الاعتمادات المالية والإمكانات المادية بالقدر الذى يفى بهذه الالتزامات .

رابعاً : فى مجال الكلمة المصورة فى المتحف والمعرض :

من حق كل طفل من أبنائنا أن يشهد الكلمة المصورة مجسدة فى متحف يروقه ويجتذبه ويستثير نوازع المعرفة وحب الاستطلاع فيه ، وأن يجد المعرض الذى يقدم له الصورة من إنتاجه ومن إبداع لداته ومن تعبير أقرانه ، سواء فى مصر أو فى الخارج ، وأن يجد هناك إلى جانب الصورة من يشرحها له ومن يقربها إلى فهمه ومن يحببها إلى تذوقه .

من حق كل شاب من شبابنا أن يجد إبداع يراعه وتصوير ريشته ونتاج موهبته ومواهب عشيرته من الشباب مسجلة ومقدمة فى معارض تملأ حياة الناس فى الريف والحضر ، وأن يلتقى بأقرانه فى صعيدها وأن يدور بينه وبينهم حوار حول معانيها ومراميها وألوان الإبداع فيها .

من حق كل مواطن أن يجد المعارض التى تغرى بالارتياد وبالمشاهدة وبالإمتاع وبالتفاعل مع النفس والتخاطب مع الوجدان ، وأن يجد المتاحف التى يستعيض بارتيادها عن معاهد الفنون لأنه يجد فيها مدارس الفن مجتمعة ونفحات الفنانين متقابلة . ويجد فيها الراحة والمتعة ويلتمس فيها الدراسة والهواية .

من حق هؤلاء جميعاً أن نجلى لهم روائع الفن من آثار العصور الخوالى ، من حقهم أن يعايشوا مصر الفرعونية وأن يمجدوا مصر القبطية ، وأن يؤصلوا مصر الإسلامية وأن يستجلوا روائع الماضى وأن يمجدوا الشخصية المعاصرة ، وكل هذه الحقوق تلتزم وزارة الثقافة بأن تكفلها وأن تقدمها للمواطنين وأن تجعلها فى متناول الجميع سواء كانوا فى العواصم أو فى الأقاليم . بل إن حق هؤلاء الذين حرموا طويلا من ثمرات الثقافة وإبداع الفنون والآداب أن يعوضوا بإتاحة كل الفرص لهم بواسطة بيوت الثقافة وقوافل الثقافة ، وأن تكرس الجهود لمدهم بالزاد الثقافى فى مختلف المجالات . وعلى الدولة أن تؤدى بدورها حق هؤلاء فيما ترصده من الاعتمادات وما توفره من الإمكانات .

وبعد فإن دور الثقافة بعد أكتوبر العظيم أكبر وأشمل من أن تتسع له هذه

الصفحات ، ويكفى أن تكون رسالة هذا الشعب هو أن يعيد صياغة الحياة على أرضه . وإن أول أداة وأهم أداة لصياغة الحياة هى الإنسان . فإذا كان واجبنا أن نعيد صياغة الحياة فإن أوجب واجباتنا أن نعيد صياغة الإنسان فهو صانع الحياة وبناؤها المقتدر . وهو الذى صنع لهذه الأمة النصر وهيأ لها الكرامة واسترد لها الاعتبار ، فمن حقه علينا أن نوفر له كافة الوسائل لكى يعيد صياغة نفسه بصورة أفضل لحياة أفضل . . .

والإنسان على هذه الأرض من وجهة نظر الثقافة واحد من اثنين :

الأول : هو المثقف صاحب العطاء الذى يوفر الثقافة من عطاء موهبته وملكاته أو من عطاء دراسته وتحصيله . ودور وزارة الثقافة بالنسبة لهذا الإنسان أن توفر له كل أسباب الرعاية المادية والأدبية وأن تعمل على تنمية قدراته على العطاء وأن تكفل له كامل الحرية فى الانفعال والمعاناة والتعبير وحرية القنوات الموصلة لعطائه . وأن تضع إمكانات الوزارة فى عونه وفى تقديم عطائه وإنتاجه وحصيلة دراسته للمواطنين .

الثانى : هو المواطن صاحب الحق فى العطاء الثقافى بمختلف ألوانه من أدب وفن وعلم ومن مختلف الينابيع سواء العربية أو الإنسانية . ودور وزارة الثقافة بالنسبة لهذا الإنسان أن تمكنه بل تدعوه لممارسة حقه فى تلقى هذا العطاء والانفعال به انفعالا ينعكس على سلوكه فى المجتمع وتصرفه فى الحياة تصرفاً أفضل يضاعف من قدرته على الإنتاج من أجل البناء والتنمية .

على أن رسالة الثقافة بعد أكتوبر العظيم لا يمكن أن تنهض بها وزارة الثقافة منفردة أو بمعزل عن الوزارات الأخرى فى الدولة بل لابد لها من تعاون مخطط ومدروس مع أغلب الوزارات وفى مقدمتها وزارة الإعلام التى تملك من الوسائل أقدرها وأسرعها على نقل العطاء الثقافى وبثه بين المواطنين سواء فى داخل البلاد فى مختلف المواقع وبخاصة فى المواقع الريفية والنائية التى لا يتيسر الوصول إليها بالأدوات الثقافية المألوفة . كالمسرح والسينما ، بل فى خارج البلاد فى الوطن العربى الكبير وفى الدول الأخرى .

وكذلك بالنسبة لوزارتى التربية والتعليم العالى بالمشاركة فى إخراج الكتاب المدرسى على أفضل صورة تجعله جذاباً مرغوباً وفى تقديم الوسائل التعليمية عن طريق المصورات والأفلام التسجيلية والتعليمية وتنمية هوايات الطلبة والطالبات فى مختلف الفنون واستثمار إمكانات المدارس والمعاهد والجامعات المادية والبشرية فى امتداد رقعة الثقافة والمزج بين الثقافة والتعليم .

إن التعاون الكامل بين وزارة الثقافة وبخاصة قطاع الآثار وبين وزارة السياحة أمر بالغ الأهمية وهو بلا شك سيؤدى إلى ازدهار السياحة الثقافية ، وهى من الأنشطة الهامة التى تمثل عائداً ضخماً بالنسبة للدول ، وكذلك ازدهار الثقافة السياحية وهى بدورها عامل من عوامل الإثراء التعليمى والثقافى .

ومع وزارة الشباب يقوم تعاون بناء من أجل أهم قطاع فى حياة الأمة . وهو قطاع الشباب وتلبية احتياجاته فى مجالات الثقافة المختلفة سواء من الكلمة المطبوعة أو الكلمة المسموعة أو الكلمة المرئية أو المصورة ، والتعبير عن طاقاته الإبداعية بالمشاركة فى أنشطة نوادى الشباب والرياضة والساحات الشعبية والأندية الريفية .

ومع وزارة الصحة فى نشر الثقافة الصحية بكافة الوسائل المتاحة لوزارة الثقافة من كتاب إلى سينما إلى مسرح إلى معرض ومتحف وبالنسبة لتنظيم الأسرة فإن قصور ومراكز وبيوت الثقافة وقوافلها تستطيع أن تقوم وهى تقوم فعلا بدور فعال وتسهم بالندوة والمحاضرة والفيلم فى التوعية بذلك .

ومع وزارة الزراعة فى الثقافة الزراعية والإرشاد الزراعى والتنسيق بين القوافل الزراعية والقوافل الثقافية ، فى توصيل المادة الثقافية إلى المواطنين فى المناطق الريفية والنائية .

ومع وزارة الشئون الاجتماعية فى معالجة المشكلات الاجتماعية المتعلقة بحياة الأفراد وحياة الأسر ومعالجة الظواهر الاجتماعية والعادات والتقاليد التى لا تتفق مع القيم الحقيقية لمجتمع يقوم على العلم والإيمان .

والتعاون بين وزارة الثقافة ووزارتى الأوقاف وشئون الأزهر فى نشر الثقافة الأثرية والثقافة الدينية والاحتفال بالمناسبات الإسلامية احتفالا يجردها من الشوائب .

والعمل على تثبيت القيم الدينية والمعتقدات السليمة .

أما التعاون مع وزارة الخارجية فيبرز في مجال علاقات الثقافة الخارجية سواء بالدول العربية أو الإسلامية أو الأجنبية ، وكذلك بمختلف المنظمات والهيئات الدولية وعقد المعاهدات والاتفاقات والبرامج التنفيذية لتقوية هذه العلاقات وتحقيق التبادل الثقافي والفني بشتى الصور التي تعود بالنفع المؤكد على الجانبين من تبادل الخبرات والوفود والفرق الفنية والمعارض ، ولا شك أن نموذجاً واحداً من أبرز النماذج الناجحة في هذا المضمار معارض آثار توت عنخ آمون التي أقامتها وزارة الثقافة في اليابان وفي فرنسا ثم في إنجلترا وأخيراً في الاتحاد السوفييتي ، وما حققته سواء من العائد المادي أو الأدبي لشاهد على صورة من أجمل صور التعاون .

وكما أسلفنا فإن أكتوبر العظيم قد زاد في إحساس وزارة الثقافة بمسئوليتها عن تلبية حاجة المواطنين ، بل حاجة الأشقاء من أبناء الوطن العربي ، أو على الأصح تلبية حق هؤلاء جميعاً بمختلف أعمارهم وفئاتهم في العطاء الثقافي بمختلف ألوانه ومن أجل ذلك فقد وضعت خطتها وتخطيط مشروعاتها وأنشطتها من الآن إلى عام ٢٠٠٠ أو إلى مستهل القرن الحادي والعشرين على أساس تحقيق حق كل مواطن في العطاء الثقافي باعتباره أمراً حيويًّا كحاجته إلى الغذاء وإلى السلاح ليذود به عن وطنه .

وإذا كان لي أن ألخص دور وزارة الثقافة بعد أكتوبر العظيم فهو العمل على تحقيق المعرفة الجذابة والمتعة الوجدانية للإنسان بكل الوسائل المتاحة أو التي يستنبطها العلم في المستقبل . إسهاماً منها فيما دعا إليه الرئيس أنور السادات من إعادة بناء الإنسان من أجل دفع التنمية الشاملة لإقامة مجتمع العلم والإيمان مجتمع الكفاية والعدل مجتمع الرخاء والأمان .

والله وليّ التوفيق

محتويات الكتاب

صفحة



تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٤/٤٦٩٢

* مطابع دار المعارف بمصر - ١٩٧٤ *
١/٧٤/٢٥٤

